الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليـــم العـــالي والبحـــث العلمـــي

جــامعة منتــوري – قسنطينـة
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم علـم الاجتمـاع
رقـم التسجيـل....................
الرقـم التسـلسـلي..................

حياة الترحال بين الإستمرار والزوال

دراسة أنثروبولوجية حول نمط الإنتاج الرعوي عند البدو الرحل

- منطقة عين عبيد

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية

بالمشاركة العلمية للمركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران

C.R.A.S.C.

إعداد الطالب: تحت إشراف:

فوزي مجمج **أ.د/حسني بوكرزازة**

أعضاء لجنة المناقشة: **تاريخ المناقشة:2010/05/17**

أ.د/ إسماعيل بن السعدي	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري قسنطينة	رئيسـا
أ.د/ حسني بوكرزازة	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري قسنطينة	مشرفا ومقررا
د/ أحمد زردومي	أستاذ محاضر	جامعة منتوري قسنطينة	عضـوا
د/ يمينة عرفة	أستاذة محاضرة	جامعة منتوري قسنطينة	عضـوا

السنة الجامعية 2009 2010

الفهرس

مقدمة..

الفصل الأول: الإطار المنهجي للدراسة

1- الإشكالية...2

2- أسباب إختيار الموضوع...5

3- أهمية الموضوع...5

4- أهداف الدراسة...6

5- الدراسات السابقة...6

6- تحديد المفاهيم...9

6-1-البداوة والترحال..10

6-2-طبيعة الترحال وأنواعه..11

6-2-2-الإرتحال الطارئ (الاضطراري)..12

6-2-3-الإرتحال الموسمي(رحلتا الشتاء والصيف)...12

6-2-4-الإرتحال الدوري (التبادلي أو الرأسي)...13

- أ- الإرتحال الدائم...13

- ب الإرتحال المؤقت 14

7- تحديد المجال الزماني والمكاني للدراسة..15

8- منهجية البحث...16

9- ميدان الدراسة...17

10- حالات البحث...18

11- تقنيات البحث(أدوات جمع البيانات)..18

11-1-1- الملاحظة بالمشاركة 20

11-1-1-1- الصدمة وفشل المحاولة...20

11-1-1-2 الوسطاء والمخبرين...20

11-1-1-2-1 الوسيط والمخبر الأول...21

11-1-1-2-2 الوسيط والمخبر الثاني...21

11-1-1-3 الزيارات والتمرس...23

11-1-1-4 إكتشاف السيارة كوسيلة للتواصل مع البدو الرحل...23

11-1-1-5 صعوبات الملاحظة بالمشاركة 24

11-2-المقابلات 24
11-2-1-صعوبة هذه المقابلات..26

الفصل الثاني: بعض الخصائص التاريخية والجغرافية لمنطقة الدراسة

1- الأراضي الخصبة و الطابع الفلاحي..28
2- تاريخ و أصول المنطقة..29
2-1- ظهور عين عبيد إلى الوجود..29
2-2-أصـل السكـان..31
2-3-مقاومة الاستعمار الفرنسي..32
2-4-التوطين والفرقة القبلية..33
2-5-موعد جديد مع التاريخ: هجومات 20 أوت 1955...33
2-5-1-الأهداف المسطرة و المنجزة للهجوم..34
2-5-2-خيمة الرحل تهز هيئة الأمم المتحدة..35
3-الموقع الجغرافي..36
4-الجيولوجية و التضاريس..37
5-المنـــاخ...38
6-السكان و الديمغرافيا..39
7-النشاطات...41
7-1-الفلاحة...41
7-2-تربية الماشية..42
7-3-الأشجار المثمرة...42
7-4-تربية الدواجن...42
7-4-1- دجاج البيض..43
7-4-2- الدجاج (اللحوم البيضاء)..43
7-5-تربية النحل..43
8- التجـارة...43
8-1-السوق الأسبوعي...44
9- الصناعة..45
10- الحرف..45
11-الشبكـــات...46

11-1- شبكة الطرق..46
11-2- السكة الحديدية..47
11-3- شبكة الإتصالات..47
12- الموارد المائية..47
13- الوضعية العقارية..48
- 1- تصنيف المستثمرات حسب نوع حيازتها..50
- 2- توزيع المستثمرات حسب مساحة القطع الأرضية.................................51
الخلاصة...52

الفصل الثالث : لمحة عن تاريخ البدو الرحل في الجزائر

1- إشكالية كتابة تاريخ البدو الرحل في الجزائر.....................................55
2- ملامح المجتمع الجزائري غداة الإحتلال الفرنسي..................................56
3- سكان الجزائر...57
4 التنظيمان الإجتماعي والإقتصادي(الأرض القطيع).................................60
- أولا: التنظيم الإجتماعي...60
- ثانيا: التنظيم الإقتصادي أو العوامل المادية للإنتاج الرعوي (الأرض القطيع)..........61
- أ- الترحال الرطب (Le nomadisme humide)......................................63
- ب- الترحال الجاف : (Le nomadisme sec) 63
- ج- الترحال القاحل : (Le nomadisme aride).......................................64
5- حركة البدو الرحل في الجزائر..65
5-1- العشابة...65
5-2- العزابة..65
6- الاحتلال الفرنسي و استهدافه للبدو الرحل...66
6-1- زوال الترحال الرطب 68
6-2- زوال العشابة و الترحال الجاف 69
7- البدو الرحل بعد الاستقلال...71
7-1- تراجع آمال و طموحات البدو الرحل...74
الخلاصة...77

الفصل الرابع: الرحلة إلى التل

1 التصنيف..80
2 الصعود إلى التل..81
3 فصل الربيع...84
4 العوائق المناخية...86
5 محطة الصيف..90
6 إستراتجيات التفاوض..90
7 مضارب الخيام...92
8 الرعي...93
9 فراسة الرحل وحذرهم..95
10 هاجس العام...96
11 السوق..98
11 1 العرض والطلب...98
11 2 البيع والشراء...99
12 المدينة...101
13 الرجوع إلى الصحراء...101
الخلاصة..103

الفصل الخامس : الرحل وشبه الرحل اليوم

1 المقاييس الكلاسيكية..105
2 المقاييس الموضوعية...106
2 1 الخيمة (البيت)..106
2 1 1 خيمة أولاد سايح..107
-2 1 2 خيمة أولاد عيسى...108
2 1 3 خيمة أولاد دراج...109
2 2 الارتباط بالأرض..111
2 2 1 إقامة الأعراس بالتل...114
2 2 2 دفن الموتى...116
2 3 زمن الصعود إلى التل و الرجوع إلى الصحراء..117
3 المقاييس الذاتية..119

3 1 البحث عن حياة الاستقرار...119
3 1 1 العمل القار...120
3 2 الرموز الثقافية...121
3 2 1 الغفارة..122
3 2 2 كبير الجماعة..122
3 2 3 الحصان...123
3 3 الرحل الحقيقيون...124
الخلاصة..126

الفصل السادس : الإنتاج الرعوي عند البدو الرحل

1 القاعدة الذهبية للإنتاج الرعوي عند الرحل..128
1 1 البركة...129
1 1 1 عامل المناخ...130
1 1 2 التداخل بين الإنتاج و الإستهلاك..131
1 2 الدلالة السوسيولوجية لهذه القاعدة...131
2 السلالات..132
2 1 سلالة أولاد جلال (La race ouled djelal)...132
2 2 سلالة رامبي (la race rembi)...133
2 3 سلالة حمرة (la race hamra ben lghil)..133
2 4 سلالة تادمايت (la race tadmaat)..133
2 2 الشتلة..133
2 2 1 الفحل..134
2 2 2 الخصي...135
2 2 3 الإلقاح والتخصيب...135
2 2 4 الولادة...136
2 2 5 الرضاعة والفطام...136
3 القطيع لا ينمو طبيعيا...137
4 إستراتجيات التعويض..138
4 1 الشراكة..138
4 1 1 الأرض ، الجزة و الخروف..140

4 1 2 طريقة الجزة و الخروف..141
4 1 3 طريقة رأس المال..141
4 2 التهريب..141
4 3 التجارة و تخزين الأعلاف..142
5 حيوانات الترحال..143
5 1 الماعز في القطيع..143
5 2 الكلاب..145
5 3 الحمار..146
5 4 الأرانب...147
5 5 الدجاج..147
5 6 الجمـــل...147
5 7 الحصان...148
6 تقسيم العمل...149
6 1 دور الأب...150
6 2 الإبن الأكبر..151
6 3 باقي الإخوة..151
6 4 الزوجة...151
6 5 الجد...151
6 6 الجدة...152
الخلاصة..153
الخاتمة...156
ملحق الخرائط ....
ملحق الصور..
المراجع..

قائمة الجداول

الجدول رقم (01) : توزيع متوسط أيام تساقط الجليد في السنة ببلدية عين عبيد..........................38
الجدول رقم (02): معدل تساقط الأمطار السنوي (من سنة 1976 إلى سنة1991م)......................39
الجدول رقم (03): توزيع المساحة الصالحة للفلاحة(بالهكتار)...41
الجدول رقم (04): نشاط تربية دجاج البيض لسنة 2009/2008 ببلدية عين عبيد........................43
الجدول رقم(05):إنتاج اللحوم البيضاء لسنة 2009/2008 ببلدية عين عبيد..............................43
الجدول رقم (6): توزيع المستثمرات حسب نوع حيازتها..50
الجدول رقم (6): توزيع المستثمرات حسب نوع حيازتها..51
الجدول رقم(08):عدد رؤوس البقر لكل 100ساكن بدلالة درجة الرطوبة..................................63
الجدول رقم(09):عدد رؤوس الجمال لكل 100 ساكن بدلالة درجة الرطوبة..............................64
جدول رقم(10): أهم المقاييس الموضوعية للتفريق بين الرحل وشبه الرحل............................118
جدول رقم(11):الحصيلة النظرية لتكاثر الأغنام خلال خمس سنوات.....................................128
جدول رقم (12) : أهم أمراض الأغنام المنتشرة و المعروفة عند البدو الرحل..........................139

قائمة الخرائط (ملحق الخرائط)

الخريطة رقم (01):..........NORD-EST ALGERIEN, LIMITES ADMINISTRATIVES DE WILAYAS
ET LOCALISATION D'AIN-ABID
الخريطة رقم (02):...COMMUNE D' AIN-ABID
الخريطة رقم (03)..................NORD-EST ALGERIEN MOBILITE NOMADE VERS AIN-ABID

قائمة الصور (ملحق الصور)

الصورة رقم(01): ....البدو الرحل يتجاذبون أطراف الحديث

الصورة رقم(02): ....عين عبيد خلال الحقبة الإستعمارية (قبل 1900م)

الصورة رقم(03):... آثار رومانية بمنطقة عين عبيد (العهد البيزنطي)

الصورة رقم(04):.. مجازر 20 أوت 1955 بعين عبيد

الصورة رقم(05): البدو الرحل يتعرضون إلى الإنتقام الأعمى بعد هجومات 20أوت 1955 على عين عبيد

الصورة رقم(06):..الشاحنة: سيدة الترحال الحالي اليوم بلا منازع

الصورة رقم(07):..الرحل و الدراجة النارية

الصورة رقم(08):...دور القطيع في تسميد الأرض

الصورة رقم(09):..مضارب الخيام

الصورة رقم(10):..السوق الأسبوعية لبلدية عين عبيد

الصورة رقم(11):..البيع والشراء

الصورة رقم(12):..الرحل لا يبتعدون عن المدينة

الصورة رقم(13):..الرحل يعودون إلى الصحراء

الصورة رقم(14):.. خيمة أولاد السايح

الصورة رقم(15):..الخيمة النايلية (بيت أولاد عيسى) أو البيت لكبيرة

الصورة رقم(16):..خيمة أولاد دراج

الصورة رقم(17):..عرس أولاد أم لخوة (أولاد عيسى) بعين عبيد

الصورة رقم(18):...البدو الرحل يحصدون الفريك

الصورة رقم(19):...كبير أولاد أم لخوة

الصورة رقم(20):...حصان عربي أصيل

الصورة رقم(21):..المعالف (Les mangeoires)

الصورة رقم(22):..عملية شحن حزم التبن (البال) إلى الجنوب

الصورة رقم(23):...الماعز يقود القطيع

الصورة رقم(24):...تربية الكلاب عند البدو الرحل

الصورة رقم(25):...الحمار في طريقه لجلب الماء

الصورة رقم(26):...الدجاج يحمي محيط الخيمة

الصورة رقم(27):...الجمل في التل

المقدمة

مقدمة:

لقد ظلت حياة الترحال و لأمد طويل نمطا للحياة قائما بذاته ونظاما اجتماعيا اقتصاديا جد متكاملا سمح للإنسان ولقرون عدة بالعيش في ظروف طبيعية جد قاسية (المناطق الصحراوية والشبه الصحراوية) يتنقل بقطعانه على مساحات شاسعة طالبا للكلأ والماء، محققا بذلك إستقلالا سياسيا عن كل أنواع التحكم والسيطرة، لكن وفي ظل التغيرات التي شهدها العالم خلال القرن التاسع عشر باتساع موجة الاستعمار وهيمنة نمط الإنتاج الرأسمالي، عرف الترحال تحولا جذريا مس أهم بُناه الإقتصادية، الإجتماعية وحتى السياسية حيث أدّى تحطيم القبيلة ككيان سياسي واجتماعي في الجزائر إلى تراجع هذا النمط من الحياة بشكل كبير، فمع طغيان اقتصاد السوق والتعاملات المالية وكذا إرادة الدول الحديثة في توطين البدو الرحل أصبحت هذه المعيشة التقليدية حقيقة في الميزان، لقد تراجعت مظاهرها تدريجيا عبر مراحل زمنية عديدة حتى أصبحت حتمية زوالها فرضية شبه مؤكدة تداولتها الكثير من الدراسات السوسيولوجية والاقتصادية باعتبارها شكل من أشكال الحياة القديمة المتخلف الذي يسيء اليوم إلى وجه المجتمعات المتحضرة، لذلك كان من الضروري التخلص منه بكل الطرق والوسائل، وهذا ليس فقط بوضع السياسات والاستراتيجيات المختلفة لتوطين ما تبقى من البدو الرحل وحسب بل أيضا العمل على طمس معالم ماضيه العتيد وعدم المجيء على ذكر ذلك العهد الذي كان فيه الرحل يصنعون التاريخ والدول في منطقة المغرب العربي وهذا لأسباب أتينا على تفصيلها بدقة في الفصل الثالث من دراستنا هذه.

لقد ذهب الحد ببعض الباحثين والمهتمين بعالم الترحال إلى المراهنة على عدم تخطي هذا الأسلوب في الحياة عتبة الألفية الثالثة في الجزائر، لأن التطور الإنساني حسب رأيهم يسير وفق نموذج خطي واحد لا مناص منه، لكن اثبت واقع الحال أن هذه الطريقة في العيش لا تزال تستمر إلى يومنا هذا وبغض النظر عن حجمها الحقيقي وماذا تمثله إحصائيا داخل المجتمع الجزائري إلا أن الحقيقة الثابتة ميدانيا هي ما نراه اليوم وما نشاهده من رحل ما زالوا يجوبون البلاد طالبين رزقهم كما في الماضي البعيد يتتبعون مواطن الكلأ ويمتلكون ثروة حيوانية لا يمكن تجاهل أثرها الاقتصادي على التنمية في الكثير من المناطق داخل الوطن أو خارجه .

لقد حاولت هذه الدراسة تتبع بعض من جماعات البدو الرحل لأولاد عيسى وأولاد دراج الذين يفدون كل سنة إلى منطقة عين عبيد الواقعة شمال شرق ولاية قسنطينة لفهم أسباب ترحالهم وسر إستمراره على الرغم من كل التحديات الحاصلة اليوم في زمن طغت فيه الأسواق وأصبحت المدن مركز الحضارة التي تدور حولها حياة الإنسان بلا منازع ؛ ومن خلال الفترة التي أتيحت لنا معايشتهم وملاحظتهم عن قرب جاء بحثنا هذا عبارة عن ستة فصول حاولنا فيها تشريح أهم معالم هذا النوع من العيش وصبر أغواره في الماضي والحاضر في محاولة لاستبيان أوجهه المختلفة، ولقد قمنا في الفصل الأول بطرح إشكالية البحث وأهم التساؤلات التي تنطلق منها هذه الدراسة متبعة بتحديد أسباب إختيارنا لهذا الموضوع، أهميته وأهدافه ثم قدمنا بعد ذلك جمة من الدراسات التي تناولته إذ حاولنا مناقشتها وتصنيفها حسب الظروف التي أثرت في محتوياتها والأهداف التي أنجزت من أجلها كما جئنا على تحديد مفهوم الترحال والمفاهيم الأخرى التي تدور في فلكه وكذا تحديد المجال الزماني والمكاني للدراسة بعدها تطرقنا إلى الجانب المنهجي للدراسة حيث استعرضنا منهجية البحث ، ميدان الدراسة،حالات البحث وتقنياته.

في الفصل الثاني حاولنا تقديم نظرة شاملة ومفصلة عن ميدان الدراسة بدءا بتاريخ المنطقة، أصول سكانها وانتهاء إلى عرض كل خصائصها الطبوغرافية، المناخية والعقارية مبينين في كل مرة عناصر الوصل بموضوع دراستنا مما يتيح لنا بشكل جيد فهم الأسباب التي تجعل منطقة عين عبيد أكثر إستقطابا للبدو الرحل عن غيرها من المناطق.

الفصل الثالث خصصناه لإعطاء لمحة تاريخية عن البدو الرحل في الجزائر، لماذا يواجه هذا التاريخ إشكالية في كتابته، ما هي ملامح المجتمع الجزائري قبل وبعد الإستعمار الفرنسي، ما هي تنظيماته الإجتماعية والإقتصادية ، لماذا أستهدف المستعمر البدو الرحل دون غيرهم وكيف أثر ذلك على حياتهم؟ بعدها تطرقنا إلى حياة الترحال بعد الإستقلال كيف أصبحت وما هي أهم المراحل التي تخطتها وصولا إلى الحال التي آلت إليه اليوم، أما الفصل الرابع فقد تتبعنا فيه حركة صعودهم إلى التل، توقيتها، مراحلها وأهم علاقاتهم الإجتماعية والإقتصادية بمنطقة عين عبيد من إحتكاك بالناس ، بالمدينة والسوق حتى يقفلوا راجعين إلى الصحراء؛ وبما أنه كان من الضروري فهم فسيفساء المعطيات الميدانية من تنوع لحياة الترحال وإختلافها فقد عملنا في الفصل الخامس على مناقشة المقاييس القديمة التي كان يفرق على أساسها بين الرحل وشبه

الرحل وقمنا بما إستطعنا مشاهدته بإقتراح مقاييس بديلة هي أكثر موضوعية في نظرنا لمعرفة الصنفين اليوم والفصل بينهما؛ وأخيرا تعرضنا في الفصل السادس إلى محور الإنتاج الرعوي عند البدو الرحل حيث تناولنا إحدى أهم قواعده بمدلولها الحسابي،الرمزي والإجتماعي وكذا الأسس العقلانية التي تحكمه وتفرقه عن غيره من الأنماط الإنتاجية الحديثة مسترسلين في شرح مختلف ميكانزماته وما يتعرض له في الوقت الراهن من تحديات ومستجدات، وهذا إعتقادا منا بعلاقة هذا المحور المباشرة بسر بقاء الترحال وإستمراره؛ يلي هذا الفصل خاتمة عامة أوجزنا فيها مجمل الأفكار الرئيسة التي دارت حولها هذه الدراسة ، وفي النهاية وبشكل مستقل أدرجنا قائمة لأهم المراجع المعتمدة وملحقين، الأول كان للخرائط والثاني عبارة عن صور فوتوغرافية ألتقطناها طيلة سيرورة هذا البحث تدعيما لحصر الأوجه المختلفة للميدان الدراسة.

الفصل الأول :

الإطار المنهجي للدراسة

تمهيد:

إن محاولة فهم حياة الترحال من منطلق تصوراتنا الخاصة والأحكام المسبقة التي نطلقها عن عدم دراية كافية وفهم عميق لهذه الظاهرة تجعلنا حبيسي رؤى جد ضيقة تمنع في كل الأحوال من التوصل إلى حقائق نظن أننا أدركناها جيدا، إن الحكم المطلق الذي يدعي أن الترحال محكوم عليه بالزوال وأن الرحل لا صلة لهم بالعالم الحضري والتقدم قد أثبت إلى حد الآن عدم جدواها من الناحية الموضوعية والواقعية، فاستمرار حياة الترحال اليوم بكل ما تحمله من متغيرات وتأقلم مع العصرنة من أهم الدواعي التي تدفعنا إلى تجاوز نظرتنا المبسطة الضيقة ومحاولة فهم حياة البداوة والترحال عبر تقريب رؤيتنا من رؤية الرحل وتصوراتهم[1].

1- الإشكالية:

لقد أكد ابن خلدون أن البداوة تنتهي إلى الحضر عندما تتوفر شروط الرغد، إلا أنه لم يشر البتة إلى إمكانية زوال هذه الحياة بشكل مطلق بل ذهب إلى الإشارة أن أهل الحضر قد يصيرون هم أنفسهم إلى حياة البدو في حالة الحاجة أو تدني مستوى معيشتهم[2]، وإذا كان ذلك لا يحدث إلا في القرن الرابع عشر فإننا وجدناخلال القرن العشرين بعضا من قبائل النيجر (ويويبي و لوداين) " wewebe et uda'en" يعودون إلى حياة الترحال بعد زمن طويل من الإستقرار[3] وقد يكون العامل الحاسم في ذلك ولا شك هو الجانب الاقتصادي (النشاط الرعوي) وكذا ضرورة التأقلم مع العامل الجغرافي (مناطق السافانا والمناطق القاحلة ونصف القاحلة)، يقول جاك بارك في هذا الصدد: " إن حياة البداوة والترحال هي أولا وقبل كل شيء حالة قصوى من التأقلم مع الطبيعة القاسية"[4] ، وإذا كان التطور الحاصل اليوم في كل جوانب الحياة قد أزاح مفهوم الطبيعة القاهرة وأعطى للإنسان المعاصر إمكانية إخضاعها، فهو بدون شك قد أثر بشكل كبير على حياة الترحال القديمة بمفهومها التقليدي، ففي المغرب مثلا وحسب دراسة للباحث الأنثروبولوجي حسان رشيق تحت عنوان: Comment rester nomade ?، يرى أن لفقدان الجمل الذي عوضته الشاحنة دور كبير في تحلل

[1] Denis Retaille, Conception nomade de la ville, In.URBAMA, N°.20, Tours, France, p.21.
[2] Ibn Khaldun, Discours sur l'histoire universelle, Al mukadima, Drad, Vincent Montel, Sindibad, Paris, 1978, p.245.
[3] Marguerite Dupire, Peuples Nomades, Sindbad, Paris, 1er Ed 1962, 2ème Ed 1996, pp. XIX-XX.
[4] Hassan Rachik, Comment rester nomade, Afrique-orient, Casablanca, En 2000, p.15.

القبيلة وذهاب تماسكها عند قبائل "بني قيل" في المغرب الأقصى[1]، الأمر الذي دفع بالكثيرين منهم إلى التوطن والإستقرار، لكن البحث عن إجابة نهائية لسؤال الباحث: "هل يمكننا الحديث اليوم عن مجتمع الرحل وحياة الترحال؟ بقي مفتوحا، لأن البعض من "بني قيل" لا يزالون يرتحلون...، و حتى من إستقر منهم ظل يحنّ لأيام الترحال الخوالي المفعمة بالحياة والحركة[2] .

أما في الجزائر، فقد لعب الإستعمار الفرنسي الدور الأكبر في تحطيم البنية الإقتصادية والسياسية لقبائل البدو الرحل وهذا بحرمانهم من أراضي التل التي كانت تلعب دورا هاما في إنتاجهم الرعوي الذي يعتمد عليه معاشهم وتدور حوله حياتهم (العشابة)[3].

لقد تراجعت نسبة البدو الرحل في الجزائر من 65% قبل الإحتلال الفرنسي إلى 5% فقط بعد الإستقلال (1962) واستمرت هذه النسبة في التراجع لأسباب سياسية وإقتصادية (تطبيق الإشتراكية وفرض التعاونيات الرعوية على البدو الرحل) إلى أن وصلت سنة 1977م إلى 2% ، وفي هذه المرحلة بالذات، ذهب الكثير من الخبراء (إقتصاديين وعلماء إجتماع) في تأكيد حتمية زوال ظاهرة البداوة والترحال من الجزائر[4] خاصة لما آلت إليه مناطق السهوب من تصحر ورعي مكثف هدد مصير الغطاء النباتي من الحلفة والشيح[5] واللذان تعتمدهما كثيرا أغنام البدو الرحل في حلقة رعيها ؛ وبالفعل فإن ظاهرة الترحال تواصلت في الانحصار حتى وصلت سنة 1985 م إلى 1% فقط من سكان الجزائر[6] فأصبحت بذلك البداوة وحسب رأي الدكتور محي الدين صابر " نمطا شاذا في المجتمع الحديث، وقطاعا متخلفا في ضوء الظروف السياسية، الإقتصادية والإجتماعية المعاصرة [7]"؛ و يضيف يوسف نسيب دائما في نفس السياق: " إن البدوي لا يفهم معنى الإستثمار ولم تتكون عنده روح المؤسسة، إن حياة الترحال لن تتعدى عتبته الألفية الثالثة[8].

---

(1) Hassan Rachik, Op. Cit.، pp.50-15.

(2) Ibid., p.175

(3) M'hamed Boukhobza, L'agro-pastoralisme traditionnel en Algérie, OPU, Alger, p.111.

(4) Nadia Chellig, Pouvoirs et société agro-pastorale dans les hautes plaines steppiques en Algérie, p.13.

(5) Youcef Nacib, Un geste en fragment, Publisud, Paris, 1994, p.34.

(6) Ibid, p.169.

(7) د. محمد السويدي، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، جويلية 1990، ص. 155.

(8) Youcef Nacib, Op. Cit., p.169

إن هذه الآراء طبعا تبقى محل أخذ ورد لأن الواقع اليوم على الأقل يثبت إستمرارية وجود البدو الرحل في الألفية الثالثة، كما نجد أيضا من المفكرين من يرفض وبشكل مطلق نعت حياة الترحال بالتخلف والحكم عليها بالزوال، بل يذهبون أبعد من ذلك، إذ يرون أنها قمة التآلف بين الطبيعة والإنسان، ويجب التفكير مليا اليوم- على ضوء كل تلك التحديات التي تطرحها مشكلة التلوث والإحتباس الحراري عن مصير الكرة الأرضية في عالم الحداثة الذي لا يعرف حدودا للتصنيع وكذا ضعف البيئة على إستيعاب كل الخروقات التي مصدرها الإنسان المعاصر- في التبصر لرؤى أكثر موضوعية لما يسمى بالأنماط التقليدية للحياة(1).

وأخيرا نعود أمام هذا الجدل القائم حول الإنسان والطبيعة لنسأل عن حقيقة وضعية حياة الترحال اليوم في الجزائر، كيف تستمر و ما هي مكوناتها الحالية؟.

وإذا كانت بعض الدراسات الاقتصادية والسوسيولوجية قد توقعت زوال هذه الظاهرة فلا شك أن بداية بحث ودراسة أنثروبولوجية حول الظاهرة قد أصبح أكثر من ضرورة لمعرفة كيف إستطاع البدو الرحل اليوم التأقلم مع المعطيات المعاصرة من مدن، أسواق وأنماط الإنتاج الحديثة؟

1-1-وعليه فان التساؤلات التي تنطلق منها هذه الدراسة هي:

من هم البدو الرحل في الجزائر؟ ما هي أهم التحولات التي عرفها مجتمع الرحل خلال فترة الاستعمار الفرنسي؟ كيف كان حلهم وترحالهم في الماضي وكيف صار عليه اليوم؟ لماذا يقصدون مناطق دون أخرى(منطقة عين عبيد مثلا)؟ كيف يتعاملون مع المستجدات الحاصلة على الأرض من تغيرات للوضعيات العقارية وانحصار الأراضي الرعوية، كيف أصبح السوق جزءا لا يتجزأ من حياتهم الاقتصادية، وكيف ألفوا المدينة وغوغائها وما هي الاستراتاجيات التي طوروها لمواجهة كل ذلك؟هل هم سائرون نحو التوطين؟ من هم الشبه رحل وكيف يمكن أن نفرقهم عن الرحل؟ هل حالة شبه الترحال هي مرحلة وطريق نحو التوطين؟ هل لا يزال نمط إنتاجهم الرعوي تقليديا أم انه تكيف مع معطيات أنماط الإنتاج الحديثة؟.

(1) http://biosphère.blog.lemonde.Fr Le 28-10-2007 à 10h 32m.

2 أسباب إختيار الموضوع:

إن الميول الأنتروبولوجي الأول إلى ضرورة دراسة مجتمع صغير وبعيد يحقق الشروط المثالية في أداء عمل أنثروبولوجي متكامل خاصة من الناحية المنهجية (تحقيق الغرائبية وأداء الملاحظة بالمشاركة بعيدا عن أي تأثيرات داخلية) جعلنا نختار موضوع البدو الرحل لما يعرفه هذا المجتمع من تواجد مستقل إجتماعيا وإقتصاديا نكاد نحن أهل المدينة أن نجهله تماما.

هذه الاستقلالية عن هذا المجتمع جعلتنا نرغب في خوض التجربة الأنثروبولوجية للتمرس في الميدان أولا، ثانيا، لتقديم عمل علمي يرقى إلى إستحقاق نيل شهادة الماجستير، لكن وبعد الغوص في أغوار هذا الموضوع تحولت العلاقة به إلى أكثر من ذلك، لقد أصبح إكتشافا بالنسبة لنا، يشكل- على الرغم من الدراسات الكثيرة التي أجريت حوله مادة خام من الناحية السوسيو- أنتروبولوجية، لأننا كباحثين نقف أمام فرصة ثمينة لملاحظة التغيرات الحاصلة اليوم في هذا المجتمع التقليدي حيث تتاح لنا إمكانية الوقوف على الإختلافات الكبيرة الموجودة بين الأجيال فيه وكيف يتفاعل أفراده في التكيف مع العصرنة؟ وهذه في الحقيقة صورة مر بها المجتمع الجزائري جملة، لكن مشهدها هنا لا يزال حيا مفعما بالأحاسيس التي تترك الباحث يعيش بأكثر فهم واستيعاب لما حدث في الماضي.

إن دراستنا هذه هي مجرد ولوج بسيط في نمط حياة كامل قائم بذاته حاولنا إعطاء بعض ملامحه لكنه يبقى بكل جزئ من أجزائه يمثل موضوعا للدراسة المعمقة والبحث.

3 أهمية الموضوع:

يكتسي موضوع البدو الرحل أهميته في كونه يتطرق إلى تركيبة من المجتمع الجزائري تشكل جزءا هاما من ذاكرته، فالبدو الرحل صنعوا الحدث منذ ما يقارب الستة قرون في المغرب العربي عامة وفي الجزائر خاصة، أي إبتداء من مجيء الهلاليين وبنو سليم إلى المنطقة في القرن الحادي عشر حيث ويعود أغلب سكان جزائر اليوم إلى هذه الأصول، ودراستنا لا تهتم بالجانب التاريخي في الموضوع أكثر مما تهتم بالجانب الاجتماعي والاقتصادي لما تبقى من بدو رحل في الجزائر مازالوا يمارسون حياة الحل والترحال راغبين من خلال ذلك إلى إخراج هذا المجتمع المهمش والتقليدي إلى النور ومحاولين فهم التفاعلات الحاصلة معه اليوم مع ما تعرفه الحياة من تعقيدات العصرنة والحداثة.

إن معرفة الذات هي في الأهمية بمكان لتحديد الهوية، هذه الهوية التي لعب الإستدمار الفرنسي على طمسها وتحطيمها تاركا أجزاءها اليوم مهلهلة في مهب الريح، وهذه الدراسة (ونرجو أن تكون كذلك) محاولة للمصالحة مع جزء منا، من مجتمعنا نجهله وأحيانا أخرى نظنه غريبا عنا بينما نحن في الأصل منه، وسنرى كيف يؤثر جهلنا هذا بمجتمعنا على وضع أبسط القواعد الإحصائية لحصره، فما بالك بوضع سياسات بأكملها لتنميته بينما هي لا تأخذ بعين الإعتبار أدنى خاصية من خصائصه.

4-أهداف الدراسة:

لا تخلو أي دراسة علمية من جملة من الأهداف تصبو إلى تحقيقها و نحن في هذا المقام أردنا بالدرجة الأولى معرفة الأسباب الحقيقية التي تسمح باستمرار هذه الحياة القديمة إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى فهم منطق العيش عند الإنسان والذي يمكن أن يتخذ صورا عديدة تتحكم فيه عوامل بيئية ثقافية هي أكثر غنا من تلك الصور التي تريد العولمة اليوم فرضها كبديل حتمي للتطور الإنساني.

من أهداف دراستنا أيضا توضيح أهمية النماذج أو الأنماط التقليدية للإنتاج وتبيان مدى صلاحيتها كنتاج ثقافي يتماشى أكثر ومنطق التنمية (جنوب، شمال، شمال،جنوب) بدل (شرق،غرب غرب،شرق) وإمكانية تطوير هذه الأنماط بأخذها ضمن محتوياتها الطبيعية لا العمل على إجتثاثها جملة أو محاولة إستبدالها من أجل التجميل فقط.

5-الدراسات السابقة:

لقد إهتم الباحثون الاجتماعيون على إختلاف إختصاصاتهم بموضوع الترحال فدرسوا الكثير من مجتمعات الرحل في كل أرجاء المعمورة، لذلك كان التراث النظري المتاح حول الموضوع كبيرا جدا، وجله مكتوب باللغة الإنجليزية لكن ما أتيح لنا الإطلاع عليه كان فقط باللغتين العربية والفرنسية* مع التركيز أكثر على ما كتب حول الرحل في الجزائر؛ ولعل أول مرجع تناول الموضوع بشكل متميز وفريد في نفس الوقت هو ما أورده ابن خلدون في كتابه ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، حيث تطرق فيه بإسهاب

* وحتى ما هو موجود باللغة العربية يكاد يكون منعدما أمام ما هو مكتوب باللغة الفرنسية.

إلى أحوال الترحال ضمن ما ذهب إليه من ذكر للعمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال، وهذا باعتبار الرحل من البدو حيث لم يكن على عهد ابن خلدون تفريق بينهم وبين غيرهم إلا من كانوا حضرا، وقد جاء العلامة على وصف طرق معاشهم وطبائع أخلاقهم وما كانوا يسكنونه من بيوتات وإقتصارهم على الضروري في الحياة إذ الأصلح لهم التقلب في الأرض، وأتى كذلك على تفصيل طبيعة مجتمعهم القبلي التي تقوم على العصبية وكيف تلعب هذه الأخيرة دورها في بلوغهم السلطان إلى أن يركنوا إلى دعة العيش فيصيرون حضرا وبذلك توهن أبدانهم ونفوسهم إلى لذيذ المقام، فيتكاسلون عن النصرة حتى تذهب ريحهم ويأفل حكمهم فتستنصر عليهم عصبية أخرى وهكذا دواليك تقلب الزمان؛ وقد إستشعر ابن خلدون تغير منطق الحياة وإنقلابه رأسا على عقب فقال:"وكأنني أشهد تبدل الخلق غير الخلق و الزمان غير الزمان"[1]. ولا نكاد نجد أخبار الرحل في الجزائر في فترة ما قبل الاستعمار إلا ما أورده لنا ابن خلدون في مؤلفاته أما بعد الاحتلال الفرنسي للبلاد فقد كان الاهتمام بالبدو الرحل جد واضحا والدراسات التي شملتهم جد وفيرة ويمكن أن نذكر من بين هذه الدراسات ما يلي:

- Bernard (A) et Lacroix (N), L'évolution du nomadisme en Algérie, L'an 1906.

- Daumas, Le Sahara Algérien,1842 .

- Desgobert (H), L'Algérie en 1838, 1838.

- Geoffroy (A), Les Arabes pasteurs et nomades de la tribu des larbaa, 1887.
- Lehuraux (Capitaine Léon), Le nomadisme et la colonisation dans les hauts plateaux,1931.

- Lehuraux (Capitaine Léon), Où va le nomadisme en Algérie?.

- Yacono, Les bureaux Arabes et l'évolution des genres de vie indigènes dans l'Ouest du tell - Algérois (Dahra-Chélif-Ouarsenis-Sersou.

- Bernard (Aug), La régression du nomadisme en Algérie.

- Bourgeois (M), Les diverses catégories de nomades.

- Brigol (Madeleine), La sédentarisation des nomades autour d'Ouargla-Alger, 1958.

- Bugega (M), L'estivage des Larbaa dan le Tell.

[1] محاضرة للأستاذ محمد غالم، مدرسة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، CRASC، وهران، ماي 2007.

- Capot Rey, Le nomadisme de l'Afrique du Nord-Ouest, 1939 .

- Capot Rey, Le nomadisme pastoral dans le Sahara.

- Cauneille(A), Les nomades des Rguibat.

- Cauneille(A), Les Chaamba -leur nomadisme-, 1968 .

- Destaig (J), Une tribu nomade de la confédération des Ouled Nail : Les Nail Laouar,

- Dou, Les nomades et sédentaires à Biskra, 1939 .

- Fraguier (Colonel de), La crise du nomadisme et de l'élevage sur les Haut Plateaux, 1953.

- Feilberg (C.G), La tente noire, contribution ethnologique à l'histoire culturelle des nomades,1944 .

كل هذه الدراسات و المؤلفات هي في الحقيقة فيض من غيض، فلا نكاد نجد منطقة في الجزائر أو قبيلة مهمة إلا وكانت محل معاينة وفحص من طرف الدراسات الإستعمارية التي كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى إيجاد "أجوبة وحلول لتلك العقبات و المشاكل التي كانت تعيق المحتل من التقدم على الأرض، هذه المعرفة لم تكن مسجلة ضمن حقل التساؤلات العلمية بل كانت تستجيب فقط لإغراض إستعمارية محضة، وضيفتها الأساسية كانت : الكشف، المعرفة والإطلاع، ثم تحقيق الإنتصار والسيطرة ، فمن الناحية الكمية كان هذا الإنتاج وفيرا جدا تم في فترة جد وجيزة 1840-1880م؛ أما من الناحية النوعية فكانت هناك فقط بعض المراجع المهمة، إحتوت أدق التفاصيل حول مواضيع معـــــينة"[1] ولا يمكن في أي حال من الأحوال وصف هذه الأعمال بالاحترافية[2] لأنها لم تكن تستجيب لأدنى مواصفات العمل المنهجي ولم تكن كذلك تستند إلى مراجع محكمة، " لقد كتب هؤلاء ما رأوه من منظورهم الخاص لأن عالمهم الفكري و الثقافي كان يمنعهم من رؤية غير ذلك، ويكفي للوقوف على تلك الحقيقة تتبع المسار الشخصي لمنتجي هذا النوع من المعرفة للتأكد من علاقتهم المباشرة أو غير المباشرة بالجيش الفرنسي لذلك يمكن أن

(1) Brahim Salhi, Bilan critique de l'ethnologie en Algérie, Ecole doctorale en Anthropologie, Oran, Année 2006-2007, p.12.
(2) Ibid., p.08.

نطلق على هذه الفترة إسم "الأثنوغرافيا العسكرية" والتي إنتهت بصفة عامة سنة 1880م" [1] ؛ بعد 1900- 1910م نلحظ بداية إنتاج مختلف، فبالرغم من قلته إلا أنه كان أكثر أكاديمية، وإبتداء من خمسينيات القرن الماضي يمكن فعلا الحديث عن أعمال إثنولوجية محترفة، " حيث بدأت مقارباتها العلمية تستقل عن تأثيرات الحقل الفكري الثقافي الاستعماري"[2]... والتي لم تتناول بدورها موضوع البدو الرحل إلا عرضيا كأعمال جاك بارك و بيار بورديو ، أما بعد الإستقلال فلم يكن الاهتمام بالموضوع * إلا مع ظهور C.E.R.M** و A.A.R.D.E.S*** وكذا الأعمال المتفردة لكل من محمد بوخبزة و يوسف نسيب****؛ كما نلاحظ أيضا في الآونة الأخيرة إهتماما واضحا من طرف الباحثين الناشئين بالبدو الرحل عبر ما يقدم أو ما هو في طور الانجاز من مذكرات ليسانس وأطروحات في الماجستير و الدكتوراه.

6-تحديد المفاهيم:

يكتسي تحديد المفاهيم أهمية بالغة وهذا من أجل توضيح مختلف الصور والمعاني التي يدور حولها البحث، إن فالمفاهيم "لا تقبل تعريفا جامعا مانعا بلغة المنطق، وإنما تتسم بمرونة مطلقة لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود، فتتسع دلالتها أحيانا وتضيق أخرى "[3]وكذلك هو الحال بالنسبة للمفهوم الأساسي الذي نحن بصدد تناوله في هذه الدراسة ألا وهو **الترحال** أو **الارتحال.**

لقد إتسع نطاق هذا المفهوم حتى عرف إستعمالات شتى في ميادين مختلفة وأضحت صفة الإرتحال تطلق على كل من يتنقل بين موضعين أو بين شيئين أو حتى بين حالتين، فلقد أصبح مثلا كل من يغير عنوان بريده الالكتروني باستمرار أو يستعمل شرائح متعددة لهاتفه النقال يطلق عليه اسم الراحل أو المرتحل Nomade.

(1) Ibid., p.11.
(2) Ibid., p.08.

* لقد كان الإهتمام بمثل تلك المواضيع التقليدية نوع من الدعوة إلى الرجعية في خضم ما كان يعيشه الجزائريون من هيستيريا للحاق بقطار العصرنة، فلا وقت للنظر إلى الوراء(محاضرة للأستاذ إبراهيم صالحي وهران ماي 2007).

** Centre d'études et recherches marxistes.

*** L'association Algérienne pour la recherche démographique, économique et sociale.

**** الأعمال المقدمة من طرف مراكز البحث هذه أو بعض الأطروحات التي نوقشت في فرنسا آنذاك ينعتها إبراهيم صالحي بأنها كانت سوسيولوجية أكثر منها أنثروبولوجية وهذا لعدة اعتبارات منها المنع المضروب على هذه الأخيرة من طرف وزير التعليم العالي سنة 1971م (محاضرة للأستاذ إبراهيم صالحي وهران ماي 2007).

(3) د.علي غربي، أهمية المفاهيم في البحث الاجتماعي بين الأطر النظرية والمحددات الواقعية، مجلة العلوم الإنسانية، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، ص.93.

إن الترحال الذي نقصده في دراستنا هذه هو الترحال الذي تدور حوله حياة بأكملها "حياة الترحال" كنمط للعيش يتخذ من الإنتاج الرعوي نشاطا إقتصاديا له، إقتضت ظروفه البيئية والمناخية التنقل بشكل أو بآخر لتامين الكلأ لقطعان الغنم وتقول العرب "قوم رحل" أي قوم يرتحلون كثيرا ويتنقلون و "رجل رحال" أي كثير الترحا و "عرب رحل": لا يستقرون في مكان ويحلون بماشيتهم حيث يسقط الغيث وينبت المرعى(1)، وقد إكتشف الفرنسيون هذا المفهوم إبتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث أطلق اسم أو صفة Nomades على الشعوب غير المستقرة من سكان شمال إفريقيا(2) أو الشعوب و المجتمعات التي لها نمط حياة يتضمن التنقل المستمر ومنها جاءت كلمة Nomadisme التي تعني نمط عيش البدو الرحل وNomadisme pastoral أي نوع من حياة الترحال أين يكون الرعي هو مصدر العيش الوحيد والأساسي(3) أما الجغرافيون فيجمعون أن الترحال هو طريقة للعيش تقوم على إستغلال خاص للمجال المتسم بشح ونقص في موارده الطبيعية.

كما أن هذا المفهوم عرف أيضا تطورا ملحوظا وهذا بتطور وسائله وتعدد أهدافه وأسبابه فالترحال لم يعد كما كان في الماضي يحتفظ بوجهه التقليدي الصرف بل أصبح الآن يتماشى مع مستجدات العصر ويستغل مستحدثاته التكنولوجية من مواصلات واتصالات في مواجهة صعوبات وتحديات الحياة اليومية إذ أن الترحال أصبح يعتمد كذلك على المدينة بشكل أساسي ويتخذها كملجأ له(4) فقد يتخلى الراحل بشكل إستثنائي عن خيمته ويستأجر مسكنا في القرية يمضي فيه فترة من الزمن حتى تخاله فلاحا قرويا.

1-6-البداوة والترحال:

لقد إرتبط مصطلح البداوة بمفهوم الترحال إرتباطا وثيقا، فعادة ما نقول البدو الرحل على أساس"أن الترحال بخصائصه وتأثيراته المختلفة يعتبر من أبرز مظاهر الحياة في المجتمعات البدوية وضوحا، وأكثرها تأثيرا على مقدرات غالبية تلك المجتمعات خصوصا الرعوية منها"(5)

---

(1) العلامة ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، من الألف إلى الراء، دار الحديث، القاهرة، سنة 2003، ص.ص. 1140-1141.
(2) Le Robert, Dictionnaire historique de la langue française, Tome 2, Paris, Octobre 2004, p.2384.
(3) Le petit la Rousse illustré, La Rousse, Paris, 2006, p.735.
(4) Denis Retaille, Op. Cit., p23.
(5) د.صلاح مصطفى الفوال، علم الاجتماع البدوي، الجزء الأول، دار الغريب، القاهرة، 2002، ص.332.

وفي الجزائر بشكل خاص كان يسمى بدويا كل من لم يكن حضريا فالبادية خلاف الحاضرة[1] وكان من البدو، المرتحلون الذين يتخذون بيوت الشعر سكنا لهم[2]، وعلى يومنا هذا يسميهم سكان منطقة عين عبيد وتقريبا كل المنطقة الشرقية من الجزائر ب: "العربان" وهو إسم لا يحبذونه كثيرا ويجيبونك عند سماعه " أحنا كل عرب " لكن عند البحث عن أصل هذه التسمية نجدها تعني لغة: أعجمي أُعرب[3] مما قد يعني أنها تطلق على البربر الذين تعربوا وقد يسند ذلك كون مفردها عُرَيْبي* وهي تصغير لكلمة عربي[4] وفي كل الأحوال نجد أن " المواطن الجزائري الذي يسكن الخيمة لا يعرف عبارة البدوي، وعندما يطلق عليه الفرنسي هذا الإسم، فإنه يكاد يعد ذلك شتيمة، مع أنها عبارة شرقية، تخلعها على نفسها القبائل الصحراوية في الجزيرة العربية ومصر.""ويفهم عادة من كلمة البدو القبائل التي ليست لها دور ثابتة . فالبعض منها يعيش في رحلة مستمرة، والبعض الآخر يستقر لمدة معينة. أما القسم الثالث فيعيش حياة مستقرة، الا أن هذه الصفة تشملهم جميعا ، وهي أهم يسكنون الخيام أو ما يسمى " القرابة " والقسم الأكبر من بدو

الجزائر يطلقون على أنفسهم اسم العرب" [5].

6-2-طبيعة الترحال وأنواعه[6]:

يحدد الدكتور صلاح مصطفى الفوال طبيعة الارتحال، مداه وأنماطه من الناحية الكيفية إلى ما يلي:

6-2-1-الإرتحال العادي (الاختياري):

وهو ذلك الترحال الذي يتم تحت الظروف العادية التي إعتادتها أو ألفتها العشائر الرعوية وفي نطاقها المكاني المعروف لها والذي سبق أن طرقته في توال زمني بحسب قدرة عشبه وحشائشه على الخضرة والعطاء.

---

(1)العلامة ابن منظور، مرجع سابق، ص.178.

(2)د.صلاح مصطفى الفوال، مرجع سابق، ص.293.

(3)العلامة ابن منظور، مرجع سابق، ص.158.

* يقول السكان عربان في الجمع و عُرَيْبي في المفرد ولا نجد نفس الشيء في اللغة العربية اذ عربان مفردها عرباني أي فصيح اللسان.

(4)العلامة ابن منظور، مرجع سابق، ص.153.

(5) هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، الجزء الأول، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976، ص.69.

(6) د.صلاح مصطفى الفوال، مرجع سابق، ص.ص.367 372.

6-2-2-الإرتحال الطارئ (الاضطراري):

ويتم عندما تتغير الظروف المناخية والطبيعية فجأة ولا تجد الجماعة البدوية لنفسها مخرجا سوى أن تنخرط في ترحال أو إرتحال سريع يشبه الهجرة هربا من تلك الظروف الطارئة التي واجهت الجماعة البدوية وهددت حياتها وحياة قطعانها بالخطر، ويكون هدف الترحال الإضطراري البعيد بعد إنتهاء مهمة الهرب من وطأة الظروف الطارئة الصعبة الجديدة حفاظا على حياة الناس والحيوان، يكون ذلك الهدف هو العثور على مراع جديدة تجد الجماعة الراحلة في كنفها أسباب الحياة لهل ولمواشيها.

وفي هذه الحالة قد تعود الجماعة البدوية إلى ديارها القديمة وقد لا تعود، لأن عملية العودة هذه مرهونة بالأسباب التي دفعتها أصلا إلى هجرتها، فلو تغيرت الظروف ونما إلى علم الجماعة البدوية المهاجرة أن مراعيها القديمة قد عادت إليها الحياة، وأصبحت في حالة تفوق من حيث الخصب والنماء حالة مراعيها الحالية، لما ترددت الجماعة البدوية لحظة في العودة إلى ديارها القديمة، ولا يكون ذلك التصرف بفعل الحرص على القديم والحنين إلى الماضي وحدهما، وإنما يعود ذلك أيضا وبالدرجة الأولى إلى طبيعة الجماعة البدوية الراعية نفسها، وسعيها الدائم وراء أسباب الحياة التي لا تكون أولا توجد إلا حيث يكون العشب أو الكلأ والماء.

6-2-3-الإرتحال الموسمي(رحلتا الشتاء والصيف):

ويرتبط هذا النمط من الإرتحال أساسا بفصول السنة أو بفصليها المتمايزين على وجه الخصوص وهما الشتاء والصيف، حيث ترتحل الجماعة البدوية من منطقتها في بداية الشتاء إلى مسارح أخرى تكون أقل برودة وأوفر عشبا وماء، ثم ما تلبث أن تعود إلى موطنها من جديد من بداية الصيف.

وقد يحدث العكس، بحيث تبدأ الرحلة في الصيف وتنتهي في الشتاء، وبداية رحلة الشتاء والصيف هذه لا ترتبط بأي من الفصلين إرتباطا آليا، وإنما ترتبط بهما أو بأيهما إرتباطا وظيفيا، بمعنى أن هذه الرحلة تبدأ مع بداية الفصل الذي تتهيأ فيه أسباب الحياة للجماعة البدوية الرعوية في مسارحها الأصلية.

وكما هو معروف فإن أسباب الحياة في الصحراء ترتبط إلى حد كبير بالمطر، وخصوصا إذا لم تتوافر معه مقومات أخرى للحياة – واحة، منجم، بئر للبترول، تجمع حضري أو حضاري قريب

....إلخ – فإذا كان سقوط المطر صيفا في مكان ما، تبدأ الرحلة إليه صيفا، وإن هطلت الأمطار شتاء شدت الجماعة البدوية رحلها تجاه سقوط المطر شتاء، وغالبا ما يكون إتجاه الجماعة الراحلة – في كلتا الحالتين صيفا أو شتاء – إلى أطراف الصحاري لأنها أكثر مناطقها أو أجزائها تعرضا لسقوط الأمطار.

6-2-4-الإرتحال الدوري (التبادلي أو الرأسي):

وهو شكل قريب من نمط الإرتحال الموسمي، وإن كان يمتاز عنه بشيء من الثبات والإستقرار – كنظام- ، حيث يكون معروفا سلفا لدى العشائر البدوية أنها سوف ترحل شتاء أو صيفا إلى مكان معين وثابت تقريبا بغير أن تتدخل في عملية الإرتحال أو الترحال، عوامل المطر والريح والظروف الصعبة أو القاهرة التي تفرض عليها الرحيل بغير إعداد أو ترتيب .

ومن أبرز أمثلة الإرتحال الدوري " تبادل الأماكن" الذي تمارسه القبائل البدوية في منطقة الأطلس الكبير، حيث تقضي هذه القبائل صيفها على سفوح الجبال بينما تقضي شتاءها في السهول المنبسطة حول الجبل، ومثلها جماعات " الكرغنز" البدوية في "تركستان" فهي تقضي الشتاء في مراكز "الكازاك" الشتوية عند سفوح جبال "تيان شان"، وعندما يحل الصيف تتجه هذه الجماعات جنوبا لترعى مواشيها على الأعشاب الجبلية هناك.

وعلى هذا يكون الأساس في نمط الترحال الدوري، هو عملية التبادل التي تتم بين الأماكن المرتفعة والمنبسطة والتي تمارسها العشائر أو القبائل البدوية صيفا أو شتاء بحسب الظروف والأحوال المناخية السائدة في مناطق الترحال.

وتندرج عوارض الإرتحال وأحواله السابق ذكرها من الناحية الكمية تحت نمطين رئيسيين هما[1]:

- أ الإرتحال الدائم:

وطبقا لهذا النوع من الترحال، تقضي الجماعة البدوية والرعوية منها بالذات معظم أيام السنة في ترحال مستمر، وبحيث يصبح التنقل أو الإرتحال هو السمة الغالبة على الجماعة أو العشيرة البدوية، و الإرتحال الدائم يفرض على الجماعة البدوية أنماطا معينة من الحياة تتمركز كلها حول

[1] د.صلاح مصطفى الفوال، مرجع سابق، ص.373.

رعي الحيوان ورعايته والإعتماد عليه كلية كمصدر أساسي للرزق والحياة وعلى النحو الذي أوضحناه قبلا.

- ب الإرتحال المؤقت:

بمعنى ألا يشكل الرعي وحده الأساس الإقتصادي للجماعة البدوية، حيث تكون هذه الجماعة قد عرفت بشكل أو بآخر الزراعة ومارستها وبحيث ينقسم أبناؤها إلى مجموعتين، أولاهما إستقرت حول مراكز محصنة وآمنة – ولو بقدر- من عاديات الإنسان وغدر الحيوان المتوحش وتقلبات الطبيعة القاسية، وبحيث تتوافر في هذه المراكز مصادر شبه دائمة للمياه تجعل في الإمكان زراعة بعض المحاصيل التي لا تتطلب كثيرا من الماء حتى تزدهر، كالقمح والشعير والخضروات والبرسيم وما إليها.

هذا عن المجموعة الأولى " المستقرة " أما عن المجموعة الثانية " المتبدية " فإنها ترحل بعيدا بحيواناتها إلى مراع صيفية أو شتوية بحسب طبيعة الإقليم الصحراوي الذي تقيم فيه، ثم ما تلبث الجماعة الراحلة أن تعود إلى العشيرة الأم من جديد بعد إنهاء موسم الرعي.

وهكذا تمارس الجماعة البدوية الراعية من خلال الإرتحال المؤقت، نوعا من الإقتصاد المزدوج أو الإقتصاد المشترك الذي يعتمد أساسا على الزراعة والرعي.

والعشائر البدوية التي تمارس هذا النوع من الإرتحال المؤقت يكون من السهل إغراؤها بالإستقرار والتوطن في أراضيها أو أراض جديدة وفقا لخطط التنموية، وهذا بالضبط هو ما فعلته الحكومة السوفيتية السابقة في منطقة " تركستان" عندما أنشأت عددا من المزارع الجماعية لراغبي الإستقرار، ونظمت عملية الإرتحال أو الإنتقال الموسمي الذي تمارسه المجموعة المرتحلة عن طريق إنشاء محطات أو مراكز لخدمة البدو الرعاة على إمتداد أيام الرحلة.

وسنتعرض بدورنا إلى مناقشة هذه المفاهيم ومدى صلاحيتها وتطابقها مع ما نحن بصدد تناوله في هذا البحث فيما خصصناه لمعاينة حالات البحث في الفصل الخامس تحت عنوان "الرحل وشبه الرحل".

7- تحديد المجال الزماني والمكاني للدراسة:

يعتبر تحديد المجال الزماني والمكاني للدراسة جد هام لإجراء أي بحث علمي جاد، فبالنسبة لموضوعنا هذا اخترنا الفترة الممتدة بين (1986 – 2009)، وهذا الاختيار يعود أساسا إلى كون هذه المرحلة عرفت ضمنيا إحتقانا إجتماعيا وركودا إقتصاديا كبيرين بسبب سقوط وتهاوي أسعار النفط سنة 1986 م، الأمر الذي إنتهى إلى أزمة أكتوبر 1988، ومنها بداية حقبة سياسية جديدة بالنسبة للجزائر إتسمت أساسا بالانفتاح الإقتصادي والتخلي عن الخيار الإشتراكي وكذا التفتح السياسي ونهاية عهد الحزب الواحد، كما عرفت هذه الفترة أيضا بداية أزمة حادة في البلاد تمثلت في إنتشار ظاهرة الإرهاب واللاأمن والتي أصطلح على تسميتها إعلاميا بالعشرية السوداء (1990 – 2000م)، فطوال هذه المرحلة (1986 – 2000) سنلاحظ غياب شبه تام للدولة في الجانب الاجتماعي أي تراجع الإهتمام الرسمي فيما يخص مشروع وسياسة توطين البدو الرحل، كما كان للعشرية السوداء كذلك أثر كبير على تنقل البدو والرحل وأمنهم خاصة وأنهم يقيمون خارج المناطق الحضرية، وسنحاول خلال بحثنا هذا تسليط الضوء على ما تعرض له البدو الرحل في هذه الفترة. ثم نأتي إلى الفترة الأخيرة التي عرفت إستقرارا نسبيا (2000 – 2007)، حيث نلاحظ إقبال البدو الرحل بأغنامهم إلى التل بشكل أكبر، ولا تفوتنا هنا الإشارة أيضا إلى كون هذه الفترة (1986 – 2007) بحكم عدم الإستقرار الذي عرفته(بصفة عامة) قد حرمت الباحثين من الوقوف على حقيقة العديد من الظواهر، ومنها ظاهرة الترحال والتي لا نجد عنها الكثير في هذه الفترة خاصة الجانب الإحصائي منها الذي يكاد يكون منعدما، فحتى إحصاء الديوان الوطني للإحصاء (ONS) لسنة 1998، لم يتمكن من إعطاء أرقام دقيقة لنفس الأسباب سابقة الذكر.

أما فيما يخص المجال المكاني فقد اخترنا منطقة عين عبيد (ولاية قسنطينة) لكونها تعرف إقبالا كبيرا للبدو الرحل كل صائفة من كل عام في إطار ما يعرف بالعشابة. حيث يقصد البدو الرحل مناطق التل للاستفادة من الكلأ الذي توفره الحقول المحصودة من القمح والشعير ومنطقة عين عبيد في هذا الإطار معروفة بأراضيها الخصبة الشاسعة حيث توفر للبدو والرحل القادمين من بسكرة، المسيلة، الجلفة أكثر من 3780 هكتار من الأراضي الصالحة للرعي (الأراضي المحصودة)، وأصحاب هذه الأراضي يحرصون أيما حرص على قدومهم كي تستفيد أراضيهم من السماد الطبيعي الذي تخلفه الأغنام وهم يعبرون عن ذلك بقولهم: "*الأرض اللي دور*

فيها الشاة تنزل فيها البركة"؛ وهذا التنافع يكون مقابل أجر رمزي يدفعه البدو الرحل لملاك الأراضي يتراوح بين 500 دج إلى 1000 دج للهكتار الواحد، ولأن المنطقة لا تعرف إستقرارا في نسبة تساقط الأمطار نظرا لمناخها غير القار- حيث تعرف سنوات من الجفاف فقد لا تعرف نفس الكثافة من الإقبال كالتي نلحظها في السنوات الممطرة، يقول أحد البدو: "*كِعود العام مليح نجيو*".. وإلا فهم يتجهون إلى مناطق أبعد كغرب البلاد مثلا، فالمسافة بالنسبة لهم لا معنى لها عندما يتعلق الأمر بالبحث عن الكلأ في مكان ما، يقول بدوي آخر من أولاد عيسى: "*هذا العام شتينا في بشار ونصيفو في عين عبيد*" وآخر يقول: "*وين تبرق نمشو*"، دلالة على سؤالهم الدائم عن أماكن وفرة الكلأ.

كما يوجد أيضا ببلدية عين عبيد سوق أسبوعي هام للمواشي ينتظم كل ثلاثاء يرتاده البدو الرحل بشكل كبير. و سوق آخر يعرف إقبالا جهويا من كل مناطق الشرق غير بعيد هو سوق الخروب الذي لا تفصله سوى 25 كلم عن بلدية عين عبيد، وهو أيضا سوق أسبوعي ينظم كل خميس وجمعة و يستقطب البدو الرحل من كافة المناطق الشرقية (صيفا).

لكل هذه المعطيات تعتبر منطقة عين عبيد مقصدا مهما للبدو الرحل في فصل الصيف، ناهيك أن أهل البلدية (المتوطنين منهم) الذين يمارسون مهنة الرعي يقيمون علاقات وطيدة معهم إذ كثيرا ما يستضيفونهم صيفا ليكون المثل منهم عند النزول إلى الصحراء كذلك شتاءا.

8 منهجية البحث:

ولأننا كنا نحاول جاهدين جمع أكبر قدر من المعلومات عن الرحل الوافدين إلى منطقة عين عبيد وتتبع مراحل حركتهم إليها وكذا مختلف نشاطاتهم الثقافية والاقتصادية أثناء تواجدهم بها كان لا بد من استعمال المنهج الوصفي التحليلي لانجاز هذه الدراسة، فالباحث يترصد كل كبيرة وصغيرة ويسجل أدني الملاحظات التي يشاهدها*، يقول برونيسلاو مالينوفسكي في هذا الصدد:"على الباحث أن يصف بدقة أولا وقبل كل شيء كيف أنجز ملاحظاته في الميدان وخاصة كيف كانت بدايته" (1) أما كليفورد غيرتز فيحث الأنتروبولوجي على إستعمال الوصف

* نقصد هنا بالمشاهدة كل ما يمكن أن تلتقطه الحواس الخمس بالإضافة إلى ما قد يستشعره الباحث من المبحوثين من أحوال الانفعالات الوجدانية المختلفة كالخوف، القلق، الاطمئنان، الحزن، الحذر و غيرها.

(1) Malinowski Bronislaw, Les argonautes du pacifique occidental, Trad. André et Simonne devyver, Gallimard, France, 1989, p. 57.

المكثف"[(1)]، ولكي لا يكون العمل العلمي -كما يرى بيار بورديو- ناقدا النظرة الوضعية للعمل العلمي"مجرد علم دون عالم، يقزم الموضوع المعرفي إلى نشاط تسجيلي، كان كذلك الحال بالنسبة للباحث الذي بالإضافة إلى عملية الوصف يجب أن يحاول التحليل لإعادة بناء تمثلات الحقيقة الاجتماعية [(2)]. ولأن الميدان كان يعطينا كذلك صورا مختلفة لمجموعات متباينة من الرحل(أولاد دراج، أولاد عيسى) في مسكنهم وسلوكياتهم وحتى تركيبتهم الاجتماعية فان استعمال المنهج المقارن كان كذلك قد فرض علينا فرضا وهذا لأننا وجدنا أنفسنا مجبرين لتوضيح هذه الاختلافات وتبيين ما هو مستجد في حياتهم بأن نلجأ مرة إلى مقارنة حاضرهم بماضيهم ومرة أخرى إلى مقارنة جماعة من الرحل بجماعة أخرى.

9 ميدان الدراسة:

بالرغم أن ميدان الدراسة هي مسقط الرأس إلا أننا نكتشفها لأول مرة عبر هذه الدراسة، فبداية من أصل تسميتها * إلى سر تركيبتها السكانية وخصائصها المناخية والطبوغرافية ** مرورا بالأسباب التي تجعلها مقصدا مهما للبدو الرحل، كانت الكثير من السلوكيات والمظاهر الثقافية (كاللهجة مثلا)، الاقتصادية(كالسبات الذي يصيب المنطقة في فصل الشتاء) والسياسية (كالتنافس الانتخابي المحموم الذي ينتهي بفوز حالات معينة)(التي تميزها عن مناطق قريبة جدا منها) تشكل أسئلة محيرة للعديد من سكانها الذين كثيرا ما يضيق صدرهم درعا عند سماعهم بعض النعوت التي تنعت بها المنطقة كالمقولة المعروفة: " *عين عبيد العن وو زيد حتى لقناطر لحديد* " ***.

فلكل هذه الخصوصيات ارتأينا وضع فصل مستقل بعنوان **بعض الخصائص التاريخية والجغرافية لمنطقة الدراسة** لنتمكن أكثر من شرح وعرض تلك المميزات.

(1) Hassan Rachik, Chose et sens, Réflexions sur le débat entre Geertz et Gellner, In L'anthropologie du Maghreb selon Berque, Bourdieu, Geertz et Gellner, Awal, Ibis Press, Paris, 2003, p.96.
(2) Ibid.

* يعود الفضل في هذا الاكتشاف إلى الدراسة التي قدمتها الأستاذة يمينة عرفة شرفي لنيل شهادة الدكتوراه في علم اجتماع التنمية حول العقار الفلاحي في منطقة عين عبيد تحت عنوان:
L'agriculture familiale en Algérie, Structure foncières et dynamiques sociales, Enquête dans une commune céréalière du constantine (Ain-Abid), 2006.

** طبعا كانت هناك الكثير من الدراسات السابقة فيما يخص الخصائص المناخية والطبوغرافية للمنطقة لكنها لم تتناول منظور السكان وتقسيمهم الثقافي للمجال الذي يعيشون فيه.

*** تنتشر فكرة اللعن هذه في الكثير من مناطق الوطن ولعل أشهرها تلك اللعنة المعروفة عن مدينة تنس والتي أطلقها عليها الشاعر الدرويش أحمد بن يوسف حين قال : تنس مبنية على الدن..... ماها دم ..... وهواها سم...... وأحمد بن يوسف ما يبيت تم .

10 حالات البحث:

بما أن مجتمع الدراسة لم يكن كبيرا جدا ولم تكن هناك صعوبات في تعيين وحدات البحث لأنها مستقلة ومميزة (الخيمة والقيطون) بالإضافة إلى وجودها خارج النسيج العمراني للمدينة لذلك قمنا بأخذ كل الحالات الموجودة في الميدان ما عدى حالة أولاد جبنون(03 قيطون) الذين هم من السكان المحليين يحترفون الرعي ويستعملون القيطون، يخرجون بأغنامهم ضمن مسافات لا تتعدى 15 إلى 30 كم، يستأجرون المراعي ويمضون الصيف "البرة" أي خارج منازلهم (وهو سلوك يشتركون فيه مع البدو الرحل).

حالات البحث إذن كانت كالتالي:

- 8 خيم لأولاد سايح.
- 28 خيمة لأولاد عيسى.
- 43 خيمة لأولاد دراج.
- 4 قيطون لأولاد دراج.

ونقصد بالخيمة هنا والقيطون كل ما يحتويانه ظاهريا وباطنيا من أفراد ومختلف النشاطات التي تدور فيها أو حولها ، وقد سمح لنا تصنيف هذه الخيم حسب حجمها، لونها، وحالتها العامة (مهترئة أو جيدة) بتحديد نوع الترحال عند كل مجموعة وكذا الحالة والمستوى الاجتماعي الذي يعوشونه (أنظر الفصل الخامس: الرحل وشبه الرحل)؛ لقد سهل لنا كذلك تجمع هذه الخيم خاصة (حالة أولاد سايح وأولاد عيسى) من التواصل تقريبا مع كل الأفراد (طبعا العنصر الرجالي منهم فقط لأن المرأة عندهم لها حرمة كبيرة ولا يجب أن تجالس غريبا*).

11 تقنيات البحث: (أدوات جمع البيانات)

"إننا بحاجة في العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان إلى منهج وتقنيات ليس فقط لجمع البيانات ولكن أيضا للمساهمة في نفس الوقت في استيعاب المضامين وذلك الزخم الرمزي الهائل الذي

*هذا باستثناء تلك الصورة التي تمكنا من أخذها لإحدى النساء داخل خيمتها بعد أن تفاجئنا بالزوج يطلب منا ذلك (أنظر الملحق الصورة رقم: 26).

يحيط بتلك المعطيات"[1] ولعل الذهاب إلى الميدان ومشاركة المبحوثين حياتهم اليومية والتواصل معهم يعطي للباحث أكثر فهما لمختلف سلوكياتهم واطلاعا أوسع على أنماط عيشهم وثقافتهم وإذا كنا حبيسي صور نمطية جاهزة عن الآخر فإننا دون شك نعجز عن رؤية أنفسنا لأن الآخر ببساطة هو نحن، وإذا كنا نطرح السؤال متعجبين: كيف يمكن أن يكون الآخر بهذا الشكل؟ فيجب أيضا أن نطرح سؤالا مثله على أنفسنا ، لماذا نحن بهذا الشكل؟، لذلك كان على الأنثوبولوجي كما يرى جورج بالونديي Georges Balandier "أن يكون شاهدا من نوع خاص، ملاحظا يركب حصانا لعوالم متعددة تقع على حدود الثقافات والحضارات، يستطيع بسهولة التملص من حتمية وجهة النظر الواحدة فرؤية الآخرين هي أيضا تعلم رؤية الذات تحت إضاءة مختلفة؛ إن فهم الذات يجب أن يمر حتما عبر فهم الآخر"[2]، وينصح كذلك مالنوفسكي Malinowski Bronislaw الباحث في هذا الصدد "أن يكون حذرا من أحكامه المسبقة وأفكاره الجاهزة وأن يتعلم كيف يرى هذه المجتمعات كمجتمعات حقيقية لها خصائصها وثقافتها لا كبدائيين و كائنات حيوانية"[3] . لقد ساهمت الملاحظة بالمشاركة على الرغم من محدوديتها زمانيا ومكانيا في إنجاز أهم معالم هذا العمل المتواضع " فالميدان هو تحقيق للتقارب و ألفة الأنتربولوجي مع موضوعه، فالموضوع لا يصبح محسوسا إلا إذا كان هناك مقدار معين من الإحتكاك به، يسمح بتشييئه إلى نوع من المعرفة"[4] .

وبما أن الميدان ينتمي بالدرجة الأولى إلى من يعيشون فيه فقد تكلمنا كثيرا مع الرحل مستفسرين عن كل كبيرة وصغيرة ليس فقط ضمن المقابلات التي أجريناها، لكن أيضا عبر ما يدور بينهم من أحاديث السمر وقصص للعبر ومغامرات الترحال بصفة عامة، فهم مجتمع يعتمدون كثيرا على المشافهة لنقل أخبارهم تلقين أبنائهم . وكل هذا العمل طبعا ضمن ذلك الحذر الشديد الذي يجب أن يتوخاه البــاحث كي لا يقــع فريسة الإيحـــاءات ومحاولات التجـــميل التي لا تخلو الكــلمات

(1) Omar Aktouf, Méthodologie des sciences sociales et approche qualitative, De l'Anthropologie à l'observation participante, Ecole doctorale en Anthropologie, Oran, p.01.

(2) Georges Balandier, Anthropo-logiques, Librairie Générale Française, Paris, 1985, p.02.

(3) Malinowski Bronislaw, Les argonautes du pacifique occidental, Trad. André et Simonne devyver, Gallimard, France, 1989, p.58.

(4) Jean Copans, L'enquête ethnologique de terrain, Nathan, Paris, p.14.

والمعاني من إحتوائها، عن قصد من المبحوثين أو عن غير قصد، ليبقى الميدان في نهاية المطاف "حقيقة مشوشة تعطي معلومات ذات طبيعة متغيرة " [(1)].

11 1 الملاحظة بالمشاركة:

في الواقع لم يكن لدينا في بداية الأمر أي تصور عن حقيقة الميدان وعن الطريقة التي سنبدأ العمل بها لإنجاز أهداف هذه الدراسة، لكن المبادرة بالاتصال بشكل فردي ومباشر بساكني الخيم- التي أخذنا مدة في مراقبتها- بدت لنا أسهل واقصر الطرق لبلوغ المبتغى.

11 1 1 الصدمة وفشل المحاولة:

في أول محاولة اقتربت من أخوين كانا يرعيان الغنم غير بعيدين عن خيمتهما وبعد أن قدمت نفسي كباحث أريد بعض المعلومات عن حياتهما وكيف يرتحلون وما هي ظروف عيشهما،

لم أجد أي تجاوب سوى أنني يمكن أن أنتظر مجيء أخوهما الأكبر، وبعد مدة حضر هذا الأخير مهرولا، وعندما أعدت على مسامعه تلك الخطوط العريضة، طلب مني الإنصراف فورا قائلا: "*أحنا ما نقدرو نعطيوك حتى معلومات، روح على روحك شوف بلاسا أخرى*" وعندما أبديت بعض الإلحاح واستخرجت وثائق ثبوت الهوية زاد غضب الرجل:"*أحنا ما نقراوش ..روح يرحم والديك عفنا*" ، بعد ما إتضح لي فشل التواصل مع هذه الحالة قصدت خيمة أخرى لا تبعد كثيرا عن سابقتها، فكان الأمر أسوأ، فقد هددني صاحبها بالضرب إن عدت ثانية أو تجرأت على أخذ أي صور من قريب أو بعيد (لاحظ وجود آلة تصوير في يدي): " *ما نحبكش دور هنا خلاص..كون نشوفك تصور.. العصا هذي نكسرها على راسك*" وعندئذ أيقنت أنني أسلك الطريق الخطأ في الدخول إلى ميدان هذا البحث.

11 1 2 الوسطاء والمخبرين:

بعد هذا الفشل الذريع والصدمة التي لم أكن أتوقعها قصصت على بعض المعارف ما حدث لي مع "العربان"، فاخبرني أحدهم أنه يعرف شخصا يستطيع مساعدتي، كما علمت من آخر أن

[(1)] Ibid, p. 09.

بالبلدة رجل يتعامل مع كثيرا ويعرفهم كلهم بلا إستثناء وهو موسوعة في الترحال وأسرار الرعي .

1-1-2-1 الوسيط والمخبر الأول:

أبدى المخبر الأول إستعداده التام لمساعدتي وهو الشاب " دراجي. " من مواليد 1973 متزوج وأب لطفلين، ترجع أصوله إلى أولاد سايح الذين هم في الأصل بدو رحل* توطنوا ببلدية عين الشيخ دائرة المغير- ولاية الوادي، أسمر البشرة يتمتع بذاكرة قوية وحسن البديهة، في أول زيارة معه إلى مجموعة من الخيام لأولاد عيسى بمنطقة الدخاخنة (برج مهيريس) كنت أساله إن كان يعرف هؤلاء الناس، فكان يجيبني " *أرواح برك ماتخافش*"؛ عند وصولنا على مرمى حجر من الخيمة، أخبرني صاحبي أنه لا يجب أن نقصدها بشكل مباشر ويجب أن نتوقف بعيدين عنها نسبيا: " *أسنا هنا ما تقربش ، ضرك يشوفونا ، يجيو* " ، وبعد برهة خرج إلينا أحدهم وعندما لم تبقى بيننا وبينه سوى خطوات بادره "الدراجي" "*السلام عليكم..ضياف ربي ...ضياف ربي*" فمد الرجل يده من بعيد ليصافحنا وقد تهلل وجهه ورد: " *مرحبا....مرحبا بيكم*".. ثم أردف مرافقي يعرف بنفسه:"*أنا يقولولي الدراجي من أولاد سايح* ...وو هذا حبيبي من هنا .

الراحل: *خيار الناس...خيار الناس...هذا باين تلي* (من سكان التل).

الدراجي: *أنت منين من خواتنا* ...

الراحل: *أنا من أولاد عيسى*...

الدراجي: *مالا تعرف فلان* ...

الراحل: *هاذاك ولد عمي*....الدراجي: مالا هاذاك *راهو حبيبي وو من خيار الناس.. مازالت عندو هاذيك الكاميو الصفرة ..كي تتلقاه قولو الدراجي راهو يسال عليك ياسر.....شوف هذا راهو باحث من الجاميعة يسكن هنا في عين عبيد وو راهو يسقسي على هاذو الناس لي بقو في الخيام .. كيفاش عايشين..*

الراحل: *مالا هاذا صحافي* .

* سنأتي في الفصل الخامس على تفصيل أسباب وجود أولاد سايح ببلدية عين عبيد.

الدراجي: *تقدر تقول صحافي ...ساعة على ساعة راهو يجيكم اتهلاو فيه قادر انجي معاه وو قادر يجي وحدو.*

الراحل: *واش عليه، مرحبا بيه، واشي هو مايجيناش مع الصباح مايلقناش.. أرواح فوق العصر الهيه.*

هنا يتضح جليا أن لهذا الميدان لغته الخاصة وقواعده المضبوطة والتي كنا نجهلها من قبل فحرمة الخيمة مثلا تقتضي أن لا نقترب منها بشكل مباشر الشيء الذي يثير كثيرا حفيظة أهلها وقد علق مرة أحد شيوخ الرحل على إمتعاضه من سلوك سكان التل قائلا:*" ناس التل هاذو ما يحشموا ما والو عندهم كلش كيف كيف*"، كما أننا لاحظنا كذلك أهمية التجانس في تقبل الآخر فابتداء من الشكل الخارجي (لون البشرة التي تفرق بين التلي والصحراوي) إلى تشابه اللهجة وكذا استعمال نفس الرمزية في الكلام جعلت عملية التواصل بسيطة وسهلة للغاية.

11 1 2 2 الوسيط والمخبر الثاني:

السيد (م.ن) من سكان عين عبيد ، عمره 70سنة ، موال وله خبرة واسعة في مجال تربية الأغنام، ولأنه كثيرا ما يرسل غنمه إلى الصحراء لتمضي فترة الشتاء عند بعض الرعاة من السوامع وأولاد عيسى فان للرجل إطلاعا واسعا على حياة الترحال والرحل وهو يعرف الوافدين منهم إلى المنطقة فردا فردا، وعندما تقدمت بصحبته إلى بعض من خيامهم كان ينادي كلا باسمه وهو بدوره يتمتع بمكانة خاصة عندهم وهذا أحد الرحل يصفه بأنه:"*راجل قلال منو الرجال*" وآخر يقول عنه: "*عمي (م.ن) مولا كلمة*" ....ولما أراد عمي(م.ن) أن يقدمني لهم لم يكثر الكلام:" *هذا ولد اختي عندو قرايا على الرحل ولغنم، نحبو كي جيكم مايخصو والو*". وبالفعل فبالإضافة إلى ما إستفدت منه هو شخصيا من معلومات عن الرعي وتربية الماشية كان تقبلي من طرف معارفه أمرا بديهيا فكان كل من يسأل بعد ذلك عن هويتي يجيبه آخر "هذا راهو ل (م.ن)".

نستخلص من هذا أيضا أن "المعريفة" التي تعني الضمان والأمان تلعب كذلك دورا هاما في تقبل الباحث من طرف مجتمع دراسته وهي إحدى الوسائل التي يعتمدها المجتمع التقليدي في تحقيق التواصل وتسريعه، فأنت إذا كنت من طرف فلان أو من عائلته فستحظى مبدئيا بنفس القيمة الاجتماعية التي يتمتع بها هو في وسطهم.

11 1 3 الزيارات والتمرس:

بعد زيارات خفيفة إلى كل من تعارفنا بهم في السياق السابق بدأت حلقة المعارف تتوسع كما بدأت كذلك نوعية العلاقة بالميدان تتغير، فالزيارات لم تعد تتخذ طابعا رسميا، كما أن حمل هدية بسيطة في اليد (حلوى، مشروبات، فواكه) مستحسن أيما إستحسان عند الرحل وهو عادة ما يقابل بالمثل حيث عند الإنصراف يهم الراحل مسرعا لخيمته أو ينادي أحد أبنائه كي يحضر شيئا من التمر أوالبيض يلفه في قطعة قماش وبوجه سمح يخاطبك " *هاذي البراكة... أديها للأولاد*" ، كما أن الراحل يحب من يأكل طعامه دون تردد، ويستأنس لمن يهتم لحديثه ولا يحب كثرة الحركة أثناء ذلك، وهو مولع بسماع القصص والمغامرات كما يستمتع بأحاديث العبر ويقدر معانيها أيما تقدير، وقد توطدت العلاقة معهم شيئا فشئنا حتى صار بعضهم يدعونني* لمجلس أنسهم وسمرهم الذي لا ينفض أحيانا حتى مطلع الفجر، وقد صرت في غضون ذلك حر الحركة (نسبيا) بين خيامهم لا يكاد يهتم أحد لوجودي كما أن ملاقاتهم في "الفيلاج" والجلوس معهم في المقاهي لم يعد يشكل حدثا بالنسبة لهم كما كان من قبل. إن التمرس في الميدان يجعل الباحث يمسك أكثر فأكثر بخيوطه فمعرفة أنساب الرحل، عاداتهم وتقاليدهم يسهل كثيرا عملية التواصل معهم والعيش بينهم.

11 1 4 إكتشاف السيارة كوسيلة للتواصل مع البدو الرحل:

كثيرا ما تجد في الصباح الباكر على الطريق رحلا يوقفون السيارات قاصدين المدينة فكنت من الحين إلى الآخر أحمل أحدهم معي في سيارتي وبعد دردشة خفيفة (حسب مسافة الطريق) أطلب من الراحل رقم هاتفه وأبدي له رغبتي في تناول الشاي تحت الخيمة العربية فيرحب الراحل بذلك ويعتبره طلبا بسيطا ويذهب أبعد منه إذ يدعوني للعشاء عنده، ومرة بدياره ابدي له إعجابي بحياة الترحال وأعدد له مناقب أيامها الخوالي وأسمي له أكبر بطونهم ثم أخبره أنه لو ساعدني لأنجزت بحثا عن حياتهم، فلا أجد منه إلا الترحيب وسعة الخاطر، وكثيرا ما كان يفهم اهتمامي هذا ويرد إلى كوني" عريبي" "مالا أنت عريبي" ، ولما كانت هذه الطريقة* تسهل عملية

---

* وقد صرت أدعى كذلك لحضور ولائم الزفاف أو الختان، حيث سمح لي مرة تصوير مجريات عرس لأحد الشباب من أولاد عيسى.
* يعتبر الراحل نقلك له في سيارتك مكرمة كبيرة منك وأنت إذا أكرمت الكريم ملكته.

الاتصال ولا تتطلب وسائط وتكسب الوقت رحت أتربص بكل خيمة مختلفة وليس لي عنها معلومات حتى يخرج أحدهم منها قاصدا الطريق ولما يبدأ في رفع يده يستوقف السيارات أكون عنده ولما يستوي على المقعد أساله "*منين أنت من خاوتنا*" وهكذا دواليك.

لقد مكنتنا الملاحظة بالمشاركة من جمع شتى المعلومات حول حياة البدو الرحل خاصة تلك المتعلقة بمعاملاتهم وعلاقاتهم في المدينة والسوق وقمنا بتسجيل كل ما لاحظناه اعتمادا على التذكر أو التسجيل الفوري أثناء المشاركة إن كان ذلك لا يؤثر في سير عملية المشاركة كما استعملنا أيضا آلة صغيرة للتسجيل لرصد أهم المحطات محاولين عدم تفويت الفرص التي تتاح لنا لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، وأخذنا كذلك صور فوتوغرافية و صور حية عن طريق الكاميرا .

11 1 5 صعوبات الملاحظة بالمشاركة:

من بين أهم صعوبات الملاحظة أنني بقيت رغم محاولاتي العديدة مختلفا باللباس ولون البشرة وكذلك لهجتي حيث لم يكن أي راحل يجد صعوبة في معرفتي أني " تلي" (من التل) وهذا ما كان يؤثر في سير البحث حيث كان الكثيرون منهم لا يتصرفون بشكل طبيعي وكانوا يحاولون إيصال رسالتهم إلى "الدولة" والآخرين عبر هذه الفرصة بأنهم مهمشون وأنهم يعيشون حياة بؤس وميزيرية "*أحنا الدولة ماعلابالهاش بينا* " "*راك تشوف.. هاذي حياة هاذي*" .

11 2 المقابلات:

ولإن الميدان ملك للذين يعيشون فيه وهم الأعرف بخباياه والأكثر إحساسا بأبعاده، كان علي أن أجري مقابلات للحديث مع المبحوثين ومحاولة طرح انشغالاتي وتساؤلاتي عليهم للاطلاع أكثر على مكنونات حياة الترحال وصبر أغوارها ، فكنت في البداية أعد بعض الأسئلة لتوجيهها لهم كلما أتيحت لي الفرصة في ذلك، لكنني لاحظت أن الراحل عندما يكون بمفرده لا يحبذ إطالة الكلام وينزعج كثيرا من أسلوب طرح الأسئلة عليه بشكل مباشر بينما تراه في وسط الجماعة يسترسل في الحديث ولا يحب المقاطعة حتى يكمل كلامه، فارتأيت وفقا لما تحسسته منهم من هذا الحرج والضغط البادبين على وجوههم عندما يكونون فرادى أن أنضم كل ليلة من ليالي

الصيف إلى أحاديث الجماعة التي تعقد في الهواء الطلق بالقرب من مضارب الخيام وقد توسطت "صينية الشاي" كالعادة مجلسنا ودارت أكوابه على الجميع مع بعض من سجائر العرعار(أنظر الصورة رقم01، ملحق الصور) التي يحبذها كثيرا كبار الرحل ثم تبدأ المآنسة بتجاذب أطراف القول باستكمال حديث البارحة أو طرح المستجدات من أحوال الحياة وكنت من جهتي أطرح فقط أسئلتي ضمن السياق العام الذي تدور حوله المحادثة ولأن المقابلة يجب أن تحقق المبتغى العلمي الذي هي بصدد إنجازه كان علينا أن نحافظ على إطارها العام كونها "محادثة موجهة تتم بين الباحث والمبحوثين وتعتمد على التبادل اللفظي المسجل أو غير المسجل وتهدف إلى الحصول على معلومات تتحدد كما وكيفا بحسب خطة البحث، وحتى تحقق المقابلة أهدافها لا بد أن يتم التفاعل خلالها بين طرفي المقابلة في جو من الود"[1] لذلك كنت أتدخل فقط وفق التسلسل الطبيعي الحر للحوار مشاركا في إثراءه من جهة وناسجا خيوطا عنكبوتية لتحصيل مرادي من جهة أخرى وبذلك أكون قد اخترت طريقة المقبلات الجماعية الحرة غير الموجهة لانجاز عملي هذا وذلك لما لها من فاعلية للحصول على المبتغى معتمدا في تسجيلها على الذاكرة لان استعمال المسجل كان يربك المبحوثين ويجعلهم يخرجون عن عفويتهم في الحديث إذ كان كل من يتكلم تراه " عين معاك ووعين معاه (أي مع المسجل)" وهذا لم يمنع من أنني كنت مرة على مرة أستخرج كراس ميداني لأسجل ما لا تطيق الذاكرة حفظه كالأشعار والأمثال المهمة فأقاطع المتحدث قائلا: " *حبس حبس هاذي لازمني نكتبها* " ثم بسرعة فائقة أعيد الكراس إلى مكانه كي لا تؤثر هذه الحركة على الجو العام للمحادثة ولقد إكتفيت في هذه المرحلة بهذه التقنية على إعتبار أن بحثنا كان فقط للاكتشاف والاستطلاع (دراسة إستطلاعية، استكشافية) وهذا لا ينفي تماما أننا استعملنا كذلك المقابلات نصف الموجهة مع بعض المبحوثين الذين وجدنا فيهم استجابة لذلك مع بقائها محدودة جدا بالنسبة للتقنية الأولى ولقد اصطلحنا في الترميز للمقولات الاستدلالية برمز (س.ك) وهما الأحرف الأولى من لقب واسم احد البدو الرحل من أولاد عيسى عمره 50سنة كانت البداية معه مصدر تفاؤل والهام أعطت هذه الدراسة دفعة قوية وأزاحت هم اليأس والفشل والرجل كان مع سعة صدره وواسع كرمه واعيا بضرورة إجراء مثل هذه الأبحاث حتى يناط اللثام على أغوار حياتهم حلوها ومرها.

[1] د.صلاح مصطفى الفوال، مناهج البحث في العلوم الاجتماعية، مكتبة غريب، القاهرة، سبتمبر 1982، ص.289.

11 2 1 صعوبة هذه المقابلات:

لإجراء هذه المقابلات كان علي السهر إلى وقت متأخر من الليل كما كان علي كذلك تناول الشاي باستمرار لان عدم شربه غير مستساغ لديهم " *هذا التاي درناه على جالك* " ، كما أن كثرة الحركة في المجلس وتغيير وضعية الجلوس (طبعا كنا نجلس على فراش مطروح على الأرض) توحي للمبحوثين بمللك وعدم استمتاعك بالحديث " *واش واقيلة حاب تروح*" كما أن أحدهم ذات مرة وبطريقة ذكية طلب مني الكف عن الحركة فقد قص على مسامعنا أن أحدا جاءه خاطبا ابنته فطلب منه أن يأتي مجلس أنسهم تلك الليلة وعندما رآه يتحرك ولا يطيق جلوسا سأله : "*واش بيك يا فلان*" فرد الشاب: " *القضية تاعي برك يا عمي علان*" فرد عليه الوالد : "*ماكانش مكتوب يا بني*" وأردف قائلا : " *أحنا لي ما يقعدش قعدتنا وو يحكي حكايتنا ما نعطيواهش بناتنا* " ، وهذه الجلسة في واقع الأمر ليست بالسهولة التي يمكن أن نتصورها وهي تترك الجسد في وهن وتعب عظيمين وقد إستعصت علي كثيرا في بداية الأمر. بالإضافة إلى هذه الصعوبات فان هناك من المبحوثين من لم يهضم وجودي معهم إطلاقا طيلة مدة البحث وقد قال احدهم ذات مرة وبكل صراحة : " *هذا كون ماجاتش عندو فايدا فيكم مايقعدش معاكم خلاص*".

الفصل الثاني :

بعض الخصائص التاريخية الجغرافية لمنطقة الدراسة

تمهيد:

لفهم الأسباب الحقيقية التي تجعل من منطقة عين عبيد سواء في الماضي أو الحاضر مقصد البدو الرحل من كل حدب و صوب إرتأينا تقديم هذه المونوغرافيا حول تاريخ المنطقة، طبيعتها الجغرافية، أحوالها المناخية و تركيبتها السكانية لسبر أغوار المعطيات الزمكانية في التأثير على حركية الإنسان و تحديد طبيعة نشاطه الاقتصادي .

إذا كان الإنسان إبن بيئته فان منطقة عين عبيد كانت دائما جزءا لا يتجزأ من تلك البيئة التي عرفت قبل الاحتلال الفرنسي نمطا من الحياة حددت معالمه ملكية الأراضي السائدة آنذاك و كذا طبيعة المجتمع القبلي و علاقاته المتداخلة و المتشعبة في فهم المجال و إستغلاله (توزيع الأراضي، التنقل ، العلاقات مع القبائل الأخرى)، و هذا باعتبار هذه المنطقة كذلك جزء لا يتجزأ من بيئة أوسع تشمل تركيبة الصحراء و تدخل في منطق التكامل الحيوي الذي نشأ عبر التاريخ وتزاوج مع الجغرافيا ليضع نسقا متكاملا بين السكان و الأرض.

سنحاول أيضا من خلال هذا الفصل تتبع أهم التطورات التي حصلت على هذا النظام بعد تطبيق قوانين إجبارية التملك* و كيف أثر ذلك على البنى التقليدية في المنطقة و لماذا بقت هذه التلال مراعي شاسعة تغص إلى يومنا هذا ببعض مشاهد الماضي البعيد ؟

1- الأراضي الخصبة و الطابع الفلاحي:

شكلت أراضي المنطقة الخصبة و الممتدة على مساحة 30010 هكتارا خزانات لا تنفد من الحبوب طيلة عهود طويلة إستأثر كل مستعمر بخيراتها، لقد كانت محل إهتمام و أطماع الجميع فمن الرومان إلى العرب مرورا بالعثمانيين و إلى العهد الفرنسي كانت " المطامر** ومخازن الحبوب العملاقة هي البنى التحتية الأساسية في هذه الربوع و كانت أيضا تربية المواشي كنشاط تابع و متكامل معها يعرف إزدهارا منقطع النظير، خاصة أن الأراضي الرعوية (الجبلية) تشكل سندا لها في فصل الشتاء حيث لا تزال إلى يومنا هذا قطعان الأغنام ترده و تملأ أفقه بثغائها*** عند المساء مع صيحات الرعاة العائدين منها إلى بيوتهم؛ لقد إستقطبت المنطقة بخصائصها

* Les lois de sénatus- consulte.

**المطامر جمع مطمور و هي عبارة عن حفرة كبيرة تحفر في أرض طينية تستعمل لتخزين القمح و الشعير.

***الثغاء هو صوت الشاة.

المميزة الرحل و شبه الرحل منذ القدم، فصارت مقصدا معتادا لهم حتى ذاع صيتها بينهم فأصبحوا يعرفونها أكثر مما يعرفها أهلها و يستفيدون من خيراتها أكثر من غيرهم، و قد يشد بعضهم الرحال لها فقط للتمتع بهوائها النقي و المنعش في فصل الحر؛ لقد كانت عين عبيد كذلك و لفترات طويلة محط توطين و إستقرار للكثير من المرتحلين و سنرى لاحقا كيف أن تاريخها سواء في العهد العثماني أو أثناء الفترة الاستعمارية لا يخلو من ذكر مآربهم كفاعلين في هذه المنطقة إلى يومنا هذا، فلا يزال وجودهم إلى حد الآن يشكل أهم مشاهد الحياة اليومية في البلدية خاصة في فصل الصيف؛ ولا تخلو الذاكرة الشعبية من روايات وأحاديث عن بدو رحل "عربانا" إستعمروا القرية في السبعينات و الثمانينات حيث كان توافدهم إليها بأعداد كبيرة جدا حتى أنك ترى أغنامهم تعبرها من مطلع الشمس إلى مغربها دون أن تنقضي، و قد إستقووا على الخلق حتى أصبحت شوكتهم لا تكسر فكانت بينهم و بين الأهالي عدة نزاعات و مناوشات لا يزال ذكرها لا ينقطع.

2- تاريخ و أصول المنطقة:

2-1- ظهور عين عبيد إلى الوجود: (أنظر الصورة رقم 02، ملحق الصور)

" تعود نشأة المركز البلدي لعين عبيد إلى سنة 1878م من طرف الشركة العامة الجزائرية * تنفيذا لتعليمات المادة 4 من القرار الصادر يوم 4 مارس 1867 (B.O.P.161) و المرسوم المؤرخ بـ : 1 سبتمبر 1869م (B.O.P.340) و الذي يعطي الإمتياز العقاري للشركة سالفة الذكر في الأقاليم الثلاثة للجزائر ، وهران و قسنطينة، و بموجب المرسوم الصادر بتاريخ 25 أوت 1855م (P.O.P 743) و الذي يقرر:

* يتعلق الأمر بمؤسسة ذات طابع احتكاري أخذت على عاتقها تثمين أراضي شاسعة باكترائها لمزارعين تتقاسم معهم الغلال و بينما أخذت هذه الشركة التي أنشأت سنة 1867م مرافقة الاستعمار الرسمي في شرق البلاد و استأثرت بايالة قسنطينة، نشطت شركة أخرى تسمى الشركة الجينوية بمنطقة سطيف وأحيانا استطاعت هذين الشركتين تحقيق ما لم يستطع الاستعمار الرسمي انجازه بالقهر والقانون في بعض المناطق وذلك باستعمال سلطة المال فلقد استطاع بعض جامعي الأراضي من المساهمين في الشركة العامة الجزائرية من جمع آلاف الهكتارات من الأراضي كما هو الشأن بالنسبة لعائلات : فور، فيكار، كوهلار و قراف ببلدية عين عبيد.

أ- فصل عين عبيد مركز و ضواحيها عن بلدية وادي الزناتي.

ب- فصل دوار زناتية عن البلدية المختلطة وادي الزناتي*.

ت- تجميع هذه المناطق و جميع الحقوق في بلدية كاملة الصلاحيات تحت اسم عين عبيد.

و كذا المرسوم الصادر بتاريخ 7 سبتمبر 1892 (B.O.P 1352) الذي يقر بإيقاف تبادل وقع بين

الدولة الفرنسية و الشركة الجزائية يهدف إلى توسيع مركز عين عبيد على إثره تتنازل الشركة عن 33 موقع بمساحة 5 هكتارات 656 آر ، و 5 سنتآر ، 13 منزل مبنية على هذه المواقع ، 28 قطعة ريفية (lots ruraux) بإجمالي 742 هكتار، 63 آر، و 12 سنتآر و 170 هكتار ، 50 آر ، 50 سنتآر أراضي رعوية تقع بشمال غرب المركز"(1) .

بهذا الشكل ظهرت إلى الوجود بلدية عين عبيد و التي تستمد إسمها من العزل** الذي وهبه الباي مانامانى خلال توليه السلطة إلى رئيس رعاته عبيد بن مراح.(2)

أما الذاكرة الشعبية فتتداول إسم شخص يسمى عبيد قام باستخراج عين يشرب منها الناس لذلك سميت المنطقة ب: عين عبيد، و الرواية ليست بعيدة في الحقيقة عن ما تورده الوثائق التاريخية بل هي تكملها و تعززها؛ أما عن إختيار المستعمر لهذه المنطقة بعينها لتكون مركزا للبلدية فيرجع أولا إلى موقعها الإستراتيجي كمفترق طرق و هذا بدوره لم يأتي صدفة، فاغلب الظن أن هذا الموقع أستغل من قبل من طرف الرومان، فالآثار التي تكتشف بين الحين و الآخر خير دليل على ذلك (كالمقبرة الرومانية بحي البستان والآثار الموجودة وراء جبل مازلة المعروفة بالكرمة) و هي دلائل واضحة عن وجود مدينة رومانية أو حامية مطموسة المعالم في مكان ما على هذه الربوع؛ يقول هاينريش فون مالتسمان في كتابه ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا: إن الفرنسيين كانوا دائما في تأسيس مدنهم و قراهم بالجزائر يحاولون تتبع آثار حكام العالم القدماء اعتمادا على خارطة الطرق لبطليموس أو على ما ورد في خريطة أنطونين و وصف بلينيوس

* يذكر المرجع المعتمد أن وادي زناتي كانت بلدية مختلطة لكن الأصح هو أنها كانت بلدية كاملة الصلاحيات.

(1) Yamina Arfa-Cherfi, L'agriculture familiale en Algérie, Structures foncières et dynamiques sociales, Enquête dans uue commune céréalière du constantinois (Ain-Abid), Thèse de doctorat d'Etat, Faculté des sciences humaines, Université de Constantine, 2006, pp. 97 -98.

** العزل تعني الأراضي التي قام الباي باقتطاعها عند الحاجة من الأراضي المشاع (أرض عرش).

(2) Ibid., p.83.

للمدن الرومانية القديمة[(1)] ، و لاشك أن الرومان ما كانوا ليتركوا هذه الأراضي الخصبة دون إستغلال و سيطرة، ويبقى طبعا تأكيد هذه الفرضيات يتطلب المزيد من البحث التاريخي والتنقيب في الآثار المتوفرة لتحديد معالم تلك الحقبة و سبر أغوارها (أنظر الصورة رقم:03).

2-2-أصــل السكــان:

"يعود غالبية سكان المنطقة إلى قبيلة عامر الشراقة التي قدمت من سطيف منذ حوالي أربع قرون و تسعون سنة إلى خمسة قرون و أربعون سنة للجهة الجنوبية الشرقية من مدينة قسنطينة وحلت بالأراضي المتاخمة لوادي مهيريس حيث أطلق على المكان إسم كا مهيريس "Ka M'iris" [(2)] ، وهو يبعد عن عين عبيد مركز التي لم تكن آهلة آنذاك بحوالي 6 كلم .

"إنفصلت عامر الشراقة عن القبيلة الأم عامر لغرابة* بسبب النمو الديمغرافي الكبير الذي عرفته هذه الأخيرة، مما إضطر جزءا منها للتنقل إلى أماكن أخرى بحثا عن ظروف حياة أفضل، ولقد إستغل الباي شجاعة فرسانها و نشاط رجالها ليبسط نفوذه و سيطرته على الأراضي الخصبة التي يعبرها وادي مهيريس نظير فوائد و إمتيازات يخصهم بهما دون غيرهم من القبائل التي وجدت قبلهم في المنطقة والتي كانت دائمة التنازع و الاقتتال و كان دور عامر الشراقة كقبيلة مخزينة هو التخلص من هذا الوضع و تحقيق الإستقرار في المنطقة، بالفعل فقد تمكنوا من طرد أولاد داود، الذين إنسحبوا إلى جبال الأوراس و خرارب سلاوة (أين استقروا نهائيا)، و نفس الشيء حصل لأولاد بوعافية الذين إنسحبوا نحو الشرق، إلى ضواحي سوق أهراس و قالمة، أما أولاد يحي بن إيدير و قرفة فقد إستطاعوا الصمود عكس غيرهم و هذا بفضل عددهم الكبير والنجدات التي تحصلوا عليها بعد العديد من تمرداتهم من قبيلة السقنية (الشاوية).

للقبيلة (عامر الشراقة) عدة بطون تعرف كل بطن محليا بالعرش و هي كالتالي [(3)]:

(1) عرش أولاد جليلة، (2) عرش أولاد سلطان، (3) عرش أولاد عبد النبي ،

---

(1) هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 1976، ص.ص.216 217.

(2) Yamina Arfa-Cherfi, Op. Cit., p.77.

* سميت عامر لغرابة لأنها تقع غرب عامر الشراقة التي إستقرت بمنطقة عين عبيد.

(3) Yamina Arfa-Cherfi, Op. Cit., pp.78-79.

(4) عرش أولاد شرقي، (5) عرش أولاد ناصر، (6) عرش أولاد مبارك، (7) عرش أولاد عور، (8) عرش بشبشية،(9) عرش أولاد جدي.

وكانت هذه العروش تتقاسم الأراضي للفلاحة و الرعي كل حسب مجاله المتعارف له به وقد يحدث تداول و تفاوض حول هذه الأراضي في الظروف الإستثنائية كسنوات القحط و الجفاف فيسمح عرش لعرش آخر إستباحة مجاله المعهود وقد تسوء الأحوال أحيانا أخرى بينهم فتتعدى إلى التصادم و الإقتتال.

كانت بطون هذه القبيلة يعيشون حياة شبه رحل حيث يمضون فصل الصيف في منطقة برج مهيريس و في فصل الشتاء ينتقلون شمالا ليقتربوا من جبال مسطاس و مازلة إلى المشاتي *حيث يتوفر الكلأ لأغنامهم و أبقارهم و كذا الحطب للتدفئة و الطهي و كانوا لا يزالون يتخذون الخيام بيوتا لهم يسمونها " العشة "، كما كانت أيضا تجاورهم بعض البطون من قبائل أخرى كأولاد قوام**، أولاد لشطر وأولاد جبنون الذين يعدون اليوم من السكان الأصليين للمنطقة عين عبيد.

2 3 مقاومة الاستعمار الفرنسي:

"بعد فشل الحملة الأولى على قسنطينة سنة 1836 م بقيادة الجنرال كلوزيل *** لحصانتها من الجهة الشمالية الغربية قرر الفرنسيون شن حملة ثانية سنة 1837 م بقيادة الجنرال "دام ريمون"****، هذه المرة من الجهة الشرقية إنطلاقا من عنابة، و بعد مسيرة 4 أيام توقفت مقدمة الجيش التي كانت تتكون من فرقتين الأولى بقيادة الدوق دي نيمور***** و الثانية كانت بقيادة الجنرال تريزال****** بالقرب من برج مهيريس (موطن قبيلة عامر الشراقة) حيث أختيرت هذه السهول المفتوحة الخالية من الشعاب و الجبال لمسيرة الجيش حتى يكون في مأمن من أي أخطار قد تعترضه، ولقد ساهم السكان بكل ما أوتوا من قوة في محاولة ردع هذه الحملة، حتى أنهم أحرقوا كل شيء يمكن أن يستفيد منه العدو من حقول و أكوام التبن التي عادة ما يستعملها

* المشاتي جمع مشتة و هو المنزل المخصص لتمضية فصل الشتاء.

**أولاد قوام من قبيلة هاشم قدموا إلى منطقة عين عبيد من ضواحي برج بوعريرج بعد مجيء قبيلة أولاد عامر و انضووا بعد ذلك تحت إمرتهم.

*** Le Général Bertrand Clauzel.

**** Le Général Charles-marie, comte Denys de Damrémont.

***** Louis Charles Philippe Raphael d'Orléans.

****** Le Général Camille Alphonse Trézel.

الفرنسيون لإطعام أحصنتهم المنهكة من السير، هذا بالإضافة إلى إنضمامهم للمقاومة التي قادها أحمد باي ومشاركتهم في المناوشات التي دارت خلال سير الجيش نحو أسوار قسنطينة والتي إستطاع الجنرال فالي * التمكن منها أخيرا وإسقاطها يوم 13 أكتوبر 1837 م، بعد مقتل قائد الحملة الجنرال دام ريمون خلال معركة حامية الوطيس"[1].

2 4 التوطين والفرقة القبلية:

بعد أن أحكم المحتلون سيطرتهم على جميع مناطق الوطن عملوا جاهدين على تفكيك البنية القبلية للسكان وهذا بهدف إضعاف شوكتهم و إذهاب ريحهم مقسمين بطون كل قبيلة و وضع أجزائها داخل مجالات إقليمية إدارية تخالف منطق وجودها السابق حيث أصبحنا نجد مثلا جزء من عرش أولاد جليلة و جزء من عرش أولاد سلطان و جزء من عرش أولاد عبد النبي مجمعين داخل دوار واحد [2] وهذا كي يؤجج نعرة الصراعات القبلية بين هذه الأجزاء حتى تخدم مبدأ الإحتلال الأساسي الذي إعتمده في كل أرجاء الوطن و هو قاعدة " فرق تسد"، و قد كانت تلك المراكز البلدية** بمثابة محتشدات غرضها الحد من حركية السكان لدفعهم إلى الاستقرار والتوطن، و لم يكتف الفرنسيون بذلك و حسب بل أرسوا أيضا نظاما جديدا للتسمية فقدَ الناس من خلاله أنسابهم القبلية القديمة و اكتسبوا ألقابا لم يعهدوها من قبل كان هدفها أيضا خلق حالة من الإغتراب تؤدي في نهاية المطاف إلى فقدان الهوية و الإحساس بالإنتماء تمهيدا لإقتلاع هذا المجتمع من جذوره و أصوله.

2-5- موعد جديد مع التاريخ: هجومات 20 أوت 1955

بعد إندلاع ثورة التحرير المظفرة يوم الفاتح من نوفمبر 1954 م سارع الجيش الفرنسي إلى محاولة وأدها و تضييق الخناق عليها بكل الوسائل حتى لا تتسع رقعتها و تعم كل أرجاء الوطن ظنا أنها بمعزل عن الشعب و أنها فعل جماعة من المتمردين، جاءت هجومات 20 أوت

* Le Général Sylvain Charles Valée.

(1) Julien Charles-André, Histoire de l'Algérie contemporaine, La conquête et les débuts de la colonisation(1827-1871), Casbah Edition, Alger, 2005, pp.132 -140.

(2) Yamina Arfa-Cherfi, Op. Cit., p.87.

** أنشا المحتل أربع مراكز بلدية لتجميع السكان هي على التوالي: مركز عين عبيد، مركز برج مهيريس، مركز لكحالشة كبار ومركز زهانة.

1955 م التي خطط لها العقيد زيغود يوسف و التي عرفت بهجومات الشمـال القسنطيني[1] ليهب الشعب الجزائري بوسائل بسيطة من فؤوس و مداري و خناجر إلى جانب ثلة قليلة من المجاهدين محدودي التسليح ليعلنوا لفرنسا أن الموعد قد حان كي ترحل من هذه الأرض، ولأن هذه الأخيرة أدركت ذلك بوضوح، جاء ردها إنتقاما بشعا أيما بشاعة وكانت الإبادة الجماعية هي الجواب دون هوادة (الصورة رقم 04).

لقد حقق الهجوم على بلدية عين عبيد بقيادة المجاهد أحمد نويوات شويطر[2] جل أهدافه بعدما إستهدف مركز الجندرمة ، مخزن الحبوب ، مقر البلدية ، مسكن جان ميلو، الحانة ودار الطبيب؛ و قد أسفر الهجوم عن مقتل عشر عسكريين، ثلاثة أفراد من عائلة المعمر جان ميلو، إثنان من عائلة روسي، فرد واحد من كل عائلة: قراف، كوش و بويسون ، أما عدد الجرحى فكان : إثنان من الدرك، المعمر برميي إفون، ماليا فرانسوا، ماجيار أمونسيات، زوجة جان ميلو وابنها؛ أما ما يخص الخسائر التي تكبدها المستعمر فكانت كالتالي: تخريب السكة الحديدية، غنم 70 ألف فرنك فرنسي، حرق جرار و شاحنة البلدية مع الظفر بسلاح الحارسين، غنم بندقيتين، مسدس و 200 خرطوشة وأخيرا حرق سيارة أحد المعمرين.

2 5 1 الأهداف المسطرة و المنجزة للهجوم :

تمثلت أهم الأهداف التي خطط لها الجاهدون وتم إنجازها فيما يلي[3]:

1 إرهاب المعمرين و ضرب مصالحهم.

2 قتل الخونة المتواطئين مع الإستدمار.

3 الإستيلاء على الأسلحة من الثكنات و مراكز البوليس و الجندرمة.

4 تخريب المؤسسات الإقتصادية و المالية الإستعمارية.

5 رفع معنويات المجاهدين و تحطيم أسطورة الإستعمار و جيشه الذي لا يقهر و تعزيز الروح القتالية للمجاهدين و الشعب على السواء.

---

(1) د. يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة، الطبع الأولى،1980، ص.308.
(2) ملتقى حول أحداث 20أوت1955 في ذكراه التاسعة والأربعون برعاية المجلس الشعبي البلدي لبلدية عين عبيد ، أوت 2004 .
(3) مذكرات الرئيس علي كافي، من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946 1962، دار القصبة للنشر، الجزائر، 1999، ص.84.

6- تأكيد فعالية الثورة و شموليتها لأن معظم الحركات السياسية كانت تراها مغامرة طائشة والإستعمار كان يراها من عمل أقليات.

7- القضاء على التعتيم الإعلامي الاستعماري الذي شوه صورة الثورة في الداخل و أمام المجتمع الدولي.

8- إستقطاب أكثر لفئات الشعب.

9- نشر الثورة عبر كافة التراب الوطني و نقلها من الأرياف إلى المدن تأكيدا للاستعمار أنها موجودة في كل مكان.

10- فك الحصار على منطقة الأوراس المحاصرة من طرف القوات الفرنسية.

بعدما إستيقظ المعمرون و الجندرمة من هول الهجوم تم طلب النجدة من كل المحاور، لكن الإمداد لم يتمكن من الوصول بسبب الكمائن التي نصبها المجاهدون على طرق : الهرية ، قسنطينة ووادي الزناتي، و بالرغم من ذلك فقد تمكنت فرقة مدرعة للجيش الفرنسي من الوصول إلى المدينة من الجهة التي لم يحسب لها حساب، أي من جهة عين الفكرون، و تمكنت هذه الفرقة في آخر النهار من إنهاء سيطرة المجاهدين و ردهم، ثم توجهوا بعد ذلك و بإيعاز من المعمرين نحو المدنيين للإنتقام و إرتكاب أبشع المجازر والتي راح ضحيتها ما يقارب 750 شهيدا كان من بينهم 306 من الرحل بقوا مجهولي الهوية إلى يومنا هذا[(1)].

2-5-2- خيمة الرحل تهز هيئة الأمم المتحدة:

إستمرت المجازر طيلة أسبوع كامل بعد يوم 20 أوت 1955 أطلق فيها النار على كل عربي يلبس قشبية أو يضع شاشا و قد إستطاع جمال شندرلي أن يصور بعضا من تلك المجازر لما رافق الحاكم العام للجزائر جاك سوستال إلى عين عبيد و كان ذلك الشريط الذي يظهر أحد المعمرين و هو يقترب من خيمة أحد الرحل ثم يخرجه و يطلق عليه النار بكل برودة قد ذاع صيته حتى تصدرت صورها الجرائد في العالم و قد عرض في هيئة الأمم المتحدة ليظهر أبشع صور الإبادة التي ارتكبها الاستعمار على هذه الأرض و لاقت هذه الصورة تضامنا عالميا منقطع النظير خدم كثيرا القضية الجزائرية في المحافل الدولية. (أنظر الصورة رقم:05)

[(1)] خواطر وحي هجوم 20أوت1955، نشرة إعلامية تصدرها قسمة حزب جبهة التحرير الوطني بعين عبيد، أوت 1986، ص.18.

ويتذكر الحاج (ك . س) من رحل السوامع الأحداث جيدا حيث كانت خيمته موجودة بالقرب من وادي تويفزة وكان لا يزال غرا لا يتجاوز سن العاشرة من عمره حين رأى أهالي عين عبيد يهرعون فارين من مساكنهم باتجاه دوار بني أحمد و قد أُخبروا أن الناس بالقرية قد أبيدوا جميعا، فما كان منهم إلا أن حملوا ما استطاعوا حمله و فروا بجلدهم، و تذكر شهادة أحد الذين عايشوا الوقائع و ساهم أيضا في دفن الموتى، أنهم دفنوا في اليوم الأول 65 شهيدا و في اليوم الثاني 180 شهيدا و أما جثث الرحل التي نقلت على مرأى منه فكانت 111 جثة(1).

3 الموقع الجغرافي:

تقع بلدية عين عبيد جنوب شرق ولاية قسنطينة على بعد 42 كلم من مقر الولاية تتربع على مساحة إجمالية تقدر بـ 38, 32 كلم^2 (32380 هكتار)، تجعلها أكبر بلدية بين بلديات ولاية قسنطينة تحدها من الشمال بلدية برج صباط و من الشمال الشرقي بلدية عين رقادة و من الجنوب الشرقي بلدية تاملوكة و هي كلها بلديات تابعة لولاية قالمة أما من الجنوب فنجد بلدية العامرية و من الجنوب الغربي بلدية سيقوس التابعتان إداريا لولاية أم البواقي و في الأخير نجد من الجهة الغربية أولاد رحمون و الشمال الغربي بلدية ابن باديس من إقليم ولاية قسنطينة.

تتشكل بلدية عين عبيد التي هي في نفس الوقت مقر الدائرة من عين عبيد مركز و أربع تجمعات ثانوية هي: المعمرة 20 أوت 55 شمالا، برج مهيريس جنوبا، كحالشة كبار غربا، و زهانة من الشرق.

تحتل البلدية من الناحية الجغرافية موقعا إستراتيجيا جد هام حيث تعد معبرا مهما من و إلى ولايات : قالمة ، عنابة، أم البواقي ، تبسة ، سوق أهراس، الطارف و أيضا إلى تونس (أنظر الخريطة رقم 01 ، ملحق الخرائط) .

(1) خواطر وحي هجوم 20أوت1955، مرجع سابق، ص.12.

4 الجيولوجية و التضاريس[1]:

"تتكون أراضي عين عبيد من سهول شاسعة ذات وسط فيزيائي سهل أي ما يعادل 23290 هكتار صالحة للزراعة مما يمثل 79,72 % من مساحتها الإجمالية تقع معظمها جنوب البلدية (برج مهيريس و لكحالشة كبار)أما الجهة الشمالية من البلدية فمعظمها عبارة عن جبال (جبل عين برناز 870 م ، جبل بئر الشرشم ، جبل مسطاس 1320 م ، و جبل مازلة 1070 م) هذه الجبال- ما عدا جبل مازلة الذي يحاذي عين عبيد مركز مباشرة- تكسوها مساحة غابية تصل إلى 2490 هكتارا أي ما يعادل 8,30 % من مساحة البلدية.

يطلق الأهالي بعين عبيد على الجزء الواقع شمال الطريق الوطني و الذي يحتوي على الجبال والغابات اسم "الساحل" أما الجزء الواقع جنوبا فيطلقون عليم اسم "الصرا" والتباين بين الشطرين واضح إلى حد كبير حتى أننا نجد بعض النباتات بالجزء العلوي كالخرشوف، البلوط، الصرو ، لا نجدها إطلاقا بالجزء السفلي و هناك أيضا إختلاف نسبي في المناخ حيث تكون نسبة الرطوبة في الجهة الشمالية أعلى من نسبة الرطوبة في الجهة الجنوبية إلى درجة أنه خلال سنوات الجفاف تكون غلة الساحل أحسن من غلة الصرا ، و هذا ما يفسر إقبال الرحل على هذه المنطقة خلال سنون القحط .

يشق بلدية عين عبيد واديان، الأول هو وادي مهيريس الذي تتدفق مياهه من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي حتى تصب في وادي بومرزوق و هو وادي لا ينضب خلال مواسم الحر الشديدة ، أما الثاني فيقع شمالا ويسمى وادي الزناتية؛ يتخذ مجراه من الغرب نحو الشرق و هو لا يكاد يكون ذا أهمية لقلة مياهه خاصة في فصل الصيف كما تتخلل كذلك المنطقة عدة وديان وسيول تستيقظ في مواسم الأمطار الغزيرة كوادي تويفزة (أنظر الخريطة رقم 02).

تقع البلدية أيضا في منطقة زلازل مصنفة رقم 2 و قد شهدت أعنف زلزال تسبب في خسائر مادية هامة سنة 1985 اليوم الخامس من شهر أكتوبر.

---

[1] وثائق رسمية من مكتب المصلحة التقنية لبلدية عين عبيد.

5 المنـــــاخ[1]:

تتموقع بلدية عين عبيد ضمن حزام المناطق الداخلية (بعيدة عن البحر بحوالي 80 كلم) مما يعطيها مناخا قاريا حارا جدا صيفا تفوق درجة حرارته 40° و باردا جدا في فصل الشتاء تنزل فيه درجة الحرارة إلى ما دون الصفر تتعرض من خلالها المنطقة إلى عواصف الثلج، البرد وفترات طويلة من الجليد.

الجدول رقم (01) : توزيع متوسط أيام تساقط الجليد في السنة ببلدية عين عبيد.

الشهور	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	متوسط عدد الأيام في السنة
متوسط أيام تساقط الجليد	11	6,9	3,9	1,9	0	0	0	0	0	0,1	1,9	8,3	33,7

Source : Yamina Arfa-Cherfi, L’agriculture familiale en Algérie, Structures foncières et dynamiques sociales, Enquête dans uue commune céréalière du constantinois (Ain-Abid), Thèse de doctorat d’Etat, Faculté des sciences humaines,, Université de Constantine, 2006, p.112.

يبدأ تساقط الجليد على المنطقة خلال شهور ديسمبر ، جانفي، فيفري و قد يمتد البرد إلى نهايات أفريل مما يهدد محاصيل القمح ولنفس السبب أيضا لا نجد في المنطقة زراعات أخرى مهمة ما عدا زراعة الحبوب الجافة.

تتراوح نسبة تساقط الأمطار بها سنويا بين 450 ملم و 600 ملم هي عادة ما تكون نتاج هبوب رياح شمالية غربية، أما الرياح الشمالية الشرقية فغالبا ما تكون جافة و في بعض الأحيان رطبة.

سجل أدنى مستوى لتساقط الأمطار سنة 1983م (253,2 ملم) كما أن متوسط عدد أيام تساقطها هو 98 يوما وهذا ما أهل المنطقة بأن تكون في وضعية ملائمة لزراعة الحبوب بشكل دائم و مستمر حتى وإن كان التفاوت واضحا للمحاصيل من سنة إلى أخرى فيكون الإنتاج جد وفيرا خلال الأعوام التي تعرف تساقطا كبيرا للأمطار كما هو الحال لسنوات : 1976 ، 1980،1979م أو شحيحا جدا كما هو الحال للسنوات قليلة الأمطار على غرار مواسم 1977،

---

(1) Yamina Arfa-Cherfi, Op. Cit., pp.111-112.

1986و 1989م لذلك يقول الناس هنا "*الحرث دوام و الصابة عوام*" أي أنهم يواظبون دائما على عملية الحرث بينما لا ينتظرون وافر الغلال إلا أعواما قليلة، وعلى العموم وفي كل الأحوال تبقى هذه المساحات الشاسعة للمنطقة توفر في فصل الصيف مراعي واسعة تستقطب الرحل من كل حدب وصوب.

الجدول رقم (02): معدل تساقط الأمطار السنوي (من سنة 1976إلى سنة1991م).

السنة	1976	77	78	79	80	81	82	83	84	85	86	87	88	89	90	91
الأمطار(ملم)	849	342	463	563	552	522	662	253	759	442	552	474	511	374	422	510
عدد الأيام	149	75	95	127	116	101	122	86	112	99	84	106	104	62	67	61

Source : Yamina Arfa-Cherfi, L'agriculture familiale en Algérie, Structures foncières et dynamiques sociales, Enquête dans uue commune céréalière du constantinois (Ain-Abid), Thèse de doctorat d'Etat, Faculté des sciences humaines, Université de Constantine, 2006,111.

6 السكان و الديمغرافيا[(1)] :

بلغ سكان بلدية عين عبيد حسب التعداد السكاني الأخير لسنة 2008 م، 32456 نسمة موزعين كما يلي:

عين عبيد مركز: 22930 نسمة.

التجمعات الثانوية: 5017 نسمة.

المنطقة المبعثرة: 4509 نسمة.

وصلت الكثافة السكانية في المنطقة إلى 100,17 ن/كلم^2 وهي تعتبر من أضعف النسب على مستوى ولاية قسنطينة نظرا لشساعة أراضيها ذات الطابع الفلاحي من جهة لتجمع أغلبية السكان في عين عبيد مركز على مساحة لا تتجاوز 3كم^2 من جهة أخرى.

عرفت البلدية أكبر زيادة للسكان خلال الفترة الممتدة بين سنة 1989 و 1995 ففي خلال ست سنوات قفز عدد السكان من 18860 ن إلى 24190 ن أي بزيادة 5284 ن و إذا قارنا العدد بالزيادة الحاصلة تقريبا في نفس المدة أي من سنة 1993 إلى سنة 1998 لا نجدها إلا بـ 2061 نسمة ، و هذا راجـــع إلى كـــون المنطقة عرفـت مـوجة من النزوح مـــن جميـع الولايات المجاورة لها

(1) أرقام مقدمة من طرف مكتب المصلحة التقنية لبلدية عين عبيد.

وبشكل خاص من ولاية أم البواقي (عين فكرون، هنشير تومغني، عين كرشة) و هذا بسبب إنعدام الأمن في تلك المناطق و إنتشار ظاهرة الإرهاب فيها، بينما لم تطل هذه الظاهرة بلدية عين عبيد إطلاقا بفضل تجند أبنائها و يقظتهم منذ بدايات الأزمة ، و قد أدى توافد الشاوية إلى البلدية بأعداد كبيرة إلى خلق توازنات جديدة من ظهور واضح لاستعمال اللهجة الشاوية و محاولة الدخول بقوة في المجال السياسي خلال المناسبات الانتخابية لفرض وجودهم و تحقيق إمتيازات عبر التمثيل المتاح داخل المجلس البلدي، هذا مقابل الأعداد الكبيرة لسكان المنطقة المكونين كما سبق و أن أشرنا من قبيلة عامر الشراقة ببطونها الكثيرة و التي تتنافس أيضا فيما بينها لاحتلال المجال السياسي و فرض أبناء العرش بكل الطرق و الوسائل للوصول إلى رئاسة البلدية، فيحتدم التنافس بين هذه العروش بتقديم أفضل ما عندها من العناصر على جميع المستويات و عندما يتفوق طرف بأحد أبنائه الحاملين لشهادات تعليمية عليا، يثور الطرف الآخر و يستعمل آخر الأسلحة لاستمالة أبنائه بإيقاظ نعرة العصبية فيهم فيكون في آخر المطاف "*دابنا و لا عودهم*" أي المهم أن ينجح فرد من عرشنا مهما كان مستواه متدنيا و لا يفوز أحسن ما عند الآخرين و لو كان يحمل شهادة الدكتوراه، فتكون نتيجة ذلك على العموم وصول أطراف أخرى لتقلد مناصب مهمة في البلدية على حساب أبناء المنطقة ويمكن أن نعدد مثلا الكثيرين من رؤساء البلدية بعين عبيد ليسوا أصلا من هذه البطون المكونة لتركيبة السكان الأصلية بها لذلك تشاع كثيرا عبارة متداولة بين الأهالي هنا " *عين عبيد تخرج على البراني*"، فيفضل "*البراني*" على الأخ وابن العم فقط كي لا يكون هذا الأخير هو الأفضل.

بالإضافة إلى عنصر الشاوية نجد كذلك من بين النازحين الكثر من رحل السوامع والنوايل الذين توطنوا بالبلدية في تلك الفترة وهذا بفضل سهولة حصولهم على سكن فوضوي بأحياء ضريبينة، مازلة أو لاسيتي مسروق، حيث كان البناء الفوضوي ينمو كالفطر بين الفترة الممتدة من 1991م إلى 1995م حتى أنك في النهار لا تجد شيئا وفي صباح الغد التالي تجد منزلا بأتم معنى الكلمة يعلوه هوائي و الغسيل منشور على أسواره وكأنه موجود منذ سنين.

7- النشاطات:

7-1 الفلاحة [1]:

تشكل الفلاحة النشاط الأساسي لمنطقة عين عبيد باعتبار أن ما يقارب 78 % من مساحتها عبارة عن أراضي صالحة للزراعة و هي مقسمة كالتالي:

الجدول رقم (3): توزيع المساحة الصالحة للفلاحة(بالهكتار).

التخصيص	الحبوب	خضروات	عطال	المجموع
المساحة بالهكتار	12670	50	10750	23290

المصدر: المكتب الإقليمي للفلاحة ببلدية عين عبيد.

وقد يختلف التوزيع من سنة لأخرى حيث يمكن أن نجد كذلك تخصيصات أخرى كزراعة الأعلاف و البقول الجافة؛ يبدأ موسم الحرث مع سقوط الأمطار الأولى للخريف (أكتوبر عادة) حيث تعرف المنطقة نشاطا وحركية منقطعة النظير، لكن مع مرور موسم البذر تدخل المنطقة في سبات شتوي طويل فالكل ينتظر شهر مارس ليرى نتيجة عمله، و قبل ذلك نجد مركز البلدية أو ما يسميه الناس هنا الفيلاج* يعج بالفلاحين الذين يحتلون المقاهي من الصباح إلى المساء حتى أننا نكاد نجد بين المقهى و المقهى مقهى آخر يمتلئ بهؤلاء الذين ينتظرون نتيجة كدهم، وهم يتوزعون عادة حسب مدخل الفيلاج فمن الجهة الشرقية نجد فلاحو زهانة، من الجهة الغربية فلاحوا كحالشة، و من الجهة الجنوبية فلاحوا برج مهيريس أما وسط الفيلاج فيحتله عادة فلاحوا القرية (معمرة 20 أوت 55) وفلاحو عين عبيد مركز ، فإذا كنت تبحث عن أحدهم فيكفي أن تقصد إحدى هذه المقاهي من تلك الجهة لتجده بسهولة.

بعد هذا السبات الطويل تدب الحركة من جديد في المنطقة بداية مع مرحلة التسميد و التخلص من النباتات الضارة و هكذا هو الحال إلى مجيء الصيف و بداية موسم الحصاد حتى أن "*الفيلاج يفرغ* " - على حد تعبير الأهالي فلا تكاد تجد أحدا من هؤلاء الفلاحين في تلك المقاهي فالكل

---

(1) أرقام مقدمة من طرف المكتب الإقليمي للفلاحة ببلدية عين عبيد.

*الفيلاج كلمة عامية مهذبة من الفرنسية village يقصد بها مركز البلدية الذي يعود إلى الحقبة الاستعمارية.

منهمك الآن بجمع محاصيله و الإشراف على عملية الحصاد التي يشارك فيها وبشكل فعال الرحل كيد عاملة أجيرة (أنظر الصورة رقم: 16).

7 2 تربية الماشية:

يرافق النشاط الزراعي نشاط مكمل له هو تربية الماشية حيث وصل عدد رؤوس الأبقار بالمنطقة سنة 2006م إلى 3360 رأس و عدد رؤوس الأغنام 12500 رأس و تساعد المناطق الرعوية المتاحة بالبلدية و التي تقدر بـ 6270 هكتار منها 2490 هكتار من الغابات على إزدهار هذا النشاط و توسعه، هذا بالإضافة إلى المساحات الشاسعة المسماة بالعطال " العطلوات" في الربيع و كذا المساحات و الحقول المحصودة في فصل الصيف و التي يدخل مربو الماشية والبدو الرحل القادمين من الصحراء في تنافس محموم للظفر بها خاصة في السنوات العجاف.

7 3 الأشجار المثمرة:

لم تعرف عين عبيد من قبل زراعة الأشجار المثمرة بشكل واسع إلا منذ الخمس سنين الأخيرة حيث أنجزت بساتين بمساحة إجمالية تقدر بـ 38 هكتارا مجهزة بأحدث التقنيات للسقي (نظام التقطير) و الذي يمكن من خلاله دمج الأسمدة و الأدوية و هذه الأشجار محسنة جينيا ومستوردة تقاوم الجليد و هي من أنواع: العنب، الإجاص، اللوز، الزيتون.

7 4 تربية الدواجن:

تعرف المنطقة أيضا نشاطا مهما لتربية الدواجن سواء تلك المخصصة لإنتاج البيض أو إنتاج اللحوم البيضاء وبلدية حديثة العهد بهذا النشاط الذي لا يزال محدودا في مجمله حيث يقتصر على عدد قليل من المستثمرين وتلعب وفرة اللحوم البيضاء عادة دورا مهما في تراجع أسعار اللحوم الحمراء مما قد يعود بدوره بالضرر على تربية الماشية .

7 4 1 دجاج البيض:

الجدول رقم (04): نشاط تربية دجاج البيض لسنة 2009/2008 ببلدية عين عبيد.

عدد المربين	عدد الهياكل	السعة النظرية	الأعداد المتوفرة
05	**10**	**50000**	**17226**

المصدر: المكتب الإقليمي للفلاحة ببلدية عين عبيد.

7 4 2 الدجاج (اللحوم البيضاء):

الجدول رقم(05):إنتاج اللحوم البيضاء لسنة 2009/2008 ببلدية عين عبيد.

عدد المربين	عدد الهياكل	السعة النظرية	الأعداد المتوفرة
09	35	89000	17123

المصدر: المكتب الإقليمي للفلاحة ببلدية عين عبيد.

7 5 تربية النحل:

مع بداية الإهتمام بالأشجار المثمرة بالمنطقة بدأ أيضا الإهتمام بتربية النحل، هذا النشاط الذي يتكامل مع وجود الشجرة التي تعمل النحلة على تلقيحها وتوفير مادة العسل ذات القيمة الغذائية والإقتصادية العالية بواسطتها.

8 التجـارة [1]:

يمتهن 6 % من سكان بلدية عين عبيد التجارة أي ما يمثل تقريبا 2000 تاجر نصفهم فقط ينشط بشكل رسمي و تكاد تنحصر 80 % من ممارسة هذا النشاط داخل وسط المدينة القديم الذي يرجع إلى عهد الاستعمار (Centre Ville) حيث يفوق به عدد المحلات التجارية 300 محل يتوزع نشاطها في بيع المواد الغذائية بالدرجة الأولى ، المقاهي بالدرجة الثانية ثم بيع الخضر و الفواكه ، بيع الألبسة ، الجزارة و بعض النشاطات الحرفية كالنجارة ، الحلاقة ، تصليح الأحذية وغيرها كبيع قطع الغيار،الخردوات ومحلات الهواتف العمومية.

[1] أرقام مقدمة من طرف مصلحة الضرائب لدائرة عين عبيد.

ينتقل سكان الضواحي عادة للتسوق من "الفيلاج" الذي يعرف في الساعات الأولى من الصباح إكتظاظا كبيرا ثم ينفض في المساء و لا تكاد ترى إمرأة وسط المدينة إلا نادرا لأنه من العيب أن تمر أو تتسوق نسوة المنطقة داخل هذا الحيز المخصص فقط للرجال و يمكنهن فقط أن تتجولن بمحاذاته هنا و هناك (أي بالمحلات الموجودة بالشوارع الثانوية) و إن وجدت إمرأة داخل "الفيلاج" فلا شك أنها غريبة ليست من الديار .

يتعامل التاجر أكثر مع بني عمه و يكاد يكون كل متجر لفئة معينة (عرش) يترددون عليه باستمرار لتبضع و الجلوس لأوقات طويلة، و قد يعرف وسط المدينة من حين لآخر مشادات عنيفة بين متنازعين و متخاصمين لأسباب عديدة أهمها التنازع على الأراضي و غالبا ما يتدخل كبار التجار المعروفين لفظ النزاع و إقامة الصلح ففي واقع الأمر يتعمد المتخاصمون المجيء إلى وسط المدينة لتفجير خصوماتهم كي يتدخل هؤلاء التجار لتسوية الموضوع، حتى أن أحدهم يتربص بغريمه أمام الملأ ليطالبه بحقوقه رافعا صوته كي يسمعه الجميع فيكون الحال كما سبق وأن أشرنا خصام فتدخل من طرف كبار التجار ثم صلح ينتهي بوليمة دسمة.

تتخذ التجارة في عين عبيد طابعا عائليا ، فنجد المحل التجاري الواحد به ثلاثة إلى خمسة أخوة يتداولون العمل فيه و هو الشيء الذي جعل هذا النشاط لا يعرف تطورا بالمنطقة لعدم تؤسسه على منطق الرأسمالية و الحساب التجاري المحض بل هو عمل جماعي (إشتراكي) دوره مقتصر على الإسترزاق (عائلات الأخوة عادة) و بالمقابل نجد العنصر المزابي و الفراجوة بدورهم يمارسون تجارة تقوم أكثر على العقلانية (المحاسبة و التقشف) ، مما جعل هؤلاء يتوسعون بشكل كبير في المدينة (شراء عقارات، بناء فيلات و إقامة مشاريع متعددة).

8-1 السوق الأسبوعي:

تقام بالبلدية سوق أسبوعية كل يوم ثلاثاء يخصص جزئ منها لبيع و شراء المواشي، وهي تعرف بشكل خاص حركية منقطعة النظير عند تواجد البدو الرحل بالبلدية إبتداءا من أواخر الربيع إلى نهاية الصيف حيث يزداد عرض الماشية للبيع مما يساهم أغلب الأحيان في إنخفاض محسوس للحوم الحمراء، كما أنهم يساهمون بشكل عام في إنعاش التجارة وتنشيطها بإعتبارهم يدخلون أموالا مهمة من خارج البلدية تساهم في زيادة دخلها الكلي، وقد تم تغيير موقع هذه

السوق ثلاثة مرات منذ الإستقلال والآن يجري التفكير في تحويلها إلى موقع رابع أكثر إتساعا وهذا دليل واضح على تزايد وتنامي أهمية هذه السوق بالموازاة مع كبر المدينة و تطورها الحضري و الديموغرافي.

9 الصناعة:

كانت الصناعة بالمنطقة و لزمن طويل (خاصة قبل الإنفتاح الاقتصادي) محظورة ببلدية عين عبيد بحجة الحفاظ على طابعها الفلاحي و قد رفضت الكثير من المشاريع الصناعية من طرف مسئوليها المحليين من قبل، الشيء الذي جعل المنطقة تتأخر كثيرا في مجال الصناعة فلا يوجد بها مثلا ولو " رحى صناعية صغيرة لإعداد مادة السميد " وهذا بالرغم من إنتاجها الوافر للحبوب، لكن وبعد الإنفتاح الإقتصادي للبلاد كان أول مشروع صناعي مهم أنجز بها هو مصنع للإسفلت والذي تم بناؤه وسط تجمع سكاني كبير (مازلة، صريبينة، عين عبيد وسط) ، أدى وجوده فيما بعد إلى خلق مشاكل بيئية و صحية جمة أدت في آخر المطاف إلى غلقه؛ أما باقي الصناعات الأخرى فيمكن حصرها فيما يلي:

20 محجرة

وحدة إنتاج السقوف (Iso Froid)

10 أرضيات لإنجاز الطوب (Plateformes).

10 الحرف:

عرفت المنطقة خلال السبعينات عدة حرف تقليدية كان أهما صناعة القشابية، الزرابي، الفخار و الحدادة لكن مع بداية التسعينات و ظهور اغلب هذه المواد جاهزة و بأقل الأثمان اندثرت هذه الحرف من المنطقة تماما.

11 الشبكـــــات:

تعكس حالة الشبكات المختلفة للطرق، الكهرباء، الغاز، المياه و الاتصالات حالة البلدية العامة من حيث انفتاحها أو عزلتها، كما تبين أيضا مدى حركية التنمية بهذه المنطقة و آفاقها الاقتصادية وفي هذا الصدد نجد:

1-1-11 شبكة الطرق:

و تتشكل أساسا من:

* الطريق الوطني رقم 20 الرابط بين ولايتي قالمة و قسنطينة و الذي يعرف إكتظاظا كبيرا نظرا لكثرة مستعمليه.

* الطريق الولائي رقم 07 الذي يربط عين عبيد بالعامرية مرورا ببرج مهيريس في اتجاه الجنوب.

* الطريق الولائي رقم 133 و الذي يربط عين عبيد مركز ببلدية ابن باديس من الجهة الشمالية الغربي و ببلدية تاملوكة من الجنوب الشرقي مرورا بوسط المدينة.

* الطريق الولائي رقم 15 يربط مركز المدينة بالتجمع الثانوي للقرية (المعمرة 20 أوت 1955).

* طرق بلدية مختلفة تربط المدينة بمختلف المشاتي و الأرياف .

- طريق الذيابة
- طريق بولقنافد
- طريق بلغراري
- طريق أولاد جبنون

وهذه الطرق سواء الوطنية ، الولائية أو البلدية منها متهرئة وفي حالة سيئة مما يتسبب في الكثير من الحوادث المميتة خاصة و أنها اليوم لا تستجيب للتطور الحاصل و وسائل النقل، فلا يمكن لسيارة سرعتها تصل 300 كلم/سا أن تسير في مثل هذه الطرقات بمعية سيارات أوشاحنات قديمة دون أن تشكل خطرا حقيقيا، هذا بالإضافة إلى العبئ الكبير الذي تشكله شاحنات الوزن الثقيل على هذه الطرقات فلقد وصل معدلها إلى 400 شاحنة في اليوم تتردد على محاجر البلدية مشكلة أزمة حقيقية في تعطيل المواصلات، لكن وبالرغم من ذلك تبقى هذه الشبكة رغم رداءتها واكتظاظها تلعب دورا حيويا في ربط عين عبيد بباقي المناطق الجنوبية حيث يتوافد الرحل عليها كل صائفة.

11 2 السكة الحديدية:

يوجد خط واحد مواز للطريق الوطني للطريق رقم 20 و قد توقف عن الإستعمال منذ بداية الثمانينات و هو يرجع أصلا إلى العهد الإستعماري حيث كان يعرف نشاطا كبيرا في نقل المسافرين و البضائع وكان يستعمله البدو الرحل للقدوم إلى منطقة عين عبيد بشكل أساسي إنطلاقا من ولاية بسكرة.

11 3 شبكة الإتصالات:

تتمتع البلدية بشبكة هاتفية طاقتها 2000 خط و مجموعة من محطات الهاتف النقال لكل من جيزي، موبيليس و نجمة بتغطية كاملة تصل إلى 90 % و هذه الشبكة تسمح للمواطنين لإجراء إتصالاتهم بكل سهولة و البقاء في إتصال دائم بكل العالم خاصة عبر الانترنيت الذي يتزايد إستعماله يوما بعد يوم، و يستغل البدو الرحل هذا المجال الواسع من إمكانيات الاتصال حيث ما كانوا لصبر أحوال الأسواق وكذا للسؤال عن المرعى والكلأ عبر كامل التراب الوطني مستعملين الهواتف النقالة التي يقومون بشحن بطارياتها عادة عند أصحاب المحلات التجارية بوسط المدينة.

12 الموارد المائية:

تتزود البلدية بالماء الشروب كالتالي:

عين عبيد مركز تتزود من محطة آركو التابعة لبلدية تاملوكة على بعد 35 كم بنسبة 80% والباقي من الخزان القديم الموجود بوسط المدينة و الذي يتزود بدوره من وادي برج مهيريس.

- التجمع الثانوي لمعمرة 20 أوت يتزود انطلاقا من بئر بخارة.
- التجمع الثانوي لكحالشة كبار يتزود انطلاقا من محطة شعبة عين عبيد.
- التجمع الثانوي برج مهيريس يتزود انطلاقا من وادي برج مهيريس.

تقوم حاليا المصلحة التقنية للبلدية بتسيير هذه الشبكة في انتظار تسليمها إلى الشركة المختلطة(الفرنسية،الجزائرية) لتسيير المياه (S.O.M.A.C.O).

يستغل البدو الرحل أيضا هذه شبكة للتزود بالمياه في أوقات الضرورة عندما تنضب الينابيع والآبار المنتشرة عبر تراب البلدية فهم كثيرا ما يلجئون إلى تخريب القنوات بالحفر حتى يجعلوا

الماء يتدفق خارجها مكونين بذلك أحواضا ليشربوا وتشرب أغنامهم وقد يسبب ذلك و في العديد من المرات حرمان السكان من الماء الشروب وحتى وان تم ردعهم من طرف السلطات المحلية فإنهم يعمدون إلى تخريب القنوات من جهات مختلفة. أما في سائر الأحوال فهم لا ينأون بعيدا عن مصادر المياه من وديان وينابيع (أنظر الخريطة رقم:02).

1-3 الوضعية العقارية:

عرفت الوضعية العقارية لمنطقة عين عبيد وعلى غرار باقي أرجاء الوطن تحولات عديدة وعميقة كانت أهم بداياتها مع دخول المحتل الفرنسي الذي بحيازته للأرض عسكريا عمل كل ما بوسعه على تملكها قانونيا، "لقد كانت الجزائر من بين الدول النادرة التي كانت أراضيها محل سلب ونهب مفضوحين، فتاريخها منذ سنة 1830م مملوء بترسانة من النصوص المختلفة: قوانين، انتزاع للملكية، محتشدات، إصلاحات، إدخال تغييرات في البني التقليدية، تصويبات، إعادة مراجعة وصياغة للقوانين،...وغيرها وكل هذه الإجراءات كانت تنجر عنها في كل مرة تهديم وإعادة بناء للهياكل العقارية ومكونات فضاءاتها، لقد كانت الأرض هي الدعامة الأساسية التي سمحت للاستعمار بتحقيق طموحاته التسلطية المهيمنة حيث لم تكن تنمية البلاد ممكنة إلا من منظور فلاحي محض لم يتح إلا للمعمرين الأوروبيين وبعض ممن حالفهم الحظ من السكان الأصليين،[1] "بهذه الطريقة وضع كل شيء على المحك للتخلص من الطابع المشاع للأرض في الجزائر الذي لا يقبل التقسيم والتجزئة لصالح نظام جديد للملكية أساسه الفردية و الخصخصة فكان أول قانون يدعو إلى رسم الحدود بين القطع الأرضية ينص صراحة على "تحديد ووضع الحدود بين أراضي أفراد الدوار"، بدأ العمل بهذا القانون المعروف ب:Sénatus-consulte سنة 1863م، اتبعه بعد ذلك قانون Warnier الصادر سنة 1873م الذي يعطي صفة "الفرنسية" على الأراضي المحتلة وينص على ضرورة تطبيق القانون المدني الفرنسي عليها مما يستلزم دخول المسلمين الجزائريين تحت طائلته فيما يخص تعاملاتهم العقارية، أما القانون المسمىPetit Sénatus-consulte فقد خصص لضرب وتفكيك وحدة الأرض(خاصية عدم التقسيم فيها) وهذا بوضع منظور وقوانين جديدة للعائلة الجزائرية وإعتبارها وحدة منفصلة قائمة بذاتها، وأعطى قانون 16 أفريل 1897م أكثر حرية لمالكي قطع الأرض بالمبادرة الشخصية في المطالبة بسند الملكية حيث تكون التكاليف على الطالب، بالنسبة لقانون 4 أوت 1926م المتعلق أيضا بالملكية العقارية في الجزائر ووفقا لتحقيقات ميدانية شاملة تكفلت الإدارة الفرنسية بها حول الدواوير أو

[1] Yamina Arfa-Cherfi, Op. Cit., p.17.

أجزاء من هذه الدوارير حتى يتسنى لها إصدار سندات ملكية للملاك غير المقيدين وكان من المفروض أن يستكمل هذا القانون تحديد وترسيم كل الأراضي الفلاحية لكن العميلة في نهاية الأمر استغرقت أكثر من قرن، ففي بلدية عين عبيد مثلا لم يتحصل بعض الملاك على تصديق ممتلكاتهم إلا سنة 1956م، ويجب الإشارة هنا إلى أن معظم الملكيات المصادق عليها لم تكن ملكيات خاصة بل كانت ملكيات جماعية، ففي حالة بلدية عين عبيد دائما لم تكن سوى نسبة 3.7 % من مجموع الملاك لهم مستثمرات يمتلكونها بشكل فردي وهذا على إمتداد قرن كامل من الإحتلال" [(1)].

"بعد الإستقلال عرف العقار الفلاحي في الجزائر إستقرارا نسبيا ما فتئ أن اهتز من جديد بتطبيق الثورة الزراعية سنة 1973م والتي أعادت من خلالها الدولة هيكلت الأراضي المؤممة منشئة على أنقاضها المزارع الفلاحية الاشتراكية (DAS) وفي سنة 1980 - 1981م نشهد من جديد إعادة هيكلة هذه الممتلكات في محاولة لتصحيح النقص في الفاعلية وصعوبة التسيير تلك المستثمرات نظرا لشساعتها الأمر الذي أدى إلى ظهور التعاونيات الفلاحية الاشتراكية الأقل مساحة، ثم جاء عقب ذلك قانون 1983م الذي حرر المبادلات العقارية بعدما كانت مجمدة منذ1971م من طرف الثورة الزراعية وسمح بالحصول على الأراضي غير الزراعية المملوكة للدولة مقابل الدينار الرمزي وهذا لتشجيع استصلاحها وإعادة تثمينها، نفس الشيء كان بالنسبة لأراضي الجنوب التي كان الشرط الوحيد لحيازتها هو إعادة إحيائها تطبيقا لمبدأ العمل هو الذي يصنع الملكية" [(2)] "الأرض لمن يخدمها".

"المرحلة الموالية كانت بإقرار قانون1987م الذي كان يهدف إلى إعادة تنظيم المزارع الفلاحية الاشتراكية إلى وحدات أقل حجما تمنح التسيير الذاتي من طرف العاملين فيها وهذا كخطوة أولى لتحريرها نهائيا وقد نتج عن ذلك المستثمرات الجماعية(EAC) والمستثمرات الفردية (EAI)" [(3)].

بدخول الجزائر عهد جديد من الإصلاحات السياسية والاقتصادية مع بداية التسعينيات تقرر إعادة الأراضي المؤممة إلى أصحابها وذلك وفق المقرر 25 - 90 من قانون التوجيه العقاري الصادر بتاريخ 18 نوفمبر 1990م وبذلك تكون السوق العقارية قد تحررت بشكل كامل بعد الجمود الذي أصابها طيلة ثلاث عقود من الزمن [(4)].

(1) Ibid., pp.48-50.
(2) Ibid., pp.51 -52.
(3) Ibid., p.52.
(4) Ibid., pp.52 -53.

أما اليوم فان العقار الفلاحي في بلدية عين عبيد مقسم كالتالي:

1 - تصنيف المستثمرات حسب نوع حيازتها:

الجدول رقم (6): توزيع المستثمرات حسب نوع حيازتها.

نـــوع المستثمـــرات	العـــدد	المساحـــة بالهكتـــار
جماعية	75	5417
فردية	180	2594
إمتياز (بمحيط ذيابة)	14	129
خواص	880	15148
المجمـــوع	**1149**	**23288**

المصدر: المكتب الإقليمي للفلاحة ببلدية عين عبيد.

2 - توزيع المستثمرات حسب مساحة القطع الأرضية:

الجدول رقم (7): عدد المستثمرات ببلديةعين عبيد حسب مساحتها.

القطــع الفلاحيــة بالهكتــار	العـــدد
0- 10	998
10- 20	313
20- 50	114
50 – 100	94
100 – 200	20
أكثر من 200	10
المجمـــوع	**1149**

المصدر: المكتب الإقليمي للفلاحة ببلدية عين عبيد.

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى أن أراضي المستثمرات الجماعية وأراضي المستثمرات الفردية وكذا أراضي الامتياز تبقى مجرد حيازة لا يحق لأصحابها تجزئتها أو بيعها ويمكننا ميدانيا أن نلاحظ تباينا واضحا فيما يخص استغلال الفلاحين لتلك الأراضي وسنرى ذلك بوضوح في الفصل القادم فيما يخص السلوكيات المختلفة التي يسلكها هؤلاء الفلاحين(كل حسب طبيعة ملكيته أو تملكه) تجاه البدو الرحل الذين يقصدونهم لاستئجار تلك الأراضي.

الخلاصة:

عرفت منطقة عين عبيد على غرار المناطق التلية في الجزائر إثر الإحتلال الفرنسي تحولات جذرية مست طبيعة تركيبتها السكانية والعقارية غيرت تماما من منطق العيش التقليدي الذي كان يسودها قبل ذلك العهد؛ فلقد عمل المحتل منذ الوهلة الأولى على إحتواء هذا المجتمع بتكسير أهم نظمه الإجتماعية وهذا بتجزيء وحدة القبيلة فيه و إعادة ترتيبها ضمن مجالات حيوية تتنافى ومنطق العيش القديم إذ تم وضع تقسيمات إدارية جديدة هي أشبه بالمحتشدات كان الغرض منها الحد من حركية السكان وتواصلهم تمهيدا للسيطرة عليهم وتخطيطا لإفتكاك الأراضي منهم، هذه الأراضي التي أستهدفت بمجموعة من القوانين قلبت مفهوم الملكية فيها رأسا على عقب في خطوات مدروسة و مضبوطة للإستحواذ عليها ومن ثمة الإستئثار بخيراتها، وبهذا الشكل تكون منطقة عين عبيد كباقي المناطق التلية الأخرى قد عزلت عن أهم إمتداداتها الطبيعية التي كانت توفر لها حركية إقتصادية يضمنها التنقل المستمر للبدو الرحل بين الشمال والجنوب، لكن وبعد الإستقلال مباشرة عادت ربوع المنطقة بكل ما توفره من إمتيازات جغرافية ومناخية لتنسج من جديد خيوط التواصل القديمة مع الصحراء في قالب آخر يطبعه الأثر الذي خلفه الإستعمار على الإنسان والأرض.

الفصل الثالث:

لمحة عن تاريخ البدو الرحل في الجزائر

تمهيد:

إن البحث في أوجه و أنماط الحياة السائدة اليوم يتطلب منا بشكل أساسي إسترجاع البعد التاريخي لإعادة تركيب المشهد السوسيولوجي للمجتمع قيد الدراسة أو كما يطلق عليه أنتوني غدنز "بناء المخيلة السوسيولوجية"[1] ، فلا ريب أن فهم الحاضر لا ينقطع بأي حال من الأحوال عن فهم الماضي، وهذا بالرغم أنهنا قد يبدوان في أغلب الأحيان وكأنه لا تواصل بينهما ، أذن فلمعرفة "كيف و لماذا أصبح مجتمعنا على ما هو عليه اليوم كان من الضروري العودة إلى الوراء للوقوف على التحولات العميقة التي عرفها هذا المجتمع"[2].

1- إشكالية كتابة تاريخ البدو الرحل في الجزائر:

لقد شكل تاريخ الجزائر بشكل عام و لوقت طويل جدلا لا يزال قائما إلى يومنا هذا، ففي كل مرحلة من مراحله تتضارب الآراء و تتعدد حول الحكم على تلك الأحقاب، هل كانت فترات سوداء من تاريخنا أم أنها كانت أهم مراحل نشوء هذه الأمة و تبلور شخصيتها؛ إننا اليوم عندما نبحث عن معالم الحياة التي سادت خلال فترة معينة في الجزائر نجد أنفسنا أمام تاريخ إنتقائي[3] ، و موضوع البدو الرحل بشكل خاص يخضع إلى هذا الإجحاف لأن الجزائر المتحررة من هيمنة الإستعمار تأبى إلا أن تكون معاصرة و لا يحبذ الجزائري- خاصة الموقف الرسمي منه بأن ننعت أننا من حضارة رعوية [4] وذلك حسبهم يدعم المواقف و الآراء الإستعمارية التي أدت إلى إحتلال هذه الأرض، الموصوفة من طرف الفرنسيين من قبل أنها أرض رعاة مهجورة [5].

إن جل ما كتب عن البدو الرحل من طرف المستعمرين يوعز لهم الجهل و التخلف فهم أمة لا صلة لهم بالحضارة ! فكان التاريخ بعد الإستقلال يهمشهم والدارسات السوسيولوجية والاقتصادية لا تكاد تذكرهم إلا أنهم بقايا أمة قد إندثرت.

---

(1) أنتوني غدنز، علم الإجماع، ترجمة و تقديم الدكتور فايز الصياغ ، بيروت، مؤسسة ترجمان، ، ط4، 2005 ، ص92.
(2) M'hamed Boukhobza, L'agro- pastoralisme traditionnel en Algérie, O.P.U, Alger, 1982, p. 09.
(3) Debach Ch et autres, Mutation culturelle et coopération au Maghreb, les motivations de la personnalité algérienne en ce temps de décolonisation, C.N.R.S, Paris, 1969, p.10.
(4) Ibid., p.09.
(5) M'hamed Boukhobza, Op. Cit., p.16.

2_ ملامح المجتمع الجزائري غداة الإحتلال الفرنسي :

يبدو أن المجتمع الجزائري لم تطرأ عليه تغيرات كبيرة منذ أن وصفه إبن خلدون في القرن 14م، فبغض النظر عن تغير نمط السلطة التي أصبحت في يد الأتـراك منذ 1518 م فإن الميكانيزمات التي كانت تسير المجتمع الجزائري بقيت على ما هي عليه منذ ذلك العهد و حتى مجيء الفرنسيين سنة 1830 م . هذه الوضعية التي يصفها "محمد بوخبرة" بالثبات النسبي يرجعها إلى أربعة أسباب أساسية هي:(1)

- أولا :

طبيعة نظام ملكية الأراضي السائد آنذاك، حيث كانت الأرض ملكا جماعيا (أرض عرش) لا يحق للأفراد التصرف فيها و استثمارها بشكل أحادي في إنتاج فلاحي مكثف و متنوع كان يمكن أن يغير من طبيعة سيرورة الإنتاج بالمنطقة و نمطه .

- ثانيا :

طبيعة السلطة في الجزائر ما قبل الإحتلال والتي كانت عبارة عن هيمنة قبيلة ما وإتساع عصبيتها.

- ثالثا :

صعوبة نمط الإنتاج الرعوي السائد في تحقيق فائض إنتاجي مهم و قار يسمح بتحريك الجانب الإقتصادي الذي لا يمكن أن ينتعش إلا بوجود فائض منتظم وكذا إنعدام نشاطات إقتصادية نوعية هامة أخرى تسمح بتوفير نوع من تقسيم العمل داخل المجتمع .

- رابعا :

الدور السلبي للنظام السياسي القائم آنذاك على تحصيل الجباية دون مقابل تنموي تجاه المجتمع كعدم توفير المدارس النظامية ، حفر الآبار ، توفير الصحة ، و وضع ممثلين للإدارة المركزية للقيام بالشؤون العامة.

ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا تعرف تحولات عميقة هزت النظام الإقطاعي بفضل الثورة البرجوازية التي جددت فيها بعض معالم العالم الأوربي الحديث كان المغرب العربي لا يزال يحافظ على بناه الإجتماعية والإقتصادية التقليدية(2)، لقد كانت الهوة التي وجدت ولفـترة طـويلة بـين السلطة

(1) M'hammed Boukhobza, Monde Rural : Contraintes et mutations, O.P.U, Alger, Novembre 92, p.16.
(2) Hassan Remaoun et Autres, L'Algérie, histoire, société et culture, Casbah, Alger, L'an 2000, p. 25.

والمجتمع تمنع من تحقيق أي تفاعل ممكن بين الجانب الإقتصادي والجانب الإجتماعي، يقول ماكس فيبر في هذا الصدد:"إن الإقتصادي هو الذي يتبع السياسي" [1].

لكن و بالرغم من هذا الإختلال وعدم الانسجام الحاصلين بين السلطة و المجتمع إلا أن الحياة المعيشية للأفراد كانت تعرف إستقرارا نسبيا إعترف به الفرنسيون أنفسهم ، "فالجزائريون كانوا أحسن حالا عما آلو إليه بعد الإحتلال الفرنسي"[2] ، و هذا يرجع أساسا إلى إعتمادهم على المعاش الذاتي وكذا التكافل و التعاون الكبيرين المعروفين داخل البني التقليدية للمجتمع الجزائري (القبيلة و الأسرة الممتدة)، فعلى سبيل القياس فقط نستطيع أن نلحظ ذلك الفرق بوضوح في الإحصائيات الفلاحية التي إستعرضها شارل روبار أجرون في كتابه: تاريخ الجزائر المعاصرة ، ففي سنة 1865 م مثلا كانت الجزائر تعد 8 ملايين رأس ماشية ومليون رأس من البقر سنة 1865 م ، أي ما يقابل 3 رؤوس ماشية لكل فرد مع رأسين من البقر لكل 5 أفراد؛ هذه النسبة أخذت في التراجع حتى أصبحت سنة 1900 م، رأس غنم و نصف فقط لكل جزائري و رأس واحد من البقر لكل 5 أفراد، و نفس الشيء نجده فيما يخص الزراعة، ففي سنة 1860 م كان منتوج القمح يمثل نسبة 80 % من جملة المحاصيل الزراعية لكنه تراجع إلى لكنه تراجع إلى نسبة 44 % سنة 1934 م و لنا على ضوء هذه المعطيات أن نتصور كيف كان حال الجزائريين قبل 1830 م و إلى ما آل إليه بعد 1934 م.

3 سكــان الجزائر :

لقد تضاربت الآراء حول تعداد سكان الجزائر غداة الإحتلال الفرنسي لكنها تكاد تجمع أن نسبة 5 % فقط منهم سكنوا الحواضر وعاشوا بمعزل عن بقية السكان وهم على الغالب القادمون من الأندلس من عرب ويهود، شكلوا بورجوازية صغيرة في موانئ المدن و احتكروا التجارة والحرف حتى أنهم كانوا يحسبون أنفسهم من غير جنس باقي السكان؛ و يرى ابن خلدون أن هؤلاء الحضر إنما هم بدو في أصلهم وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الدعة و الترف بعدما تحققت لهم أسباب ذلك من رغد العــــيش و مطاب المقــــام "فالبدو أصــل للمــــدن و الحضر و ســــــابق عليـــها لأن أول مطالب

(1) http://books.google.com le 23 décembre 2008.
(2) C.R Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, P.U.F, Paris, 1983, p.p. 56-57.

الإنسان الضروري، و لا ينتهي إلى الكمال و الترف إلا إذا كان الضروري حاصلا "[1]. "ثم إذا إتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش و حصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى و الرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، و تعاونوا في الزائد على الضرورة، و استكثروا من الأقوات و الملابس، و التأنق فيها و توسعة البيوت و اختطاط المدن و الأمصار للتحضر. ثم تزيد أحوال الرفه و الدعة فتجيء عوائد الترف البالغة بالغها في علاج القوت و إستجادة المطابخ و انتقاء الملابس الفاخرة وأنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، و معالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها، والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غايتها، فيتخذون القصور و المنازل، ويجرون فيها المياه و يعالون في صرحها، و يبالغون في تنجيدها، و يختلفون في إستجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون " [2].

"ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع و منهم من ينتحل التجارة، و تكون مكاسبهم أشهى وأرفه من أهل البدو" [3] . و هؤلاء "البلدية أو الحضرية " كانوا بدورهم ممقوتين من طرف قبائل الداخل سواء كانوا فلاحين أو بدو رحل [4]، فبالنسبة للفلاحين فإنهم كانوا يحتلون مساحات قليلة تكاد تنحصر في المناطق الجبلية الوعرة و يمارسون فلاحة جد محدودة، أما البدو الرحل فكانوا يمثلون أغلبية السكان بنسبة تصل إلى 65[5] % ، ينتشرون تقريبا في كل أنحاء البلاد وكانت لهم البسطة على جل أراضيها وهم في ذلك يمارسون الرعي و يعيشون حياة الحل و الترحال في بحث دائم و دائب عن الكلأ و الماء و لهم علاقاتهم الخاصة التي تنظم حياتهم الإجتماعية والسياسية وكذا الاقتصادية سواء فيما بينهم كقبائل متحالفة أحيانا أو متحاربة أحيانا أخرى و الشأن نفسه مع باقي السكان من حضر وفلاحين، هؤلاء الذين (أي الفلاحين) كان يضعهم ابن خلدون موضع الرحل في نعتهم بالبدو، "فمنهم من يستعمل الفلاحة من الغراسة و الزراعة ، و منهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم و البقر و المعز و النحل و الدود لنتاجها و استخلاص فضلاتها، و هؤلاء القائمون على الفلح و الحيوان تدعوهم الضرورة و لا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، ، بيروت، 2003، ص. 127.

(2) المرجع السابق، ص.125.

(3) المرجع السابق، ص.ص. 125-126.

(4) C.R Ageron, Op. Cit., p. 05.

(5) M'hamed Boukhobza , L'agro- pastoralisme traditionnel en Algérie, Op. Cit., p.12.

الحواضر من المزارع والفدن و المسارح للحيوان و غير ذلك، فكان إختصاص هؤلاء بالبدو أمرا ضروريا لهم، و كان حينئذ إجتماعهم و تعاونهم في حاجتهم و معاشهم وعمرانهم من القوت والكن و الدفاءة إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة. و تحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك " [1]، وهم كذلك " المقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس و المساكن و سائر الأحوال و العوائد و مقتصرون عما فوق ذلك من حاجي و كمالي يتخذون البيوت من الشعر و الوبر و الشجر أو من طين و الحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه. و قد يأوون إلى الغيران و الكهوف. و أما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار. فمن كان معاشه منهم في الزراعة و القيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن، و هؤلاء سكان المدر و القرى و الجبال، و هم عامة البربر و الأعاجم. و من كان معاشه في السائمة مثل الغنم و البقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح و المياه لحيوانتهم، فالتقلب في الأرض أصلح بهم."[2]

هؤلاء الذين كانوا على زمن ابن خلدون لا يعنى بهم البدو الرحل فحسب بل كانت تتسع دلالتها أيضا لتشمل أولائك القائمين على فلاحة الأرض[3] وأما الرحل فقد خصهم بالقول : "" إعلم أن العرب منهم الأمة الراحلة الناجعة ، أهل الخيام لسكانهم ، و الخيل لركوبهم ، و الأنعام لكسبهم ، يقومون عليها ، ويقتاتون من ألبانها و يتخذون الدفء و الأثاث من أوبارها و أشعارها ، و يحملون أثقالهم على ظهورها ، يتنازلون حللا متفرقة ، و يبتغون الرزق في غالب أحواله من القنص وتخطف الناس من السبل ، ويتقبلون دائما في المجالات فرارا من حرارة القيظ تارة و صبارة البرد أخرى ، و انتجاعا لمراعى غنمهم ، وإرتيادا لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم و حمل أثقالهم و دفئهم و منافعهم " و " هذه كلها شعائرهم وسماتهم ، و أغلبها عليهم إتخاذ الإبل ، و القيام على نتاجها ، وطلب الانتجاع بها لارتياد مراعيها و مفاحص توليدها ، بما كان معاشهم منها" و يسترسل ابن خلدون في وصفهم أيضا بالمتوحشين الذيـــــن لا تربطـــــــــهم بالحضارة صلة فيقول : " هــــــــــؤلاء المتوحشـــون

(1) عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص.125.
(2) المرجع السابق، ص.126.

(3) M'hamed Boukhobza, Op. Cit., p.18.

ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد يجنحون إليه" و " العرب أبعد الناس عن الصنائع لأنهم أعرقهم في البدو، وأبعد عن العمران الحضري" [1].

4 التنظيمين الإجتماعي والإقتصادي(الأرض القطيع):

وباعتبار أن هذه الحياة كانت تستوجب التنقل المستمر فإن التنظيم المكاني و الزماني لعاملي الإنتاج الاقتصادي (الأرض القطيع) و طبيعة البنية الاجتماعية كانتا تعرفان تداخلا و تشعبا في غاية التعقيد.

- **أولا: التنظيم الإجتماعي :**

عرف المجتمع الجزائري قبل الإحلال الفرنسي أنه مجتمع قبلي فلقد كان الناس يعيشون في قبائل متعددة لكل منها كيانها الاقتصادي، السياسي و الثقافي المستقل و يجتمع الناس في هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي أولا للضرورة في الإجتماع البشري على التعاون في تحصيل العيش و هذا على إختلافهم في طلبه و كل ميسر لما خلق له، يقول ابن خلدون في هذا الصدد : "إعلم أن إختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو إختلاف نحلتهم من المعاش فإن إجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله و الإبتداء بما هو ضروري منه"[2] ثم تأتي بعد ذلك الحاجة إلى دفاعهم الخطر بعضهم عن بعض و هذا بما جبل عليه الإنسان في طبعه للذود و نجدة أهل رحمه و أقربائه من نعرة و عصبية فيكمل إبن خلدون في هذا السياق قائلا : " لا يصدق دفاعهم و ذيادهم إلا إذا كانوا عصبية و أهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتد شوكتهم و يخشى جانبهم ، إذ نعرة كل أحد على نسبه و عصبيته أهم ، و ما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة و النعرة على ذوي أرحامهم و أقربائهم موجودة في الطبائع البشرية و بها يكون التعاضد و التناصر ، و تعظم رهبة العدو لهم "[3]، والناس في القبيلة كثيرا ما يعتقدون أنهم ينحدرون من نسب واحد قد يرجع في الغالب إلى أحد أجدادهم فيسمون باسمه (كأولاد سيدي نايل أو بني فوغال)* و تعلو هذا الإسم بعد ذلك هالة من القداسة

(1) صلاح مصطفى الفوال، علم الاجتماع البدوي، ج1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص.293.
(2) عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص.125.
(3) المرجع السابق، ص.132.
* تعرف عموما القبائل التي تبدأ تسميتها ب:أولاد، أنها قبائل ذات أصول عربية بينما تلك التي تبدأ ب: بني، يغلب الظن أنها بربرية، محاضرة للأستاذ محمد غالم،CRASC، ماي 2007.

ويحيطه الشرف إلى حد أسطوري[1] فتجتمع عليه مناقب الحرب و مكارم البدو (السيرة الهلالية مثلا) و يتعاظم شأن القبيلة و تزداد قوتها حتى ينتسب إليها آخرون بالذوبان فيها أو التحالف معها من غير قرابة دم [2]، فهي ليست وحدة منغلقة على نفسها كما أنها قد تكبر وقد تصغر وفقا للمقومات الاقتصادية و السياسية التي تحيط بهـا [3].

عموما يمكن القول أن القبيلة تتكون من عشائر (clans) و كل عشيرة تتكون من اتحاد عدد من الأسر البدوية ، و قد تضم الأفخاذ و البطون التي تشترك جميعها في نسب أو عصابة واحدة، و بدرجة تمنهم من أن يرجعوا بأصولهم إلى جد واحد مشترك كما توجد بينهم منظومة من الحقوق والواجبات، فضلا عن تشابك المصالح الاجتماعية و الإقتصادية و الثقافية و الدينية ...الخ؛ التي توحد بينهم و تجعلهم يسكنون متجاورين حتى تسهل عليهم من جهة أمور المدافعة ضد أي عدوان خارجي و تمكنهم من جهة أخرى من تنظيم مختلف نشاطاتهم وممارساتهم الاقتصادية والاجتماعية وفق تقاليد و أعراف مرعية، و من خلال رئاسة دنيوية و دينية تتسم بأنها أبوية و وراثية في معظم الأحوال[4] عرفت في الجزائر بالمشيخة نسبة الى شيخ القبيلة الذي كان يعمل و يسهر مع الأعيان على إدارة شؤون قومه داخليا و تمثيلهم في شتى المناسبات خارجيا، وقد أدرك الاستعمار دور هذا المنصب الحساس في الحفاظ على تماسك الكيان السوسيو سياسي للقبيلة فقام المحتل باستبداله بنظام جديد يسمى نظام القياد جمع القايد وهو شخص لا ينتمي للقبيلة لكنه من الأهالي و يعطى صلاحيات واسعة لممارسة السلطة الكاملة عليها من إقرار للأمن ، تحصيل الضرائب و حل النزاعات، وكانت فرصة الحصول على هذا المنصب متاحة أكثر أمام الأغنياء الذين يبدون رغبة واضحة في موالاة الأسياد الجدد و بهذا الشكل تكون أهم الأسس التقليدية لإعادة إنتاج السلطة داخل القبيلة قد إنهارت.

- ثانيا: التنظيم الإقتصادي أو العوامل المادية للإنتاج الرعوي (الأرض القطيع):

إذا كانت ممارسة الزراعة تعرف حدودا معروفة وواضحة المعالم في تقسيم الأرض فإن النشاط الرعوي لا يعرف نفس التنظيم والتقسيم؛ إن الأراضي الرعوية غير ثابتة وهي بالإضافة إلى تعلقها

[1] M'hamed Boukhobza, Op. Cit., p.69.
[2] Ibid., p.68.
[3] Ibid., p.70.

[4] صلاح مصطفى الفوال، مرجع سابق، ص.148.

بعامل المناخ تتعلق أيضا بطبيعة مالكها فهي قد تزيد أو تنقص وفقا لسيطرة هذا المالك و نفوذه وكذا طبيعة علاقته مع الآخرين (القبائل الأخرى أو السلطة)،[1] فالقبائل القوية كانت تفرض على القبائل الضعيفة حقوقا تدفعها مقابل مرورها أو إستغلالها لأراضي الرعي التي تسيطر عليها ويمكن أيضا أن تدفع مغارم مقابل حمايتها من أطراف أخرى وقد تطلب قبيلة ضعيفة حماية قبيلة قوية من هيمنة وسطو القبائل المخزنية وهذه الحماية قد تمتد لتشمل الحضر في مدنهم و كذا سكان أهل القصور لذلك كانت كثيرا ما تنشب النزاعات حول إعادة ترتيب الأمور للسيطرة على هذه الأراضي بين القبائل عموما والقبائل المخزنية من جهة أخرى فالقبيلة الضعيفة قد يعظم شأنها ويكثر نسلها فتستقوى و ترفض إعطاء ما عليها من مغارم و إتاوات فهذا الشيخ عمارة قائد قبيلة أهل كسال عندما قرر عدم دفع حقوق المرور لشيوخ لحرار و على غير العادة قصدهم على حصانه و لما نزل عندهم سلم وقال: " هذه المرة قررت أن أستشير حصاني هذا في الأمر"[2]، فعلم القوم أن الرجل يتحداهم بما لمس من قوة في قومه وتعاظم شأنهم فتنازلوا له بذلك عما كان عليهم من حقوق حتى أنه أهل كسال بعد ذلك صاروا أسياد هذه المراعي بلا منازع . أما القطيع فيحدد نوعه و كمه ، طبيعة الترحال الذي تمارسه هذه القبائل و قد سبق لإبن خلدون أن صنف البدو الرحل حسب نوع القطيع الذي يملكونه فذكر الشاوية[3] أي القائمون على الشاء و البقر و هم لا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة، أما الأبالة فهم رعاة الإبل و هم ال:" أكثر ظعنا و أبعد في القفر مجالا ، لأن مسارح التلول و نباتها و شجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالفقر وورود مياهه الملحة " [4] هذا التقسيم الذي أورده إبن خلدون نراه ناقصا و غاية في التعميم وهو يقتصر في تخصيصه لرعاة الشاة و البقر في منطقة المغرب على البربر، كما أنه أهمل ما يمكن أن يكون من تداخل بين القيام برعي الغنم و الإبل على السواء أو الفصل التام بين رعي الغنم و رعي البقر و هنا نجد محمد بوخبزة أكثر دقة ووضوحا في تحديد أنواع الترحال و ما يقوم عليه من نشاط في رعي معين إذ يرى أنها ترتبط بالدرجة الأولى بالمناخ(الرطوبة) كما أن مدى حركتها يخضع لنفس الشرط لذلك نجدها (أي هذه الحركية) ترتبط أيضا بتغيرات الرطوبة وخصائصها في كل فصل.

---

[1] Nadir Marouf, Terroirs et villages Algériens, O.P.U, Alger, Avril 1984, p.27.
[2] M'hamed Boukhobza, Op. Cit., p.71.

[3] عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص.126.
[4] المرجع السابق، نفس الصفحة.

- **أ- الترحال الرطب (Le nomadisme humide) :**

يقتصر هذا النوع من الترحال على مناطق الشمال "التل خصوصا" حيث تصل نسبة تساقط الأمطار إلى 400 ملم، وهو يقوم أساسا على رعي البقر ثم الغنم بدرجة أقل، ولايضطر الرحل في هذه المناطق للتنقل إلى مسافات كبيرة لتوفر الكلأ والمراعي القريبة منهم (لا يتعدى تنقلهم بين 15 و30 كم) فلذلك نجد مثلا بدو الشعانبة يتهكمون (1)من بدو أولاد يعقوب و لارباع، ويصفونهم بأنهم رعاة بقر لا يتركون الجبال؛ و يزداد الترحال الرطب كلما زادت الرطوبة بإتجاه الشمال وينقص كلما إتجهنا جنوبا حتى أن البقر يكاد ينعدم بالصحراء والجدول التالي يوضح ذلك :

الجدول رقم(08):عدد رؤوس البقر لكل 100ساكن بدلالة درجة الرطوبة.

عدد رؤوس البقر بالنسبة لكل 100 ساكن	8,4	14,3	56,4
المناطق حسب الرطوبة	200/ 300 مم	400/350 مم	أكثر من 400 مم

Source: M’hamed Boukhobza, L'agro- pastoralisme traditionnel en Algérie, O.P.U, Alger, 1982, p.36.

وبالإضافة إلى تنقلات هؤلاء الرحل الجد محدودة فهم كذالك يشتغلون بالفلاحة على نطاق ضيق (زراعة القمح و الشعير) وهذا على القدر الذي يغطي حاجياتهم وحسب(2) .

- **ب- الترحال الجاف (Le nomadisme sec):**

يكون التنقل في هذا النوع من الترحال أكبر مسافة و هو يقوم أساسا على رعي قطعان الغنم ويكاد ينحصر عموما على الجهة الجافة من مناطق الهضاب العليا حيث تتوفر نبتتا الشيح و الحلفاء اللتان هما غذاء للغنم بامتياز ويشكل الرعي في مثل هذه المناطق النصف قاحلة إحدى الاستراتجيات المهمة التي يستعملها الرحل لتثمين إستغلال الأرض التي لا تصلح لممارسة الزراعة بشكل واسع بسبب قلة تساقط الأمطار حيث لا تفوق نسبته 200 ملم سنويا وسنرى من خلال هذه

(1) Cauneille. A, Les chaânba (leur nomadisme), Evolution de la tribu durant l’administration française, Edition CNRS, Paris, p.97.
(2) M'hamed Boukhobza, Op. Cit., p.35.

الدراسة أن الترحال الجاف يحاول أن يحافظ اليوم على حركيته المعهودة والتقليدية من وإلى الشمال.

- **ج الترحال القاحــل (Le nomadisme aride) :**

الترحال القاحل أبعد مسافة من سابقيه و هو يقوم أساسا على رعي الإبل القادرة على التوغل في الصحراء و إحتمال قساوة مناخها " فالإبل أصعب الحيوان فصالا و مخاضا و أحوجها في ذلك إلى الدفاءة فاضطروا (الأبالة) إلى إبعاد النجعة "[(1)] ، وقد تهيم الإبل أياما عديدة في الصحراء من غير راع ثم تعود إلى مضاربها عند بئر قد ألفت وروده و يطلق عليها في هذه الحالة الإبل الهميلة " الهاملة "[*] و هذه الطريقة كثيرا ما يستعملها الرحل لرعي الإبل عندما يأنسون إبتعاد مخاطر السطو عنها فيتركونها "تهمل" لترجع بحسها و فطرتها الى حيث اعتادت شرب الماء ، و تنتشر الابل في الجزائر أيضا بنفس منطق نقاوة الرطوبة إذ نجدها تنقص كلما إتجهنا شمالا و الجدول التالي يوضح ذلك :

الجدول رقم(09):عدد رؤوس الجمال لكل 100 ساكن بدلالة درجة الرطوبة.

عدد رؤوس الجمال بالنسبة لكل 100 ساكن	28.6	4,6	1,5
المناطق حسب الرطوبة	200/ 300 مم	400/350 مم	أكثر من 400 مم

Source : M'hamed Boukhobza, L'agro- pastoralisme traditionnel en Algérie, O.P.U, Alger, 1982, p.36.

هذا التقسيم لا يعني بالضرورة الفصل الحيوي بين هذه الأنواع من الترحال بل كانت تتداخل أيضا في حركيتها كونها كانت عملية منظمة بين المناطق المختلفة للوطن (تل – هضاب ، تل صحراء – هضـــــاب – صحـــــــــراء و العكس)[(2)] و كلمة منظـمة لا تعني الإنتظـــام المطلق الــــــــذي لا

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص.126.

* ينتشر لقب الهامل بشكل ملحوظ بين البدو الرحل، ويدل هذا اللقب على أن أباء وأجداد هؤلاء كانوا رعاة للإبل.

(2) M'hamed Boukhobza , Op. Cit., p.43.

يعتريه عارض بل كان لعاملي المناخ و العلاقات السائدة بين البدو الرحل آنذاك دورها في تحديد هذه العملية أيضا [1].

5 حركة البدو الرحل في الجزائر:

على العموم عرف الترحال في الجزائر حركتين كبيرتين هما:

5 1 العشـــابة :

يتجه الرحل صيفا من الجنوب إلى الشمال هربا من حر الصحراء و قساوتها طالبين العشب لقطعانهم، و قد يتوقفون بمناطق الهضاب إذا توفر لهم فيها الكلأ والماء أما في حالة ندرتها فيتوغلون أكثر إلى التل حيث المراعي المبسوطة والجو الملائم لأغنامهم؛ يستطرد جول كانبن قائلا في هذا الصدد : " إن الأغنام في الجزائر تعيش على ما تجده في الحقول و هي ترتاد الكلأ في مواضعه، تمضي الشتاء في الجنوب وفي أوقات الحر الشديد تقترب من التل أو تدخل إليه ، مشيها ليس ثابتا، فهو مرتبط بالكلأ المتوفر في المناطق التي قد تكون بعيدة جدا ، و الانتجاع بالرغم أن له بعض الأضرار إلا أنه يجنبها الأمطار و الأوحال و رطوبة التل في الشتاء كما يجنبها الحرارة المرتفعة في الصحراء أثناء الصيف وهذه الهجرة المستمرة هي رياضة تحافظ على صحة المواشي و تعطيها القدرة على مقاومة التأثيرات المناخية المضطربة " [2] .

ويستغلون في نفس الوقت تواجدهم بالتل للقيام بنشاطات أخرى كالتجارة و العمل في الحقول فيستبدلون متوجاتهم كالصوف ، التمر و حتى الملح مقابل القمح و الشعير (مكيال تمر مقابل ثلاثة من القمح و ستة من الشعير) كما يشاركون في عمليتي الحصاد و جمع المحاصيل.

5 2 العـزابـــة :

مع إقتراب الشتاء في (بدايات سبتمبر) يستجمع الرحل أنفاسهم من جديد في حركة كبرى أخرى تسمى العزيب أو الحدرة باتجاه الجنوب و الغاية من النزول إلى الجنوب أساسا ليست على القدر الذي يعـــرفه الصـــعود إلى الشمـــال في البحث عن الكلأ لأن الجـــنوب عـــمـــومـــــــا يـعـــرف بـنـدرة

---

[1] Ibid., p.42.
[2] Jules Cambon, Le pays du mouton, Des conditions d’existence des troupeaux sur les hauts-plateaux et dans le Sud de l’Algérie, Giralt, Alger, 1893, p.07.

الأمطار و إنما الغاية الأساسية هي تجنيب القطيع التأثيرات المناخية و الأمراض المعدية كالجدري و الرية* "فأولاد يعقوب زرارة مثلا يلتحقون بالصحراء حوالي 15 أكتوبر دافعين بقطعانهم الى ما وراء سهول " لبعايج " الممطرة، مبتعدين عن قساوة الطبيعة هناك و التي تؤدي في حالة عدم تجنب الجو البارد بها في أغلب الأحيان إلى هلاك القطيع" [1] ، فالعزيب إذن هي تقنية رعوية ترمي إلى حماية القطيع من جهة ومن جهة أخرى تسمح للرحل بممارسات أخرى كإعادة إستبدال ما حملون من الشمال من سلع : "قمح ، شعير ، المشمش المجفف ، الشاي ، القهوة ، سكر ، قماش ....إلخ مقابل سلع الصحراء ، التمر ، والملح، كمقايضة تصل فوائدها إلى 50 %، فهم مثلا يعيدون استبدال القمح، مكيالين بمكيال من التمر"[2] ، وكانت الوسيلة في نقلهم لهذه البضائع طبعا هي الجمال لذلك كانت كثيرا ما ترى مع الرحل في الشمال تحمل أمتعتهم و سلعهم لا تفارق الخيام و قطعان الغنم، كما تصادف أيضا حركة العزيب موسم جني التمور في الواحات فيشاركون فيها.

6 الاحتلال الفرنسي و استهدافه للبدو الرحل:

لم يكتف الفرنسيون لإحكام سيطرتهم على هذه الأرض بتوظيف آلتهم العسكرية الضخمة فحسب بل استعملوا في ذلك أيضا خبراتهم المعرفية و أساليب ممنهجة[3] مكنتهم من إحداث تصدعات وتغيرات جذرية في المجتمع المسيطر عليه، لقد كان الاحتلال الفرنسي للجزائر تصادما بين حضارتين و لقاءا بين مجتمعين مختلفين كل الاختلاف و هذا في في كل أوجه الحياة[4] لذلك كانت إعادة ترتيب الأمور من طرف المحتل وفقا للوضع الجديد تتطلب إدراكا واسعا لأهم هذه الفروقات الشكلية منها و الضمنية والعمل فورا على تطويع كل المعطيات الميدانية لتجسيد هذه الهيمنة على أرض الواقع، وبما أن البدو الرحل كانوا يشكلون تباينا واضحا مع نمط الحياة الغربية و وجها بارزا من أوجه الحضارة العربية فقد كانوا محور هذا الاهتمام و مصب تفكير عميق لاستغلال ثغراتهم والإستفادة بشكل أدق من عدم إستقرارهم و حركيتهم الدائمة و بالفعل فقد إفترض المحتلون الأوائل أن هذه الأراضي شاغرة و لا مالك لها، بما أن البدو الرحل يغادرونها مع حلول الشتاء،

* Les clavelées et la strongylose pulmonaire.
(1) Cauneille. A, Op. Cit., p.97.
(2) M'hamed Boukhobza , Op. Cit., p.49.
(3) Ibid., p.16.
(4) Pierre Bourdieu , Sociologie de l'Algérie, P.U.F, Paris, 1re édition. 1958, 3ème édition.1970, p.106.

يقول كسافيي ياكونو ناقلا لنا شهادته كفرنسي أقام أياما بمنطقة الأصنام سنة 1850 :" هؤلاء العرب الذين ينتشرون بخيمهم على مرتفعات السهول المحاذية للنهر (يقصد نهر الشلف) يسوقون إليها قطعانهم طوال ساعات النهار و بصراخهم وراء أغنامهم و بعجيج ماشيتهم و كذا نباح كلابهم يرسمون مشهدا في غاية التباين مع ذلك السكون الذي نجده من غير هذا الفصل (فصل الربيع)"[1] وهذا أيضا الرحالة الألماني هاينريش فون مالستان الذي مر بالجزائر سنة 1848 يقول في كتابه - ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا عن سهول متيجة: "ولمتيجة فتنتها الخاصة وهي في الواقع جرداء نسبيا خالية من الأشجار تقريبا لا تنبت فيها سوى الأدغال القصيرة و لا تحتوي إلا على قطع متناثرة، حولت إلى حقول للحنطة "[2] و كان ديمونتاز أحد المتحمسين للاستعمار آنذاك أكثر راديكالية عندما قال: "إن سهول الجزائر كانت مهجورة تماما"[3].

ففكرة الفراغ هذه إذن أستغلت أيما استغلال كسلاح فتاك أستعمل لنزع الأراضي من القبائل التلية خاصة لتحويلها إلى أراضي زراعية؛ أما فيما يخص البدو الرحل كأفراد و جماعات فقد حوصروا في كل مكان و ذهب الأمر بالفرنسيين إلى حد تصفيتهم جسديا إذا تطلب الأمر ذلك وطبعا لم تكن الحجج لتنقصهم فقد وجدوا في أطروحات ابن خلدون فيما ذكره بأن" العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب " في مقدمته ما يغنيهم لتبرير جرائمهم أخلاقيا و قانونيا للتخلص من هؤلاء البدو نهائيا[4] فهم كما قال عنهم في هذا الباب: " أمة وحشية بإستحكام عوائد التوحش و أسبابه فيهم فصار لهم خلقا و جبلة ، و كان عندهم ملذوذا لما فيه من خروج عن ربقة الحكم ، و عدم الإنقياد للسياسة و هذه الطبيعة منافية للعمران و مناقضة له . فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة و التغلب و ذلك مناقض للسكون الذي به العمران و مناف له. فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر، فينقلونه من المباني و يخربونها عليه ، و يعدونه لذلك . و الخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم و يتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران"[5] ، كما أنهم وجدوا أيضا في أفكاره و أحكامه إسترجاعا لمجد أجدادهم الرومان الذين عمروا هذه الأرض طيلة قرون بالبنيان والقصور

---

[1] M'hamed Boukhobza , Op. Cit., p.16.

[2] هاينريش فون مالتسان،ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص132.

[3] M'hamed Boukhobza , Op. Cit., p.16.

[4] Ibid., p.p.17-19.

[5] عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص.151.

و الطرقات فأتى عليها العرب بالخراب و الاندثار فيقول: "أنظر إلى ما ملكوه و تغلبوا عليه(أي العرب) من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه ، و أقفر ساكنه ، و بدلت الأرض فيه غير الأرض : فاليمن قرارهم خراب إلا قليلا من الإمطار ، و عراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع ، و الشام لهذا العهد كذلك و إفريقية و المغرب لما جاز إليها بنو هلال و بنو سليم منذ أول المائة الخامسة و تمرسوا بها لثلاثمائة و خمسين من السنين قد لحق بها و عادت بسائطه خرابا كلها، بعدما كان من السودان و البحر الرومي كله عمرانا ، تشهد بذلك أثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء و شواهد القرى و المدن"[1] كل هذه الأوصاف العامة في أحكامها استغلت أبشع استغلال كي يأخذ المحتل مكان الأسياد القدماء و تنتزع منهم أهم أراضيهم التلية و أجودها على الإطلاق [2] ،الأمر الذي أدى و بشكل مباشر إلى إندثار النوع الأول من حياة البداوة و الترحال الرطب و كذا إنحصار النوعين الآخرين (الترحال الجاف، و الترحال القاحل) داخل البلاد، في الهضاب العليا و الصحراء و بالتالي يكون هذا النمط من الحياة قد فقد أهم حلقة في سلسلة المنطق الذي كان قائما عليه في الجزائر ما قبل الإستعمار.

6 -1 زوال الترحال الرطب:

بعدما أجبر الرحل في الشمال على التوطن في التلال و سفوح الجبال التي لم يجد لها المستعمرون جدوى و قيمة فلاحيه[3] وهذا باستعمال أكثر الطرق راديكالية بأن حوصر الأهالي في تجمعات تسمى زمالة (قرية من الخيام) أحكم التضييق عليها و محاصرتها عسكريا .... " كي نستطيع أن ننزع من هؤلاء المزعجين كل الدعائم يجب علينا أن نجمع أفراد هذا الشعب المتشتتين و أن ننظم القبائل في زمالات (جمع زمالة)، إننا نعتقد أن فكرة حبس هؤلاء العرب على هذا الشكل ستحمل لهذا البلد الأمان؛ علينا أن نجمع هذا الشعب الذي نجده في كل مكان و لا نجده في نفس الوقت، المهم أن نجعل منه قابلا للسيطرة " [4]. هكذا أردف النقيب شارل ريشارد قائلا سنة 1846م؛ وبالفعل فبعد نصف قرن من ذاك، زالت تماما الخيم من مشهد التلال و السهول و غاب منظرها الجميل لتترك مكانها للمشاتي، للقرابة (جمع قربي) والأكواخ وقد ساهم في ذلك أيضا

---

[1] المرجع السابق، ص.152.

[2] M'hamed Boukhobza , Op. Cit., p.97 .
[3] Ibid., p.21.
[4] Ibid., p.107.

وبشكل فعال تطبيق ترسانة من القوانين العقارية المعروفة بـ: (Senatus Consult) لسنة 1863 و المتممة بقوانين Warnier 1873 و قوانين 1887، 1897 و التي أدى تطبيقها إلى الإسراع في تفجير الاقتصاد التقليدي الذي كان يقوم عليه الإنتاج الرعوي في الجزائر و كذا البنى الإجتماعية التي كانت مقوماتها تعتمد عليه.

6 2 زوال العشابة و الترحال الجاف :

بزوال الترحال الرطب بشكل مفاجئ و عنيف سنة 1900م [1] أصبحت حركة العشابة نحو الشمال غير ممكنة تدريجيا حتى تم إلغاؤها تماما من طرف المستعمر سنة 1920م على إثر مجاعة حلت بالبلاد [2] و بالتالي كان على الترحال الجاف أن يتعرض بدوره و بشكل بطيء نسبيا عن سابقه إلى عوامل انحلاله و زواله، لقد حوصر هذا النوع من الترحال بدوره مدفوعا إلى المناطق الأكثر فقرا من الهضاب العليا، فكان على الرحل أن يواجهوا هذه الصعوبات الجديدة و أن يحاولوا تخطي ندرة المياه و الكلأ في تلك المناطق الشحيحة من جهة و تأمين الجو المناسب لقطعانهم والطعام لعوائلهم من جهة أخرى فأضطرهم ذلك إلى تحويل حركتهم نحو الجنوب حيث لا يمكن لأغنامهم أن تطيل البقاء بعد النصف الثاني من أفريل و هذا بسبب إرتفاع درجة الحرارة وقلة المياه هناك، وهذه المدة من الوقت لا تسمح بإعادة بناء الغطاء النباتي على غرار ما كان ممكنا أثناء حصول حركة العشابة إلى التل، فأدت جملة هذه المستجدات إلى الاستغلال الفاحش لمراعي الهضاب كما أن الحاجة أيضا إلى الطعام أجبرت الرحل على ممارسة الزراعة مما جعل قرابة المليون من الأراضي الرعوية[3] تخضع لعمليات حرث مكثفة من أجل توفير القمح و الشعير اللذان كانا مصدرهما فيما مضى الشمال و مع انتهاء كذلك الدور التقليدي للبدو الرحل كوسطاء تجاريين بين التل و أهل القصور بدأت سلسلة التخلي عن الحياة القديمة و عن قطعان الماشية الموفورة إما بحثا عن عمل مأجور عند المستعمرين كخماسة أو الإكتفاء بعدد قليل من رؤوس الغنم و القبول بالحياة المزرية الجديدة التي فرضها عليهم الوضع الجديد وهذا أحد البدو يتأسف عن الأيام الخوالي

---

(1) Ibid, p.111.
(2) Ibid, p.113.
(3) http://horizon.documentation.ird.fr

فيقول" لقد أصبحت خيمنا الواسعة أكواخا يائسة و أصبحت قطعاننا التي تملأ الأفق قليلا من الرؤوس، فأين تذهب أيها الراحل و لماذا تبقى إذا لم ترتحل ؟ "[1].

هكذا صارت إذن حياة الرحل حياة يأس و فقدان للأمل و أصبح المستقبل أمامهم ليس إلا مجرد قفز نحو المجهول نحو عالم غامض تسوده قيم تختلف جذريا عن القيم التي عهدها و علاقات جديدة أيضا فرضها الواقع عليه جعلت حياته تنقلب رأسا على عقب فتعميم التعاملات النقدية و تفكيك وحدة الأراضي و إنتشار العمل المأجور وفقا لمفاهيم الرأسمالية المهيمنة مما جعل من النزعة الفردانية داخل المجتمع الجزائري تزيد شيئا فشيئا الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تحولات عميقة في البنى الاجتماعية و الاقتصادية التقليدية انتهت بتفجير البنية القبلية و تفكيك وحدة الأسرة الممتدة ، هذه التحولات أدت بدورها إلى ظهور نوع جديد من الترحال يعتمد على إستراتيجيات تخالف تماما تلك التي كانت تحرك مفاهيم وأسس الإنتاج الرعوي التقليدي عند البدو الرحل و يمكن أن نلخصها في النقاط التالية[2]:

1. ظهور الملكية الفردية عوض الملكية العائلية التي لا تقبل التقسيم والتجزئة.
2. بروز العلاقات الإجتماعية المبنية على إقتصاد السوق بدل العلاقات الإجتماعية المبنية على القرابة، الموالاة أو التبعية.
3. تغير العلاقات التي تربط الرحل مع السوق من موسمية إلى علاقات متكررة ومألوفة.
4. تغير منطق العلاقات الخارجية مع المحيط والتي كان يتحكم فيها شيخ القبيلة وأعيانها إلى منطق فرداني يتوقف على المرتحل في حد ذاته.

---

(1) M'hamed Boukhobza , Op. Cit, p.p21-22.
(2) Ibid., p.236.

7- البدو الرحل بعد الاستقلال:

لقد أدى الوضع العام الذي أوجده الاستعمار الفرنسي طيلة قرن و إثنان و ثلاثون سنة إلى تفقير شامل للبدو الرحل في الجزائر الشيء الذي إنتهى إلى تردي كامل في معيشتهم و إنقلاب أحوالهم رأسا على عقب نتاج توطينهم المستمر والبطيء و كذا إجبارية تخليهم عن حياتهم التقليدية شيئا فشيئا إلى تراجع نسبة ما تبقى منهم غداة الاستقلال إلى 4 % فقط من السكان أي حوالي 600.000 نسمة[1] من البدو الرحل كان أغلبهم يتمركزون بوسط البلاد (الهضاب العليا السهبية) حيث كانت لا تزال ثلثي الثروة الحيوانية من الماشية تتمركز بتلك المناطق لكها منحصرة في يد قلة قليلة من الرحل المتوطنين الذين ساعفهم الحظ في ظل الظروف القاسية سالفة الذكر على الاحتفاظ بقطعانهم و تنميتها بما استطاعوا أن يظفروا به من أراضي و استعمالها للتوليف و التركيب بين الزراعة والرعي. و أما البقية الباقية من الرحل الذين وجدوا حريتهم من جديد فلم يكن أمامهم سوى العمل على إعادة بناء قطعانهم و مزاولة حياتهم أو ما تبقى منها على الأقل في ظروف الدولة الجديدة الناشئة و التي ورثت بدورها حملا ثقيلا بقايا مجتمع مهلهل يقول محمد بوخبزة في هذا الصدد: "كان من المهم جدا أن تعرف الدولة الجزائرية الناشئة بعد الإستقلال مباشرة أي مجتمع ستواجه ، مجتمع منظم، مبني، واع بمصالحه الكبرى أو بالعكس ستجد نفسها أمام غبار من الأفراد أو مجموعات من العائلات سيصعب تحديد أي سياسة تنتهجها تجاههم كي تأخذ على عاتقها مختلف التحديات في التعامل معهم و الحرص على مصالحهم ، و أيضا تسيير مختلف التناقضات التي تسودهم" .

لكن أول اهتمام بالمجتمع الرحل من طرف الدولة الجزائرية كان بشكل عرضي عندما حاولت هذه الأخيرة تطبيق الثورة الزراعية إبتداءا من سنة 1972م[2] حيث كانت إشكالية إدارة مجتمع غير ثابت ينتقل باستمرار تطرح نفسها بقوة و كانت البدائل المطروحة طبعا تتمثل أساسا في فكرة توطين هؤلاء البدو بطرق مباشرة و أخرى غير مباشرة [3]:

1- الإستمرار في تطبيق السياسة الإستعمارية القديمة التي تهمش كل خصائص و مميزات المجتمع البدوي القبلي و الاعتماد على تقسيمات إدارية (البلدية) تضم مجموعة من القبائل أو أجزاء

---

[1] http://horizon.documentation.ird.fr
[2] Ibid., p.15.
[3] Ibid., p.p.10 -14.

مختلفة من قبيلة واحدة (بطون) يكون التمثيل الوحيد لهم عن طريق الانتخاب الديمقراطي؛ فالبلدية تعوض القبيلة و رئيس البلدية يعوض القايد أو شيخ القبيلة و المجلس الشعبي البلدي يعوض "الجماعة" وكانت هذه الترتيبات ترمي أساسا إلى إذابة هذا المجتمع داخل الإطار العام لما يسمى المجتمع الوطني، فالبلدية لا تمثل بشكل مباشر القبيلة إذا كان أحد أفرادها منتخبا كرئيس لها أو عضو فيها.

و هذا ما يجعل القبيلة تخضع بشكل أفقي إلى إرهاصات و رغبات هؤلاء الممثلين الذين يسعون للفوز بإمتيازات سياسية إنتخابية الشيء الذي عزز أسباب الفرقة و التشتت.

2 إعادة تنظيم النشاط الرعوي ضمن ما يسمى الإصلاح الفلاحي (الثورة الزراعية) و هذا بإعادة تقسيم أراضي السهوب الرعوية و منحها لتعاونيات تضم مجموعة من الرحل يدمجون للعمل المأجور كأفراد و ليس كعائلات أو مجموعات قبلية و الهدف من ذلك هو إذابة تلك العلاقات لصالح مفاهيم جديدة تتماشى و التوجيهات الكبرى لمشروع الدولة و هو إيجاد علاقة جديدة بين الفرد والمؤسسات؛ لكن هذه التجربة عرفت فشلا ذريعا نتيجة لما لاقته من نفور من طرف هذه الجماعات و أيضا إيجاد صعوبات جمة من طرف الدولة في تحرير هذه الأراضي التي يستغلها الرحل بشكل تقليدي و التي لطالما اعتبروها مجالا طبيعيا لنشاطهم الرعوي تحمل صفة أراضي عرش؛ هذه الصفة التي نزعت في إطار هذا البرنامج لتتحول إلى صفة أخرى و هي الملك العام؛ هذا الفعل أدى فيما بعد إلى فوضى عارمة في إستغلال هذه الأراضي و هيمنة الموالين من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة على أغلبيتها، أما باقي الرحل فأصبح رعيهم و إستغلالهم لها مجرد شيء متغاضي عنه قانونيا لا أكثر و يستطرد محمد بوخبزة في هذا السياق مؤكدا (1):

"إن إعادة توزيع الإرث العقاري المشترك لأغراض الزراعة ولفائدة طبقة أوطائفة مهيمنة من مربي المواشي و بشكل إنتقائي عزز الفروقات الإقتصادية داخل هذا المجتمع و كان الأغنياء منهم يزدادون غنا يوما بعد يوم أما الفقراء فكانوا يحرمون شيئا فشيئا من استغلال تلك المراعي الغنية المشتركة".

"لقد أدى التدخل المستمر من طرف السياسيين و صناع القرار و كذا مسيري الموارد المحلية بما يحملونه من أفكار مسبقة و خاطئة عن أنماط العيش التقليدية إلى تطبيق سياسات تنموية كـانت فاشلة

(1) M'hamed Boukhobza , Op. Cit., p.224.

في مجملها الأمر الذي ترتب عنه ظهور سلسلة من النماذج و البدائل المقاومة جعلت تصور أي حلول لها يبدو أمرا مستحيلا ".

3 التخطيط لوضع حركة معاكسة لحركة العشابة التقليدية تسمى بالعشابة المعكوسة و التي ترمي إلى تزويد مناطق الهضاب العليا بالأعلاف و الشعير في مواجهة العجز الذي تعرفه المراعي في فصل الصيف أمام قطعان الماشية المتزايدة لكن هذه التجربة أيضا أفرزت أعراض جانبية خطيرة كان أهمها تعرض أراضي السهوب للتصحر جراء ممارسة الرعي المكثف بها و عدم تركها الوقت الكافي كي تستريح و تتمكن من تجديد غطائها النباتي.

ولا يفوتنا هنا أن نسجل من خلال ما التمسناه من مختلف المقابلات التي أجريناها مع المبحوثين من كبار السن الذين عايشوا تلك المرحلة أن حركة العشابة التقليدية نحو التل قد عادت بقوة بعد زوال الإستعمار مباشرة و مع تطبيق الثورة الزراعية و تأميم الأراضي خلال السبعينيات من القرن الماضي فان هذه الحركة تكون قد عرفت زمنا ذهبيا جديدا يذكر بذلك العهد التي كانت عليه قبل الاحتلال الفرنسي ، فالمراعي المتاحة بعد عملية الحصاد في الشمال كانت تستغل من طرف الرحل دون عناء أو إشكال يذكر باعتبار أن تلك الأراضي ملك عام (ملك الدولة) فلم يكن هناك من يستطيع منعهم من رعيها "انه زمن الاشتراكية" .

تشجيع البدو الرحل على تعليم أبنائهم و توفير الإمكانيات الواسعة من أجل ذلك كتوفير السكن و الإطعام المجاني داخل المؤسسات التعليمية و كان يهدف هذا الإدماج إلى حرمان البدو الرحل من عامل تجديد القوة العاملة الرعوية التي تتمثل في الأبناء والتي كانت تضمن إستمرارية حياة الترحال لكن لم تكن هناك إجراءات صارمة لتسجيل كل الأطفال للتمدرس في المؤسسات التعليمية القريبة.

بالإضافة إلى هذه العوامل كان إنتشار العمل المأجور لا يزال كذلك ينخر جسد الترحال التقليدي لصالح حياة الإستقرار و التوطين ، فالراحل كان دائما يأمل في حياة أفضل و في غد مشرق يرى فيه أبناءه المتعلمين يحتلون أرقى المناصب في هذا المجتمع على غرار آخرين أمثالهم من أبناء الرحل صاروا مهندسين و أطباء الشيء الذي ساعد عائلاتهم على التخلص من الترحال الشاق و وجدوا لأنفسهم داخل المدن* أفضل الاستقرار و أحسنه أو على الأقل يكون الراحل أيضا قد فاز

* لقد أدت الفرص المتاحة لإيجاد عمل قار عقب انتهاج سياسة التشغيل المعممة لصالح البلديات الفقيرة الداخلية سنة 1967 ضمن برامج التجهيز المحلي و البرامج الخاصة و كذا إمكانية التوظيف من طرف القطاع الخاص الفلاحي إلى نزوح كبير للرحل نحو المدن.

بعمل (عند الدولة) يمكنه عند بلوغه الكبر من التقاعد و الركون إلى الراحة بما يوفره من أجر التقاعد و لو كان زهيدا ضمانا لكفاف العيش و التأمين الاجتماعي.

7-1 تراجع آمال و طموحات البدو الرحل:

كان الإزدهار الحاصل في البلاد وفي شتى مجالات الحياة خلال السبعينيات من القرن الماضي (أو كما كان يبدو عليه على الأقل) يوحي بغد أفضل للجميع وكانت آمال البدو الرحل في إيجاد الاستقرار النسبي أو التخلي عن نمط العيش القديم مسالة وقت لا أكثر، لكن الرياح جرت عكس كل ذلك، فالبحبوحة المالية الناتجة عن مداخيل البترول الطائلة التي عرفتها البلاد ما بين سنتي 1973-1979 م[(1)]، لم تعمر طويلا و سرعان ما أدى التهاوي المفاجئ لسعر برميل البترول إلى تراجع حاد في مداخيل الصادرات ابتداء من سنة 1986م ، الوضع الذي كشف في نهاية المطاف عن هشاشة السياسات التنموية المتبعة من طرف الدولة و فشل الخيار الاشتراكي في قيادة المجتمع إلى التطور و الرفاه المنشودين* ، لقد كانت النتائج كارثية على الصعيدين الاقتصادي و الاجتماعي فأمام الانفجار الديمغرافي للسكان و إنتشار البطالة في أوساط الشباب، كانت ندرة المواد الإستهلاكية وتنامي السوق السوداء تدفع بالأمور إلى التأزم أكثر فأكثر و كان الإحتقان يزداد إلى أن إنفجرت أحداث الخامس من أكتوبر سنة 1988م بمظاهرات عارمة إستمرت طيلة أسبوع كامل أسفرت عن سقوط ما يقارب 500 قتيل و إعتقال الآلاف من الشباب ..و يتساءل مارك كوت هنا عن أسباب هذا التأرجح المفاجئ من وضعية إلى أخرى..."كيف يمكن لبلد كالجزائر أن تتدهور أحواله في ظرف قياسي كهذا ؟ ثم يسترسل في عرض فرضيته عن الإجابة قائلا: "بخروجها بعد قرن من الهيمنة الكولونيالية حاولت الجزائر أن تثأر من التاريخ وانطلقت في مشاريع طموحة للتنمية الاقتصادية حسنت من مستوى المعيشة بها، لكن هذه التنمية كانت مستوحاة من نماذج خارجية لم تكن بأي حال من الأحوال على صلة بالثقافة والمهارات المحلية الوطنية الشيء الذي أنتج مشاركة ضعيفة و محدودة من طرف الشعب لتفعيلها "[(2)].

---

(1) http://lewebpedagogique.com

* كان الرهان على تعزيز الصناعات الثقيلة و تهميش القطاع الفلاحي من أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الفشل الذريع.

(2) Marc Côte, L'Algérie, Media-Plus, Constantine, 2005, p.01.

وهكذا دفعت الإحتجاجات الإجتماعية الواسعة من طرف الشعب بالحكومة الجزائرية إلى إقرار تعديلات سياسية و إقتصادية فتحت المجال واسعا أمام التعددية الحزبية و تغيير جذري في الخيار الاقتصادي بالتوجه نحو إقتصاد السوق و في سنة 1991 م نظمت أول انتخابات تعددية منذ الإستقلال أفرزت عن فوز الإسلاميين الممثلين في الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالدور الأول و قد أدى توقيف المسار الانتخابي بعد ذلك إلى دخول البلاد في دوامة من العنف كانت تنعتها وسائل الإعلام الأجنبية بالحرب الأهليه بينما تصفها وسائل الإعلام الوطنية بالعشرية السوداء ، يقول مصطفى بوتفنوشت في هذا السياق :" إنه مما لا شك فيه أن المجتمع الجزائري الذي نعرفه اليوم لا يمت بصلة لمجتمع 1954م، إن التغيرات التي تعقبته تدريجيا خلال تلك المراحل المتعددة ساقته إلى أن يعرف مضمونا جديدا يختلف كل الإختلاف عما كان عليه، لقد تحمل هذا المجتمع و كابد خلال الفترة الممتدة بين 1954- 1998 م تحولات عميقة في بنيته، شكله و وظائفه " [(1)] .

ونكاد اليوم نجهل تماما تلك التغيرات و التحولات التي عرفها مجتمع البدو الرحل بشكل خاص داخل كل هذا التفاعل و المخاض الحاصلين طيلة الفترة الممتدة بين سنة 1986 و 2009 م أي كيف تعامل الرحل مع سنوات الأزمة التي مرت بها البلاد خلال الثمانينيات ؟ ما هي الإرهاصات التي واجهت حياة الترحال بعد الإنفتاح إقرارا للرأسمالية كبديل للنظام الاشتراكي ؟ بأي شكل أثرت العشرية السوداء* على هذا النمط من الحياة ؟ ، أما ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد بشكل كلي وعام هو أنه أمام هذه الديناميكية التي أعادت هيكلة البنى القاعدية للمجتمع الجزائري و حسب مصطفى بوتفشونت دائما فإننا نستطيع أن نؤكد ما يلي [(2)] :

1- إن البنية الاجتماعية التاريخية للمجتمع الجزائري أبقت في مجملها على جوهرها وأسسها بينما تكيفت تبعا لحركية أكيدة مع مختلف ظروف الحياة المستجدة.

2- إن إعادة الهيكلة الاجتماعية لم تمس البنية الاجتماعية في حد ذاتها لكنها مست بشكل أساسي المجال الطبيعي الذي توجد فيه هذه البنية.

3- الصياغة الاجتماعية الجديدة تمت عبر إنتقال المجموعات الاجتماعية من طبقة إجتماعية إلى أخرى و بطريقة غير مباشرة من خلال حراك إجتماعي في غاية الأهمية.

---

(1) Moustafa Boutefnouchet, La société Algérienne en transition, O.P.U, Alger, 2004, p.55.

* ولأنها كانت أيضا الفترة الأكثر دموية منذ الإستقلال فتحبذ بعض وسائل الإعتام تسميتها : العشرية الحمراء.

(2) Ibid.

إن جل الدراسات التي تتناول مجتمع البدو الرحل من مذكرات ليسانس أو رسائل ماجستير تكاد تنحوا منحا واحدا ألا و هو التركيز على موضوع التوطين لدى هذه الفئة و إعتبارها نمطا متخلفا للحياة يجب التخلص منه هذا بالإفتراض الدائم أن مسار التوطين يتخذ إتجاها واحدا لا بديل عنه، الشيء الذي تحققنا من عدم سلامته ميدانيا كما إستطعنا الوقوف أيضا على القصور الموجود بالإحصائيات التي تقدم من طرف الديوان الوطني للإحصائيات (ONS) كل عشر سنوات و التي لا تحتوي إستماراته المعتمدة لجمع البيانات السكانية مصطلح شبه الرحل، ففي إحصائيات 1998م التي أجريت يوم 15 من جوان عد هؤلاء من الرحل لأنهم كانوا يتواجدون بالتل أما في إحصائيات 2008م فان نفس الفئة عدت من المتوطنين المستقرين لإن تواجدهم يوم 16افريل (تاريخ التعداد) كان بالصحراء حيث لم يحن بعد زمن صعودهم إلى التل و سنحاول أن نبين في الفصلين التاليين (الصعود الى التل) و(الرحل و شبه الرحل) أهم الميكانيزمات التي يمكن اعتمادها لضبط بعض تلك المفاهيم.

كما أننا نسجل ضمن هذا القصور إفتقاد ساحة البحث العلمي لمتخصصين أمثال محمد بوخبزة الذي كان إغتياله سنة 1992م من طرف الإرهاب الأعمى خسارة لا يمكن تعويضها و إنقطاعا للمعرفة بالرحل يصعب وصلها.

الخلاصة:

إن الحديث عن البدو الرحل في فترة ما قبل الإستعمار الفرنسي في الجزائر كان ولا يزال من بين المواضيع الأكثر جدلا في تاريخ هذا البلد وهذا على إعتبار ندرة المراجع التي تأتي على ذكر أخبار تلك الحقبة، ولا نكاد نجد منها سوى ما ورد في كتاب إبن خلدون المسمى ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر حيث أسهب العلامة في نقل أخبارهم من أحوال تقلبهم في الأرض وتفاوت أبدانهم وأخلاقهم وكيف كانت السطوة لهم دون غيرهم من الحضر معتبرا البدو أصل للمدن وسابق عليها، وكانوا على زمنه لا يعنى بهم الرحل وحسب بل كان ينضوي تحتهم القائمون على الفلاحة والغراسة ممن كانوا يحتلون مساحات قليلة تكاد تنحصر في المناطق الجبلية الوعرة حيث يمارسون فلاحة جد محدودة؛ وأما الرحل فكانوا يمثلون أغلبية السكان بنسبة تصل إلى 65 % ينتشرون في كل أنحاء البلاد تقريبا ولهم البسطة على جل أراضيها وهم في ذلك يمارسون الرعي ويعيشون حياة الحل والترحال في بحث دائم ودائب عن الكلإ والماء ولهم علاقاتهم الخاصة التي تنظم حياتهم الإجتماعية والسياسية.

وعلى الرغم من مرور ثلاث قرون على هذا الوصف إلا أن المجتمع الجزائري حسب محمد بوخبزة لم تطرأ عليه تغيرات مهمة إو جذرية على شاكلة ما كان يحدث في أوروبا آنذاك وهذا لأن الميكانيزمات التي كانت تسيره بقيت على ما هي عليه منذ ذلك العهد وحتى مجيء الفرنسيين سنة 1830م؛ بعد الإحتلال صار البدو الرحل محور إهتمام المستعمرين ومركز تفكيرهم إذ كانوا يشكلون تباينا واضحا مع نمط الحياة الغربية ووجها بارزا من أوجه الحضارة العربية، وللتخلص منهم أستغلت كل الثغرات والتي كان أهمها على الإطلاق عدم إستقرارهم وحركيتهم الدائمة فافترض المحتلون الأوائل أن هذه الأراضي شاغرة لا مالك لها فاستعملت فكرة الفراغ هذه كسلاح فتاك لانتزاع الأراضي من القبائل التلية ليتم تحويلها بعد إخضاعها لترسانة من قوانين إجبارية التملك إلى أراضي زراعية أصبحت على إثرها حركة العشابة التقليدية من وإلى الشمال غير ممكنه الشيء الذي أدخل حياة الترحال في أزمة حقيقية بدأت بزوال الترحال الرطب وانتهت بضرب قواعد ومنطق الترحال الجاف مما خلق وضعا غير مسبوق أدى مع مرور الوقت إلى إهتلاك هذا النمط من العيش تدريجيا؛ أما البدو الرحل كأفراد وجماعات فقد حوصروا في كل مكان وذهب الحد إلى تصفيتهم جسديا كلما تطلب الأمر ذلك بما أتيح للمستعمر من أعذار قانونية وأخرى أخلاقية.

لقد أدى الوضع العام الذي أوجده الاحتلال الفرنسي طيلة قرن وإثنان وثلاثون سنة من التفقير والإستنزاف إلى تدهور عام في معيشة البدو الرحل أدى إلى إنقلاب أحوالهم رأسا على عقب نتاج توطينهم المستمر والبطيء وكذا إجبارية تخليهم عن حياتهم التقليدية شيئا فشيئا حتى تحولت حياة الترحال في نهاية المطاف إلى حياة يأس وفقدان للأمل تسودها قيم تختلف تماما عن تلك التي عهدها الرحل من قبل وعلاقات جديدة فرضها واقع تعميم المعاملات النقدية وتفكيك وحدة الأراضي وكذا إنتشار العمل المأجور حتى أنهم صاروا غداة الإستقلال قلة قليلة لا يمثلون سوى 4% من سكان الجزائر يتواجد أغلبهم بالهضاب العليا السهبية، أخذوا على التعايش مع الوضع الجديد وعملوا على إعادة بناء قطعانهم ومزاولة حياتهم أو ما تبقى منها على الأقل وهذا في ظل الدولة الجديدة الناشئة والتي لم تولي بدورها إهتماما لهم إلا عندما حاولت تطبيق الثورة الزراعية سنة 1972م حيث كانت إشكالية إدارة مجتمع غير ثابت يتنقل باستمرار تطرح نفسها بقوة فكانت البدائل المطروحة تتمثل أساسا في فكرة توطينهم بطرق مباشرة وأخرى غير مباشرة، لكن هذه التجربة عرفت فشلا ذريعا نتيجة لما لاقته من نفور من طرف هذه الجماعات و أيضا إيجاد صعوبات جمة من طرف الدولة في تحرير هذه الأراضي التي يستغلها الرحل بشكل تقليدي و التي لطالما إعتبروها مجالا طبيعيا لنشاطهم الرعوي تحمل صفة أراضي عرش، هذه الصفة التي نزعت في إطار هذا البرنامج لتتحول إلى صفة أخرى و هي الملك العام ، هذا الفعل أدى فيما بعد إلى فوضى عارمة في إستغلال هذه الأراضي و هيمنة الموالين من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة على أغلبيتها، أما باقي الرحل فأصبح رعيهم و إستغلالهم لها مجرد شيء متغاضي عنه قانونيا الشيء الذي مكن البدو الرحل بعد ذلك من الإستمرار في الوجود ولو بنسبة أقل حيث بلغوا 1 % فقط من السكان سنة 1985 م (حسب المصادر الرسمية) ، بعد هذا المعطى الإحصائي ولسبب ظروف التحولات السياسية والأمنية لم يكن بالإمكان الوقوف على مآل هذه الحياة طيلة ما يقارب العقدين من الزمن ممكنا، لكن يبقى ما هو ثابت لدينا اليوم ميدانيا هو إستمرار حياة الترحال بشكل أو بآخر و بأوجه أكثر ملائمة للتطورات الحاصلة على أرض الواقع.

الفصل الرابع :

الرحلة إلى التل

تمهيد:

سنحاول من خلال هذا الفصل توضيح أهم مراحل قدوم البدو الرحل إلى بلدية عين عبيد باعتبارها منطقة تلية تستقطب الكثيرين منهم في فصل الصيف، كما سنحاول أيضا وصف نشاطاتهم المختلفة والكشف عن أهم الإستراتيجيات التي يعتمدونها في الفوز بالمراعي الخصبة لأغنامهم، وكيف تلعب الطبيعة العقارية للأراضي دورها الحاسم في تحديد أسس ومعالم التفاوض للفوز بأكبر منفعة ممكنة لجميع الأطراف(رحل، ملاك ومستفيدين صغار للأراضي الفلاحية).

1- التصنيف:

من الصعوبة أن نجد اليوم تصنيفا واضحا لفسيفساء المعطيات الموجودة في الميدان، فالخيم المتناثرة في التل بصفة عامة هي دلالة واضحة على بقاء حياة الترحال و إستمرارها بشكل مثير للإنتباه ؛ وهذه الصعوبة تكمن حسب الأستاذ نذير معروف في " أننا كلما تقدمنا في الزمن لدراسة عالم البدو الرحل كلما واجهنا تفككا مفرطا لصور هذه الحياة حتى أنها تعطينا أحيانا أشكالا جد خاصة تستمر في التلاؤم مع سلوكياتهم مما يجعل التحدي أصعب في محاولتنا بناء أي نموذج واضح المعالم" [1]؛ إن هذا التفكك المفرط يرتبط بشكل مباشر أحيانا وغير مباشر أحيانا أخرى بطبيعة الأراضي و حالتها العقارية الموروثة عن الحقبة الاستعمارية (أراضي عرش، أراضي ملك، أراضي كولونيالية) والتي إستمرت بعد الإستقلال في التحول حسب الأنظمة التي فرضتها التوجهات السياسية والظروف العالمية السائدة آنذاك، فمن تأميم الأراضي الكولونيالية غداة الإستقلال مباشرة ومحاولة تطبيق نموذج التسيير الذاتي على الطريقة اليوغسلافية إلى الاشتراكية و الثورة الزراعية حيث تم إنتزاع كل أراضي الملاك الكبار لصالح " فلاحين بلا أرض "[2]، على حد تعبير مارك كوت، وهذا في محاولة لمجاراة التجربة المكسيكية، ثم إعادة تنظيم هذه الأراضي مرة أخرى من طرف الدولة سنة 1987م، حيث تم تقسيمها إلى قطع أصغر و أكثر إستقلالية هي أشبه بمستثمرات جماعية خاصة على أراض تابعة للقطاع العام (الدولة)، و بما أن التوجه العام للنظام في الجزائر قد تحول سنة 1991م رسميا إلى الرأسمالية ، فقد تم إعادة الأراضي المؤممة لأصحابها القدامى؛ أما أراضي المستثمرات الجماعية الموجودة على الأراضي الكولونيالية القديمة

[1] Nadir Marouf, Terroirs et villages Algériens, O.P.U, Alger, 1981, p.60.
[2] Marc Côte, L'Algérie, Média-Plus, Constantine, 2005, p.56.

فقد خضعت هي الأخرى إلى عملية تقسيم ذاتي بين العاملين بها كي تتخذ شكلا أكثر فردانية[1]، إن ظاهرة عدم الإستقرار هذه يلخصها مارك كوت في قوله: " لقد عرفنا في الجزائر أراض تغير ملاكها من ثمانية إلى عشرة مرات و هذه الظاهرة خلفت هوة بين الفلاحة و الأرض "[2]، و"مهما تكن الصيغ العقارية التي ستتبنى في المستقبل، يبدو أن شيئا ما إنشرخ في هذه البلاد فيما يخص العلاقة بين الإنسان و الأرض" [3]، و تقول فاني كولونا في نفس السياق: " لقد أصبح الريف الجزائري كتلة فوضوية، بلا بنى أصيلة ودون معايير واضحة تضبطه، لقد أصبحت العلاقات بين الناس داخله بلا محتوى"[4] . و من تداعيات هذه الوضعية أنها إنتهت بحياة البداوة و الترحال من شكلها الشارد[5] بعد الأستقلال مباشرة إلى أشكال أخرى تلاءمت مع كل مرحلة من المراحل سالفة الذكر إلى أن إتخذت شكلا أكثر فردانية يسميه محمد بوخبزة الترحال الإحترافي الذي تكيف بامتياز مع الحالة العقارية للأراضي الفلاحية والتي تصبح بعد عملية الحصاد في فصل الصيف أراض رعوية تعرف "بالحصائد"*.

2 الصعود إلى التل:

لم تفقد حركة البدو الرحل طابعها التقليدي فيما يخص تزامن الصعود أو القدوم إلى التل فببداية فصل الربيع (أوائل مارس) يتسابق الرحل إلى الشمال بحثا عن الكلأ لأغنامهم في المناطق التي عهدوا شد المتاع إليها في مثل هذا الوقت من كل سنة و لأن المناطق الرعوية تكون في فصل الربيع منحصرة على الجبال و سفوحها و بعض القطع الفلاحية التي تخضع للراحة "العطيل"** فإن التنافس يكون محموما للفوز بهذه الأراضي خاصة إذا كان العام شحيحا من حيث تساقط الأمطار الأمر الذي قد يؤدي إلى تضاعف أسعار إستئجارها من أصحابها، وقديما كان الرحل ينطلقون على ظهور جمالهم أو جيادهم للبحث عن العشب في عملية منظمة تسمى "الحواسة"، توكل مهامها لمن هو أكثر فراسة وشجاعة بينهم فكانوا يقطعون مسافات

(1) Ibid., p.57.
(2) Ibid., p.56.
(3) Ibid., p.61.
(4) Fanny Colonna, Savants paysans, O.P.U, Alger, Avril 1987, p.34.
(5) M'hamed Boukhobza, L'agro- pastoralisme traditionnel en Algérie, O.P.U, Alger, 1982, p.24.

* الحصايد جمع حصيدة و هو إسم يطلق بالعامية على حقول القمح، الشعير و غيرها بعد عملية الحصاد.

** العطيل أو العطال هي طريقة تقليدية في ممارسة الفلاحة حيث تترك الأرض دون حرث وزرع لمدة سنة كاملة كي تسترجع عافيتها للموسم الزراعي المقبل.

جد طويلة يتعقبون آثار الأمطار ببرقها ورعدها إبتغاء لمنابة الخضرة وهذا أحدهم يسترجع تلك الأيام الخوالي فيقول:

" *بكري كنا نركبو الزوايل .. وين تبرق نمشيوْ، وين إلوح لعجاج نكونو عندو... وو.. كي نشمو ريحة التراب نعرفو بلي النو طاحت، نعينو لبلاصة، وو بعد 40 يوم نرجعولها، نلقاو لحشيش ناض، ..نخلو لغلم تسرح وو نبقاو نحوسو*" (س.ك) .

أما الآن فقد أصبحوا يستخدمون الشاحنة عوض الجمل والحصان لتنظيم عملية الحواسة* ويستعملون كذلك الهاتف النقال للإتصال بمعارفهم يستفسرون عن "حال العام وأحواله " بسؤالهم عن تساقط الأمطار كما أنهم لا يفوتون فرصة الإستماع إلى النشرات الجوية لنفس الغرض عبر الراديو وحتى التلفاز** الذي أصبحت خيمهم لا تخلو منه؛ و على العموم فإن تنقل البدو الرحل وحركيتهم ليست بالعشوائية التي يمكن تصورها، "فكل مجموعة منهم يحكم تنقلها عادة محور معين، فهم يتحركون بشكل شبه ثابت و بتردد نسبي حول فضاء سكني معين"(1) و هذا ما تؤكده لنا كذلك شهادات بعض الفرنسيين في الجزائر خلال حقبة الاستعمار ففي سنة 1948م كتب كل من كارات و وورنيي : "لا توجد في الجزائر قبيلة تائهة بالمعنى التام للكلمة، إن القبائل الأكثر تنقلا يخضعون في حركيتهم إلى قوانين معينة تضبط بشكل يكاد يكون ثابتا مجال سكنهم، زراعتهم و مسيرتهم"(2)، و نفس الرأي يبديه كل من : ن. لاكروا و أوقستين بارنار عندما يؤكدان خمسون سنة بعد ذلك أنه "من الخطأ الشائع الاعتقاد أن البدو الرحل يتنقلون عبر البلاد دون قواعد ثابتة، حسبما يرغبون"(3)، وهذا أيضا ما أكده سيمينون في وصفه لسكان روسيا الوسطى مبينا عمومية القوانين التي تحكم ظاهرة الترحال فيقول : " عند بدو الكيرغيز كل قبيلة و كل فخذ يحلون دائما بنفس الوديان و نفس الأماكن و حقوق التمتع ببعض المناطق لتمضية فصل الشتاء وإستغلال بعض المراعي مضبوطة بصرامة في القانون العرفي عند الكيرغيز "(4).

* كان كثيرا ما يطلق الرحل من العرب في الجزائر اسم" الحواس" على ابنائهم لسبب ما يحمله هذا النعت من شجاعه و فراسه.

** عادة ما يكون هذا التلفاز من نوع المحمول Portatif ويشغل في الغالب عن طريق بطارية الشاحنة لذلك نجد هذه الأخيرة دائما مركونة بجانب الخيمة من الجهة الخلفية وهذا ليسهل وصل أسلاك الكهرباء منها إلى التلفاز لكن من الرحل اليوم كذلك من بدأ في إقتناء المولدات الكهربائية من الحجم الصغير(220 فولط) التي تعمل بالبنزين.

(1) Nadir Marouf, Op. Cit., p.50.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid., p.51

ونفس الشيء بالنسبة لحياة الترحال في الجزائر والتي كانت بدورها عملية منظمة بين مختلف المناطق في البلاد (تل- هضاب عليا، تل – صحراء – هضاب عليا، صحراء و العكس)، و بالمقابل لم يكن هذا التنظيم يأخذ شكلا محددا بعينه و دقيقا بأتم معنى الكلمة، فالزمن المناسب فقط كان يحكم وجهة هؤلاء الرحل و المسافة التي يجب قطعها، كما أن العلاقات التي كانوا يقيمونها مع محيطهم الطبيعي و السوسيو- سياسي كانت تلعب دورا مهما في تحديد هذه التنقلات(1)، والأمر هنا لا يختلف كثيرا عما كان عليه الحال قديما فالوافدون إلى عين عبيد من الرحل لا يشذون عن هذه القاعدة (أنظر الخريطة رقم 03) ، و قد أكد لنا جل المبحوثين أنهم ألفوا القدوم إلى هذه النواحي وإعتادوا عليها، وهم يقيمون علاقات جد حميمة مع سكانها تصل إلى درجة المصاهرة ، كما أن لهم فيها أهلا قد إستقروا بها منذ أمد بعيد، أما رحل أولاد دراج وبشكل خاص فيشغفون بالمنطقة إلى حد كبير، يقول راحل من السوامع* :

" *عين عبيد هواها طيب و عشبها نافع لغنم تاكل التراب هنا.. ترتاح..خير ما تاكل حشيش الحدرة ما فيه حتى فايدة..وو لهوا ثمه مسموم ..لغنم تمرض وو العبد يمرض*" (س.ك).

حتى أنهم لا يبغون التحول عنها و لو إلى مناطق قريبة جدا كوادي الزناتي** بالرغم من شساعة أراضيها و وفرة مراعيها لأن كلأها لا نفع فيه لأغنامهم حسب إعتقادهم وتجربتهم ، وبالفعل فإننا عند المعاينة الميدانية لم نجد أيا من الخيم السوداء للسوامع بمنطقة وادي الزناتي.

إن تحول البدو الرحل من وجهة ألفوا أهلها و مرعاها لا يكون إلا تحت ظروف جد قاسية كدوام سنوات القحط بتلك المنطقة أو انتشار الأمراض بها كما أن الحروب و النزاعات الشديدة تغير أيضا من مسارهم فأولاد "أم لخوة"*** مثلا لم يعهدو القدوم إلى عين عبيد إلا في غضون

(1) M'hamed Boukhobza, Op. Cit. , p.19.

*السوامع بطن من بطون قبيلة أولاد دراج والتي تضم أيضا أولاد سحنون و أولاد دراج كبطن مستقل وكل من هذه البطون يدعي أنه أصل القبيلة الأم، يتميز أولاد دراج عموما عن باقي الرحل بلون خيمتهم السوداء.

**تقع وادي زناتي مركز على بعد 28 كم من عين عبيد مركز و المنطقة هنا لا يقصد بها وادي زناتي بأكملها بل تستثنى منها بلدية رقادة حتى مشارف كيفان العسل وتنعت في كلام الرحل و سكان المنطقة بالحدرة لأننا ننحدر نزولا إليها .

*** أولاد أم لخوة يقصد بها أولاد أم الإخوة وهم بطن من بطون أولاد عيسى والذين يرجعون بدورهم إلى القبيلة الأم أولاد نايل.

الإثني عشرة سنة المنصرمة فوجهتهم الرئيسية كانت ولاية تيسمسيلت إلا أن إنتشار ظاهرة الإرهاب في العشرية السوداء بتلك المناطق غير من وجهتهم.

3 فصل الربيع:

يبدأ توافد أولاد عيسى و أولاد دراج مع تحسسهم إرتفاع درجة الحرارة في التل إلى تخوم غابات عين برناز و سفوح جبل مسطاس التي تقع كلها شمال عين عبيد والتي تعرف محليا بالساحل في خطوة أولى لترصد المراعي الشاسعة التي تقع جنوب البلدية والمعروفة بصراوات برج مهيريس و لكحالشة كبار وهذا طبعا للفوز بتلك الحقول بعد عملية الحصاد، أما قبل ذلك فهم يحاولون تمضية الربيع مستغلين المراعي الجبلية و تخوم الغابات في فرصة لتمضية هذه الفترة دون تكاليف و أعباء تثقل كاهلهم و تسمح لهم في نفس الوقت مع نهايات شهر ماي بجز صوف أغنامهم في أحسن حال، لكن الأمور لا تسير دائما كما يشتهون فهذه الأراضي (سفوح الجبال والجبال) قد يظهر لها مالك طارئ :

" *مرة على مرة إيجيك واحد في طاكسي ماركة وو لابس كوستيم و كرافات و يقولك هذه رزقي لازم تسلكوني، و حنا ما نقدروش نعرفو إذا كانت ملكو صح ولا، لالا* " (س.ك) .

فيضطرون في هذه الحالة إلى التفاوض من أجل تخفيض ذلك المبلغ المطلوب، ثم يتم جمعه بالتساوي من كل خيمة من طرف كبير الرحل ليعطى إلى طالبه، و في حقيقة الأمر فإن كل من تتاخم أرضه لتلك السفوح و تلك الجبال يعطي لنفسه الحق في الإدعاء أن ما دون ذلك ملك له فيطالب هؤلاء الرحل بحقوق استغلال تلك المراعي، والبدو الرحل من طرفهم حتى و إن علموا بذلك فإنهم لا يلجؤون إلى السلطات المحلية لتقديم شكواهم والسبب يكمن في حرصهم على الحفاظ بالعلاقات الجيدة مع السكان المحليين حتى يتسنى لهم الرجوع في العام المقبل دون أي حرج :

" *أحنا مسلكين... مسلكين هذا و لا الجادرمية** *أمالا نسلكو هذا و نربحو لملاحة باش ما نلقاوش مشاكل العام الجاي* " (س.ك).

* الجادرمية كلمة عامية أصلها فرنسي و هم الدركيين Les Gendarmes .

و نفس الشيء يحدث بالنسبة لرعي الغابات فحراسها يمنعون منعا باتا أي ولوج للغنم فيها لكن لكل قاعدة إستثناء :

" *القوارد*** *كون ما تعطيهمش ما يخليوكش ترعى، نهار لول ينهرونا وي يهدونا ب..سيزي وو من بعد إوليوْ يحكيوْ معاك وو يشكيوْلك وو من اوراها اقلك سلفلي سوارد راني محتاج وو مانيش لاحق ..كلي حنا رانا فالخير.. وو أنت راك تفهم تولي تعطيه وو راك ترعى و خلاص* "(س.ك).

وهذه الممارسات في الحقيقة وإن إتخذت طابعا تسلطيا جديدا فهي موجودة منذ القدم، ففي الماضي كان يستوجب على الرحل أن يدفعوا الغفارة لزعماء القبائل القوية و ممثلي السلطات مقابل الرعي وحتى إتاوات المرور على أراضيهم[1].
ولا تنتهي مشكلة المرعى إلى هذا الحد فأصحاب الأراضي المزروعة أيضا لا يقبلون بأي شكل من الأشكال أن تقترب قطعان الغنم من زرعهم :

"*كي نجيوْ لتلْ تصعاب الحالة، لازم الراعي ما يغفلش على لغلم خلاص باش ما طيحش في زرع الناس*"(س.ك).

أما في حالة إنتهاكها عن سهو من طرف الراعي فالعواقب تكون وخيمة و قد تنتهي بنزاع حاد بين الطرفين** لذلك يحرص المرتحل كل الحرص على الابتعاد قدر المستطاع عن تلك الأراضي فهو قد يضطر لحمل كل غنمه في الشاحنة فقط لينقلها كيلومترين أو ثلاث و هذا تفاديا لأي خطأ من ذلك النوع . هذه الأبعاد الجديدة لتقسيم الفضاء اليوم دفعت بالرحل إلى التعديل في الكثير من عاداتهم القديمة كي يتمكنوا من التعايش والإستمرار، إن إمتلاكهم اليوم للغنم لا يمكن أن يتعدى عتبة معينة و هذا كي يتمكنوا من السيطرة عليها و على رعيها:

* لقوارد هم حراس الغابات Gardes-forestiers.
(1) M'hammed Boukhobza, Monde Rural, Contraintes et mutations, O.P.U, Alger, Novembre 92, p.19.
** يفض هذا النزاع عادة بطريقتين إما باللجوء إلى العدالة أو إلى "الجماعة" و التي تتكون من كبار القوم من طرفي النزاع، يحكمون حسب العرف السائد بالتعويض للمتضرر فيكون هذا التعويض حسب عدد رؤوس الماشية التي وقعت في الزرع.

"بكري كان الواحد منا يقدر يكسب حتى الخمس ألاف راس، ضرك لمخير فينا ما يقدرش يكسب خمس مئة، بكري كنا نمشيو بيها. ضرك لازم تهزها وو زيد ضرك ما عندكش وين ترعى بيها، الدنيا كل محكومة وو باش ترعى لازم تكري " (س.ك).

وهذا مرتبط أيضا بسعة حمولة الشاحنة* لعدد رؤوس الأغنام فلا يمكن في كل الأحوال أن يعمل الموال منهم على نقل غنمه من الصحراء أكثر من مرتين أو ثلاث ، كما أنهم يقومون أيضا بجلب الماء إلى القطيع في صهاريج كبيرة تحمل أيضا في الشاحنة وهذه الصهاريج أصبحت مشاهدتها اليوم مألوفة بجانب الخيمة لان سياقة القطعان إلى وردها صار كذلك بالصعوبة بمكان لنفس الأسباب السالف ذكرها، و قد إكتسب البدوي هذه القدرة على التعايش مع الظروف الجديدة بملكة "Un habitus" تسمح له بالتأقلم و التعديل من سلوكياته وعاداته عندما تتغير شروط الحياة الاجتماعية و التاريخية، "فعندما تفقد التقاليد القديمة طابعها الحسي والملموس يضطر الناس إلى إعادة توظيفها وإكتشافها بشكل مختلف حتى يتمكنوا من حماية أنفسهم، فالتقاليد ليست جوهرا بذاتها يمكن أن تصمد أمام التحولات التاريخية"[(1)] (أنظر الصورة رقم:06 و07).

4 العوائق المناخية :

من الناحية الزمنية يكون قدوم الرحل إلى عين عبيد بعد ضمان مرور التقلبات الجوية التي يمكن أن تحصل في فصل الربيع خاصة خلال شهر مارس الذي يعرف بتساقط الثلوج في هذه المنطقة فيقول الناس هنا " *مغرس بو الثلوج*"، و هذا كي لا تتعرض أغنامهم إلى موجة برد فتاكة قد تؤدي إلى هلاكها، فالمعروف أن الشاة لا تتحمل درجات الحرارة الجد منخفضة، وللبدو الرحل كذلك حسابات يعرفونها جيدا بما تراكم لديهم من خبرة في معرفة أحوال الطقس في هذه الفترة من السنة بما يسمى " حساب عرب " أو "لوقات لحساب" و هذه الأوقات لا يعرفها إلا كبار القوم و أعيانهم [(2)] فعندما تمر الفطيرة التي تحدث فيها تقلبات جوية غريبة حيث يسقط المطر والثلج و البرد في يوم واحد يقول لك الرحل:

---

*تشتهر كل جماعة بإمتلاكها لنوع معين من الشاحنات فالسوامع مثلا معروفون بتفضيلهم لشاحنة من نوع :SAVIEM و التي تهيؤ على طابقين حتى تتمكن من حمت أكبر عدد من رؤوس الماشية.

(1) Addi Lahouari, Sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu, Le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques, La découverte, Paris, 2002, pp.46-47.

(2) Pierre Bourdieu, Le sens pratique, Les Editions de Minuit, Paris, 1980, p.334.

"*كي تفوت الفطيرة ما تبقى فالسما حيرة* "

و هم يضمنون بذلك بداية موسم الحر مع خروج الأيام التي تسمى "الحسوم"* فيقولون:

"*كي تفوت الحسوم تعرى وو عوم يا الراعي لمشوم*" (س.ك).

و هي تتزامن مع خروج شهر مارس و دخول النصف الثاني من شهر أفريل حيث يبدؤون فعلا في القدوم إلى مناطق التل التي تعرف لديهم بالساحل حيث يعتبرون أن الخطر قد زال و أن القطيع قد نجا بمرور الحسوم[1]، لكن من المفارقات التي يمكن أن تخذل هذه الخبرة هو تساقط الثلوج بمنطقة عين عبيد بعد مرور هذه الأيام فتتعرض قطعانهم إلى خطر حقيقي؛ ففي عام 1985م أدى سقوط الثلج إلى كارثة حقيقية هلكت على إثرها أغنام كثيرة ولا تزال هذه السنة تعرف عند الرحل إلى يومنا هذا ب:"عام القضاية"، لذلك يقال أن اليهود في الجزائر أدرى بالمناخ من غيرهم فيقولون ردا على حسابات العرب :

"*ما تحسب حساب و ما يكذب عليك كذاب حتى تنور السدرة و يزيد العناب*"

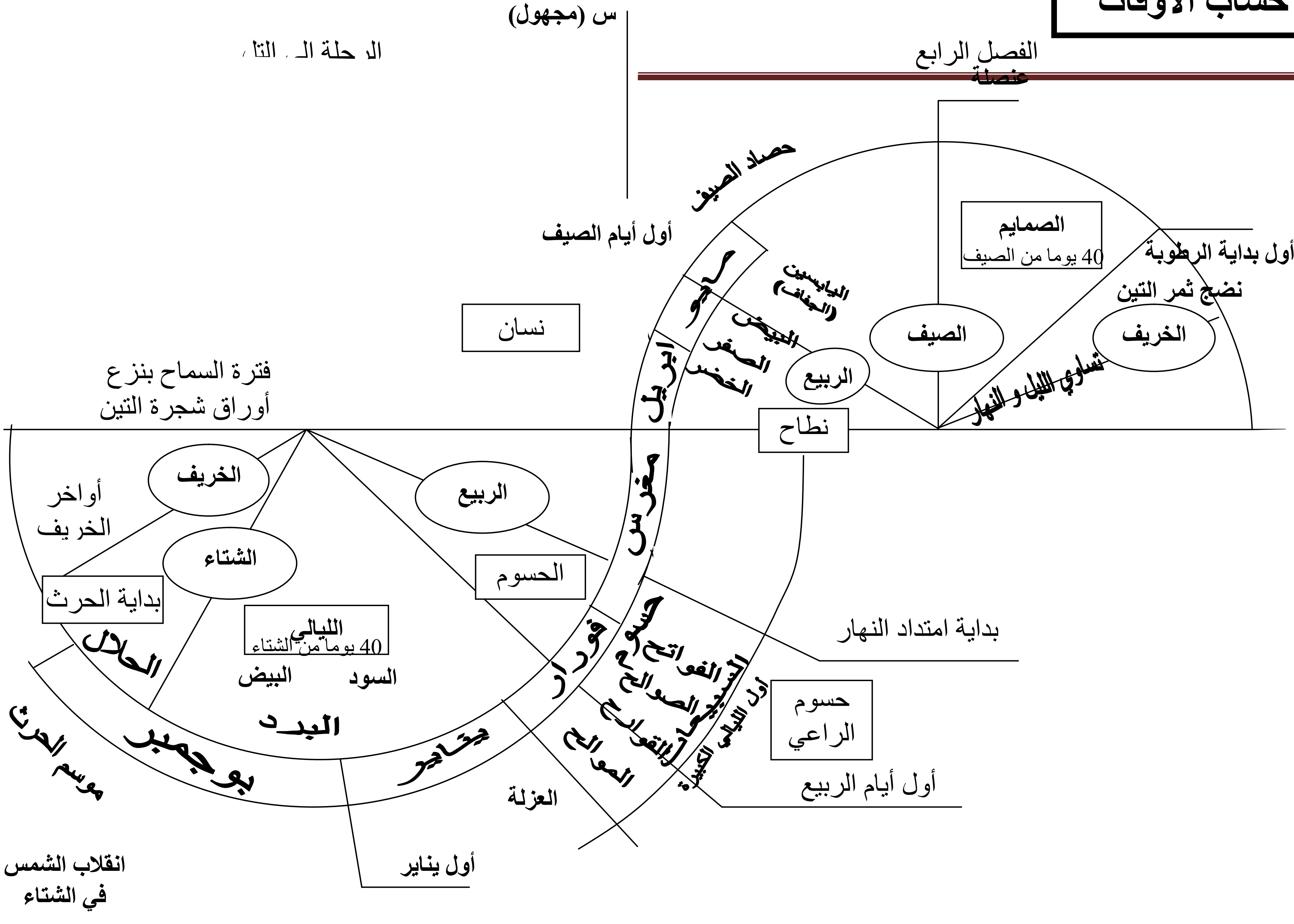
أي أن البداية الحقيقية للحر لا تكون إلا أواخر ماي(40 يوم بعد الحسوم) ولهذا السبب يتخذ الرحل اليوم إحتياطاتهم بمجاورة بعض السكنات المبنية و يطلبون النجدة من أهلها في حال حدوث طارئ جوي غير مرغوب فيه، فيتمكنون بذلك من حماية أغنامهم قي آخر المطاف، و خسائرهم إنما تكون طفيفة في آسوا الأحوال.

بعد مرور هذه الفترة العصيبة يعكف الرحل و يجتهدون في رعي أغنامهم و التجوال بها بين تلك المراعي المحدودة هنا و هناك حريصين أن تأكل و تستفيد قدر المستطاع من الأعشاب التي جادت بها الأرض. فإذا كان العام ممطرا كانت الأعشاب كثيفة و كان المرعى جيدا فتكتفي الأغنام و تشبع:

* الحسوم: سميت كذلك لأنها أيام تحسم بين فصل الشتاء و فصل الربيع و المعروف أنها أيام قاسية شديدة متتابعة يصطلح الناس أنها ثمانية أيام لا يبرد الحلوف (أي الخنزير) في الجبل إلا فيها ولا يتكسى اليهود كساء الشتاء إلا خلالها، و يزعم البعض أنها هي الحسوم التي أتى ذكرها في القران الكريم في سورة الحاقة (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً) والمقصود هنا العذاب الذي نزل بقوم عاد بسبب كفرهم وتكذيب الرسل، و يتشاءم البعض منها تشاؤما كبيرا و يعتبرونها أيام نحس لا خير فيها فلا يقربون نساءهم فيها و لا يتزاوجون إلا بعد ذهابها و تعرف كذلك هذه الأيام كلا باسمها فالأول الصر، الثاني الصنبر، الثالث الوبر، الرابع الامر، الخامس المؤتمر، السادس المعلل و السابع مطفئ الجمر. (http://thawra.alwehda.gov.sy/_archive.asp) Le 18/12/2008 à 10h

(1) Ibid., p.343.

حساب الأوقات



Source : Pierre bourdieu, Sens pratique, les Editions de minuit, Paris, 1980, P 339

"*أنا كريت ميالي ربيع قطارين (2هكتار) بأربع ملاين لثلاث عصي* * *وو كي كان العام مليح دور لغلم ثمة برك تاكل تشبع وو ربحت فيها ما شاء الله* " (س . ك).

أما إذا كان الحال عكس ذلك فيضطرون إلى شراء الأعلاف الصناعية لدعم الغنم في رعيها المحدود، و بالنظر إلى إرتفاع أسعار هذه الأعلاف فإن الحال قد يسوء كثيرا بالنسبة لعبئ التكاليف التي تترتب عليهم و قد يؤدي ذلك إلى إهتلاك القطيع شيئا فشيئا فلا مفر من بيع الخروف الصغير لتأمين العلف لأمه:

"*إذا كانت الشاة تأكل بنها ربي يستر، نوليوْ نبيعو الخروف باش نشريوْ العلف لمو، وو قادر خروف مايجيبلكش قنطار علف* " (س.ك)

أما إذا وصل الحد إلى درجة بيع الشاة لتأمين العلف للشاة الأخرى فالوضع يصبح كارثيا :

"*لاكان الشاة ولاة تاكل ختها خلاص ما بقاش كسيبة، المرعى ناقص من جيهة وو لغلم طايحة فالسوق من جهة.. تبيع نعجة باش تشري قنطار علف، وو كون تكمل كيما هكذا ثلاث شهر راحت لكسيبة، نوليوْ نخدمو غير على السرعوفة** تاع لغلم* " (س.ك) .

وهكذا يصبح الوضع مرتبطا بشكل مباشر بعامل المناخ والذي يكتسب في هذه المناطق خصوصية تأثره بالهواء الساخن للصحراء في الصيف و التيارات الهوائية القطبية الجد باردة في الشتاء[1] و هذا التباين الحاد في درجات الحرارة بين الفصلين يحرم النباتات من الدفئ في الشتاء ومن الأمطار في فصل الصيف مما يجعل الظروف الملائمة لنمو الغطاء النباتي تتوفر فقط في فصلي الخريف و الربيع[2] لكن عدم الاستقرار في نسبة تساقط الأمطار قد يجعل من هذا العطاء هزيلا جدا في هذين الفصلين فقد تطول موجة البرد حتى الربيع كما قد تغمر موجة الحر كل فصل الخريف[3] و سنبين في الفصل الأخير كيف يلعب عدم إستقرار المناخ في المنطقة دورا

---

*العصا هي مائة رأس من الغنم و تسمى كذلك لأنه يلزمها راع (بعصاه) كي يتمكن من التحكم فيها و رعيها بشكل جيد.

**السرعوفة هو القطيع قليل العدد من الغنم لا يتجاوز 50 رأسا.

(1) Marc Côte, Op. Cit., p.35.
(2) Ibid.
(3) Ibid., p.39.

حاسما في عملية الإنتاج الرعوي و الميكانزمات التي يفرضها هذا العامل على أهم السلوكيات الإقتصادية عند البدو الرحل .

5 محطة الصيف:

مع بداية موسم الحصاد يبدأ الرحل اتصالاتهم مع أصحاب الأراضي للتفاوض من أجل إستغلال الحصائد و كذا شراء كميات"البال"* التي يقومون بنقلها في شاحناتهم إلى الجنوب بغرض تخزينها كإحتياط من العلف لأغنامهم أو إعادة بيعها في السوق بأثمان مضاعفة و لأن موسم الحصاد قد يتأخر قليلا عن عادته لأسباب كذلك مناخية (عدم نضج القمح بسبب تأخر موجة الحرارة) فإننا تلمسنا قلق الرحل المفرط في الإسراع للتنقل إلى الجهة الجنوبية لمنطقة عين عبيد حيث تمتد أكثر من 3002 هكتار من الأراضي المحصودة وهذا بسبب الحشرات الضارة التي تستيقظ في مثل هذا الوقت كالقراد و البرغوث وتزحف على الأغنام من الجبال و الغابات، هذا ناهيك عن إزدياد نسبة الرطوبة بتلك المناطق الأمر الذي يجعلهم يستعجلون بإبعادها في أسرع ما يمكن لحمايتها من الأمراض والأوبئة:

> " *لغنم تاعنا مايش كيما غنم التلية، تاعنا لازم ماطولش في الساحل على خاطر* ما تحملش الميديتي** وو كي يسخن الحال مليح يهجم عليها لقراد و البرغوث ورجليها تتورم من أرض الجبل اليابسة "(س.ك).

6 إستراتجيات التفاوض:

يتفاوض الرحل مع مالك الحصيدة لتحديد ثمن الهكتار أو كما يسمونه " لقطار" الواحد ثم يضرب السعر في عدد الهكتارات المتوفرة و قد يتم استئجار هذه الحصائد بشكل جماعي أو فردي هذا يرجع فقط إلى شساعة تلك المراعي و كذا الثمن الذي اتفق عليه، وحتى و إن تم الكراء الجماعي فتقسيم هذه الأراضي لا مناص منه بينهم ثم يجري بعد ذلك تعيين مجال مرعى كل واحد منهم حسب قيمة المبلغ المدفوع من طرفه و كذا الإحتكام لرأي كبير الجماعة فحيث أشار عليه

* البال: كلمة دارجة أصلها فرنسي BALLE وتعني حزم التبن المهيأة.

** الميديتي: L’humidité ، الرطوبة.

بالرعي يكون الأمر نافذا، ففي عرف الرحل لا ترد مشورة كبير القوم وطاعته واجبة وهم يرددون في تعليم أبنائهم هذه الآداب:

"خوذ رايْ لكبير، لاما ربحتش تسلك على خيرْ، دير الخير فالناس و كبير القوم طيعو " (س.ك).

لكنهم بالرغم من تقسيمهم لهذه المراعي إلا أنهم عند نصب خيمهم يبقونها مجتمعة لدواع أمنية من جهة ولما يربطهم من صلة القرابة و رحم من جهة أخرى.

وعند التفاوض يلجأ الرحل إلى إستعمال وسائلهم المعرفية للتأثير على صاحب الحصيدة فهم بالرغم من إدراكهم أن بقايا مخلفات أغنامهم (البريو) سماد طبيعي جد نافع للأرض إلا أنهم لا يثيرون ذلك بشكل مباشر معه و يعمدون إلى استعمال معان توحي بنفس المعنى فهم يقولون مثلا:

" *هذي غنمنا تجيب معاها الخير* " أو " *لرض لي دور فيها لغنم تنزل فيها البراكة* "
أو " *الشاة بارك فيها ربي و النبي* "

وهذا طبعا كي لا يستفزون الطرف المتفاوض معه لتكون تلك العبارات معان إيحائية وتذكير غير مباشر بالفوائد التي تنتج عن رعي الغنم لتلك الأرض يقول أحدهم:

"على بالك الكاميو تاع لغبار وحدو إيدير زوز حتى ثلاث ملاين و أحنا هنا الله غالب لازم نسايسو" (س.ك).(أنظر الصورة رقم: 08)

أما فيما يخص أصحاب الأراضي فقد استطعنا أن نلحظ موقفين جد متباينين فيما يخص كراء هذه الحصائد فملاك الأراضي الكبار ممن يحرصون على الفلاحة و يمارسونها بشكل دائم يسهلون الأمر في هذا الشأن لإدراكهم و تثمينهم أهمية رعي الغنم على أراضيهم وهذا لما تتركه فيها من منافع، فلا تتفاوت مطالبهم 1000 دج للهكتار الواحد أو يبرمون إتفاقا مع المرتحل بأن يضموا له عدد من رؤوس أغنامهم يقوم برعيها طيلة تواجده بالمكان فهذا " س، ك " من السوامع قام بضم 28 رأس لأحد الملاك إلى قطيعه مقابل استفادته من رعي 15هكتارا طيلة فصل الصيف أما النوع الثاني فهم أغلب المستفيدين من أراضي التعاونيات الجماعية سابقا ، هؤلاء يقومون باستئجار الأراضي كمراعي ربيعا و صيفا و هم يحرصون على جني أكبر استفادة ممكنة من

ذلك فلا يهمهم في الغالب إن تنتفع الأرض من سماد طبيعي من مخلفات الأغنام أو لا بل يفرضون مقابل استغلال الهكتار الواحد 3000 دج أو أكثر، و في الربيع قد يصل ثمن كراء المرعى إلى أكثر من 20.000 دج (مليوني سنتيم) خاصة إذا كانت الأعشاب غثة و الأمطار وفيرة و هذا النوع من أصحاب الأراضي والذين لا تتعدى استفادتهم أكثر من 20 هكتارا كثيرا ما يعزفون عن ممارسة فلاحة الأرض و يفضلون إستئجارها للرحل او سواهم من الفلاحين الكبار لكون مردودها يتفاوت من سنة إلى أخرى وقد يكون منعدما في سنوات الجفاف ناهيك عن المصاريف التي ينفقونها في هذه العملية لذلك فهم يفضلون كراءها بأغلى الأثمان الممكنة لزبائنهم، لهذه الأسباب يعمل الرحل جاهدين على ربط علاقات وطيدة مع ملاك الأراضي الكبار كي لا يضيعوا فرصة الاستفادة من مرعى الصيف وكذا إمكانية الحصول على عمل مأجور عند هذا المالك خلال عملية الحصاد وجمع المحاصيل دون التعرض لجشاعة أولئك المستفيدين الصغار.

7- مضارب الخيام:

يختار الرحل موضع خيمهم في هذه الحصائد بعناية فائقة حيث تكون في منأى عن الأنظار أولا وبعيدة عن الطرقات و أماكن المرور قدر المستطاع ثم يتم تثبيتها بما يعرف بـ" لماذق" في مكان مرتفع نسبيا (الجنابي) لكي لا تكون في وجه الريح مباشرة و هم يعرفون متى تهب هذه الرياح ومن أين تأتي هل هي" قبلية" أو "ظهرية" لذلك نجدهم كثيرا ما يغيرون مواقع خيامهم في المكان الواحد عدة مرات كما أنهم يتجنبون أماكن الوديان كي لا تفيض عليهم في حالة سقوط الأمطار فعادة ما تكون علامة إنغمار مكان ما بالمياه عدم وجود فأر الحقل به و هي دلالة على عدم صلاح ذلك المضرب لحط الرحال فيه:(أنظر الصورة رقم: 09)

"المضرب تاع البيت لازم إكون بعيد على العينين، اغطيها الجنابي من الريح... في الصيف تتحط من جيهة وو كي قرب الخريف نبدلوها للجيهه لخرى على حساب الريح منين تجي من القبلة ولا من الظهرة، لبلاصة لي يغمرها الماء والا طريق الواد مانحطوش فيها نعرفوها بالفار مايدورش فيها خلاص "(س.ك).

8 الرعي:

يبدأ رعي هذه الحقول بسياقة القطيع في الصباح الباكر إلى الجهة الغربية منه قبل الجهة الشرقية وهذا كي لا تقابل الغنم مطلع الشمس وضوئها الشيء الذي يمكن أن يؤثرا سلبا على مردودية إنجابها ونفس الشيء عند الغروب فالراعي يوجهها بعناية إلى الجهة الشرقية كي لا تقابل هبوطها لنفس السبب :

" لغنم باش تاوم لازم ما تقابلش الشمس خلاص في الصباح ولا في لعشية، ماهيش مليحة ليها، الصباح نغربو بيها وو يبقى الراعي سارح بيها وو يمشي حتى تولي الشمس في وسط السما ثمه يدورها و ولي راجع بيها، كي يوصل للبيت تكون الشمس مسات وو رعي الصيف طول من رعي الشتاء " (س.ك).

وقد أثبتت دراسات جد حديثة حقيقة تأثير الضوء وتغيراته على مدى إفراز هرموني التكاثر البروجستيرون والأوستروجين لدى الأغنام [1] حيث تم تعريض أربع مجموعات منها بعدد عشر نعاج وكبش واحد لكل عينة إلى ظروف مختلفة من عوامل الضوء المتغيرة كدرجة السطوع، عدد ساعات الاختبار، نوع الضوء المسلط و تعريضه بشكل مباشر أو غير مباشر على عين الشاة فجاءت النتائج تؤكد أهميه الضوء ودوره الأساسي في عملية الإخصاب وتوصي في نفس الوقت بعدم تعريض المواشي بشكل مباشر للضوء الباهر[2].

كما أن الراعي الخبير العارف بأسرار الرعي يجب أن يعامل الشاة بحرص شديد وعلى غرار احدث الطرق في تربية الحيوانات التي تنادي بأهمية تدليلها كي تعطينا أحسن النتائج يقول لك الراعي البسيط من البدو :

"الشاة خليها تقيل ما تقلقهاش، وكلها مليح وو شربها مليح، كون تخلعها ما تاومش"(س.ك).

أي أنها لن تلد خروفين في حالة عدم العناية بها بشكل جيد والظروف الملائمة فقط في رعيها هي الكفيلة بإعطاء نتائج حسنة عند ولادتها.

---

(1) http://www.ovins.fsaa.ulaval.ca/projets_ovins Le 20/01/2009 à 11h 02min .
(2) Ibid.,

وبشكل عجيب يجول الراعي وسط غنمه جولتين فيفصل نعاجها التي وضعت عن غيرها من القطيع كي يعيدها راع آخر إلى الزريبة بالقرب من الخيمة حيث يؤتى بالخراف حتى يتسنى لها رضاعة أمهاتها، و أما باقي القطيع فيساق عند العودة على أرض لينة فيثير سحابة من غبار تبدأ النعاج في العطاس الشديد على أثرها و الغاية من ذلك أن تستخرج الغنم من أنوفها كل الطفيليات والحشرات التي جمعتها حين رعيها و هذا أحد البياطرة (ب.م) يشرح لنا أهمية هذه العملية فيقول:

" إن هذا العطاس مهم جدا كي تتخلص الشاة من كل أنواع الطفيليات والبيضات وإلا صعد ذلك الطفيلي إلى أعلى جبهتها فيتكون دود بتلك المنطقة الحساسة يجعل الشاة تسلك سلوكات غريبة وهذا المرض يسمى بيطريا ب:Cénurose ويعرف في أوساط العامة بالجنون فيقال النعجة المجنونة ".

هذه الإحترافية* التي نجدها عند الرحل إنما هي دلالة على خبرتهم الواسعة بمهنة الرعي وهي تتجسد أكثر في حراسة الشاة وإبعادها عن أي خطر ممكن، فالغنم مثلا عندما تبدأ في تحريك جسمها بعنف يعرف الراعي أن المطر قادمة لا ريب فيسارع بالعودة بها:

" إذا السعاية تنفضت راهو جاي لمطر، يزرب الراعي يدخل بيها باش ماتحكمهاش النو، وو كاينة نوْ من نوْ، كاينة لي تضر وو كاينة لي ماتضرش على حساب الشهر لي رانا فيه. " (س.ك).

أما موقع الراعي من الغنم فيكون دائما من الجهة المعاكسة لهبوب الريح لأن الذئب يأتيها من تلك الجهة وهو يتربص القرفصاء ولا يدع الفرصة إلا ونال من غريمه الراعي.

" الذيب ديما إيجي تحت الريح باش ما تشموش لغنم والراعي لازم يوقفلو بينو وو بينها، و الراعي تاع الصح إشم الذيب شمان.. ريحتو كيما ريحة العتروس وو ناتنا عليه شوية" (س.ك).

* حتى أنه يقال:أن الرعي في الجزائر للعربان والغراسة للقبائل.

وفي حالة ضياعها ليلا فإن أمر تتبعها سهل على الرحل فهم يسيرون عكس هبوب النسيم ويصعدون المرتفعات لإيجادها:

"*الغنم لكان طلقت تاع روحا تعطي وجها لنسمة و تهرب لذراع لجبل*"(س.ك).

9 فراسة الرحل وحذرهم :

للبدوي المرتحل كذلك فراسة ما بعدها فراسة فهو يميز شاته عن غيرها من الشياه بطريقة مشيها وأثر حوافرها على الأرض وهو قد يتعرف على سارق غنمه أو المار بالديار ليلا فقط بالإعتماد على آثار أقدامه ولتقديم برهان على صحة ذلك طلب منا أحدهم ترك آثار أقدامنا في مكان معين ثم قدم إليها وقال "هاذي تاعك وو هاذي تاعك" مشيرا إلى أثر كل منا وقد تكررت العملية دون أحذية فكانت النتيجة سواء ويروي لنا الرجل أن عمه عرف سارق بطيخته بعد مرور سبع سنوات عن ذلك، وروى لنا أنه في أحد الأعراس بينما كان يتناول الشاي رأى شخصا من أهل العريس وقد كان منهمكا في تقديم الطعام للضيوف فأيقن من طريقة مشيه أنه الفاعل فامسك ذراعه وهم به صارخا :

" *ماجيتش جيهة لمغير هاذي سبع سنين خليت البل** *تاعك على جيهة ودخلت جناني نحيتلي الدلاعة لعزيزة*** *كليت ربعها وو طيشت الباقي وو تمشي وتكركر في رجليك، عندك سنة من تحت مكسرة وو سنة من الفوق مكانش ولا خلصولك من تكسار لعوا*****د*" (س.ك).

فاندهش المعني من ذكر كل تلك التفاصيل وما كان منه إلا أن أقر بفعلته وطلب الصفح والتكفير عن ذنبه مقابل أن يطيب خاطر الضيف بما يشاء، ومما كان يحدث كذلك في المغير أن السارق يسرق ليلا فيؤتى به صباحا إلى القاضي فيسال هذا الأخير كيف عرفتم أنه السارق فكانوا يخبرونه أنه ترك أثارا له بالمكان فلم يكن القاضي ليقتنع بتلك الحجة، فقرر ذات مرة أن يذهب

* البل: الإبل.
** الدلاعة لعزيزة:البطيخة التي تخصص لإستخلاص البذور.
*** أي أنه كان يستعمل عودا في تنظيف أسنانه من بقايا اللحم.

بنفسه ليسرقهم ويجرب فراستهم المزعومة؛ وفي الغد لما حضر الضحية ومثل أمامه لتقديم شكواه إستحى أن يتهمه على الملإ، ولما أصر القاضي في معرفة الفاعل هذه المرة قال له الأعرابي:

" *سارق نعجتي يقعد قعدتك وو يحكم حكمك وو يعدل عدلك وو ما يامرلي غير بخير منها* "(س.ك)

فما كان من القاضي إلا أن إستسلم لفراسة الرجل؛ وهذه فطنة ونباهة يتميز بها الرحل عن غيرهم وقد أتى ابن خلدون على ذكر ذلك في مقدمته من إختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشا عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم [1]وقد نعت أهل البوادي بالفطنة وحدة الذكاء وأن أذهانهم أثقب في المعارف والمدارك، وهو يرجع ذلك إلى نوع غذائهم المقتصر على الألبان والتمور دون "أهل الأقاليم المخصبة في العيش الكثيرة الزرع والضرع والآدم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم"[2].

كما يحذر الرحل أشد الحذر من الأغراب فهم شديدو المراس لا يخالطون من لا يجانسون وقد علمتهم التجارب وتمرس الحياة خبرة الناس ومعرفة طبائعهم فلا يأمنون جانب الغدر من أي احد:

"*ما تامن ما دير لمان ، معريفة عام ماشي معريفة، كاين ناس عرفناهم حياتنا كاملة وو تخدعنا فيهم* "(س.ك).

10- هاجس العام:

يكون الرحل في غاية السعادة والطمأنينة عندما تشبع غنمهم وتكتفي من تلك المراعي التي إستأجروها فيستبشرون خيرا بعامهم الذي من خلاله تتيسر كل أحوالهم:

""*العام المليح باين و العام الشحيح باين كيجينا عام مليح... عامين ما نبيعوش غنمنا، والعام لمليح إجيب خوه* "(س.ك).

[1] عبد الرحمن بن خلدون،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي الشأن الأكبر ، دار الفكر، بيروت، 2003، ص.96.
[2] المرجع السابق، ص.97.

ولهم دلالات في ذلك يتفاءلون بها أو يتطيرون منها و يتشاءمون أيما تشاؤم من إشارات قد توحي بقدوم الجفاف وهم قد خبروا ذلك من الأولين ومن تمرسهم الحياة وتقلبهم في الأرض ولا يقتصر هذا الترقب والإستشعار على البدو الرحل في الجزائر فحسب بل إننا نجد في الهند[1] كذلك نفس العادة تقريبا إذ يقدم الأرز للبقر في وقت محدد من السنة فإذا أقبلت عليه وأكلته كانت تلك إشارة حسنة وإن حدث العكس وأحجمت البقرة عن أكله عد ذلك علامة سيئة لعام مقبل شديد، أما الرحل هنا فيراقبون الشاة في حركتها وسكونها:

"النعجة لا كان كانت راقدة أوجا البريو تاعها مفروق هاذاك عام خير أو لاكان جا مجمول هذاك عام أوخيذة " (س.ك)

وهم يراقبون كذلك بعض الظواهر الطبيعية التي تحدث في فصل الصيف فيضعون قطعة من

الصوف على الخيمة ليلة منتصف الصيف فإذا وجدوا بها قطرات من الندى في الصباح الباكر تفاءلوا خيرا بذلك العام ويسمى هذا اليوم "عنصلة":

" 39 يوم في الصيف يجي نهار هادي إقولولو عنصلة و الناس المولوعين بيه ما يخدموش فيه وو يقعدو يسناوه وو يراقبوه، يبخرو وو ما يدخلوش السانية، لكان ندات الصوف..العام عام خريف " (س.ك).

وللبدو كذلك علامات أخرى يعرفون بها كثرة الكلأ من قلته:

" كي يهملوا النمامشة* هذاك عام شر، لكان جا العام ناقص عندهم يسمى من وو من... راهو ما كاين والو" (س.ك).

تبدأ رياح شديدة في الهبوب أواخر شهر أوت دلالة على قدوم الخريف فتعجل بتعرية الحقول من التبن المتبقي بها فيلجأ الرحل من جديد إلى شراء الأعلاف لتدعيم قطعانهم، ويسوء الأمر أكثر بالنسبة لهم عندما لا ترتفع أسعار الأغنام في السوق مما يضاعف من إمكانية زيادة تكاليف الإنفاق ثم إن الرجوع إلى الصحراء لا يزال بعيد المنال والأمطار لم يحن بعد زمن تساقطها هناك،

[1] http://www.ovins.fsaa.ulaval.ca Le 20/02/2009 à 10h 21m.

* يتموقع النمامشة بجهة الأوراس فإذا تنقلوا لطلب العشب إلى مكان آخر فتلك علامة سيئة للرحل و دليل واضح عن شح العام وجدبه.

لكن نزول بعض الغيث هنا في التل و ظهور علامات الإخضرار على وجه الغبراء يزيل أخيرا بعض همهم فيتنفسون الصعداء فقط برؤيتهم لذلك العشب وترتسم على وجوههم علامات الإستبشار.

11- السوق:

وبعكس الماضي البعيد فان سلوكيات الرحل قد تغيرت بشكل كبير فيما يخص التردد على الأسواق فقبل المرحلة الاستعمارية كانوا لا يقصدونها إلا مرة واحدة في السنة [1] ، لأنه من أهم الخصائص التي كانت تميز الترحال التقليدي هو الإبتعاد قدر المستطاع عن المـدن و أسواقها لتحقيق غايته الإقتصادية التي كانت تتمثل في ثلاث متطلبات أساسية[2]:

- 1- تحديد الإنفاق إلى أقصى حد مكن.
- 2- التنقل المستمر.
- 3- الإبتعاد عن السوق قدر المستطاع.

وهذا ما كان يردده الرعاة في الماضي " العيد أوقيدة الدار الجيدة و السوق البعيدة"[3] ثم تطور بعد ذلك تردد الرحل على المدن حتى وصل إلى 15 مرة في السنة أثناء الحقبة الكولونيالية بسبب الإستقطاب و الدور الذي أصبحت تلعبه هذه الأخيرة في ظل تغير مراكز القرار و المفاهيم العمرانية و الاقتصادية الجديدة التي فرضها الاستعمار الرأسمالي (تعميم التعاملات النقدية) أما اليوم فقد أصبح هذا التردد شبه يومي خاصة من طرف الأب. (أنظر الصورة رقم: 10)

11-1- العرض والطلب:

يتردد الرحل على السوق الأسبوعية ببلدية عين عبيد بشكل دائم ومستمر فهم إما جلابة أو سواقة، في الحالة الأولى يقومون بجلب عدد معين من غنمهم على متن شاحنة لغرض بيعها ويرتبط سعر الماشية بقاعدة العرض و الطلب فكلما نقص المرعى يضطر الرحل و حتى غيرهم من أصحاب المواشي القاطنين بالمنطقة إلى بيعها كي يؤمنوا العلف لبقية القطيع وعندما يكثر العرض ينتج عنه إنخفاض في الأسعار والعكس صحيح ففي حالة توفر المرعى لا يضطر الكاسب إلى البيع وبالتالي يقل العرض مما يؤدي إلى إرتفاع أسعار الماشية واللحوم على حد

---

(1) M'hammed Boukhobza, Monde Rural, Contraintes et mutations, Op. Cit., p.47.
(2) Ibid., p.31.
(3) Ibid.

سواء، وكثيرا ما يكون تساقط الأمطار حافزا هاما لرفع تلك الأسعار دفعة واحدة، أما في السنوات الأخيرة فقد تعقدت الأمور أكثر فأكثر بظهور اللحوم المجمدة المستوردة التي أغرقت السوق بها وبأثمان جد منخفضة جعلت الطلب على اللحوم الحمراء الطازجة المحلية يتراجع بشكل ملحوظ كما أن إنتشار إستهلاك اللحوم البيضاء وبشكل واسع لعب دورا هاما في تراجع أسعار الماشية وحتى العزوف عن شراء الصوف التي كانت تستعمل في حياة الناس بشكل واسع وإستبدالها بمواد بديلة أثر بشكل مهم على القيام والحفاظ على هذه الثروة الحيوانية وعاد بالضرر على الموالة منهم.

11 2 البيع والشراء: (أنظر الصورة رقم: 11)

يعرض الراحل غنمه في السوق أمام المارة وهو ينادي كلا باسمه:

" يا فلان أرواح نبيعلك "

فهو يعرف في الغالب جل أهل السوق من جزارين (الجزارة) أو ممن يعيدون البيع (عوادة السوق) :

" أحنا هنا نعرفو كل بعضانا، أنا نعرف الجزار وو نعرف معاود السوق " (س.ك)

وهو أثناء ذلك يتفنن في إظهار محاسن أغنامه للشاري ويدعوه أن يجسها كي يعرف مدى سمنتها ثم يبين له أسنانها فهي إما "رباعية" أو "سداسية"* دلالة على عمرها وطراوة لحمها فيقوم الزبون من جهته بوضع يده على ظهرها وإدخال أصابعه بين ضلوعها وفوق عمودها الفقري من جهة المؤخرة أو يمسك ذيلها كي يتحسس الأماكن الدالة على السمنة في الشاة وحسن هيئتها وقد يقوم

أيضا برفعها من إحدى قوائمها الخلفية كي يحدد بالتقريب وزنها وبعد ذلك يتفاوضان على تحديد سعرها وذلك بالمزايدة على من قبله إذ يقول الشاري:

"*واش عطاوك في هاذي*" أو " واش سمعت في هاذي"

* يسمى الخروف كذلك ما بقيت أسنانه متساوية فإذا سقطت له اثنتان منها واستبدلهما بأخرى اكبر بقليل سمي ب"الثني" أما إذا غير أربع أسنان فيسمى "رباعي" أو "علوش" ثم إذا كانت عدد الأسنان المستبدلة ستة سمي "سداسي" أو كبشا وعندما يستكمل باقي الأسنان يسمى "القارح" أو "الشارف" وتحدد كل مرحلة من هذه المراحل عمر الشاة و قيمتها التجارية في السوق.

ويضع يده على شاة بعينها [*] فيجيبه البائع " *هاذي أعطاوني فيها كذا* " ويذكر الثمن الذي إقترحه آخر قبله وإن كان هو أول المترددين فيقول له " باب ربي " أو "ما ساموش" فيأخذ معه ويرد محاولا إسترضاءه بنفس الثمن بقوله:

"أعطيهالي بهاذي السومة، راهي ماتجيبلكش كثر... ربحلي"

فيرد عليه البائع رافضا بعبارة معروفة:

"أشري تربح "

عندها يزيده عن السعر سالف الذكر شيئا فشيئا حتى إذا ما حصل الإتفاق على البيع ونطق البائع قائلا:

" الله يربح "[**]

يخرج الشاري مقصه[***] لينزع قطعة من الصوف دليلا على إنتهاء الأمر وقد يقوم من لا يملك مقصا بنتفها نتفا خفيفا بيده، أما كبار الموالة فيعلمونها بصباغ خاص بكل واحد منهم كل بطريقته حتى أنها تصبح مع مر الزمن معروفة بأنها علامة "فلان" فتكون له بعد ذلك بطاقة تعريف للهوية بين التجار و رأس مال إجتماعي في السوق:

" *الراجل إيبيع وو يشري بوجهو*[****] *وو بكلمتو، كي تعود معروف فالسوق*
وو عرضك مليح ما تحتاجش للسوارد " (س.ك)

يقال في السوق "الغنم اليوم برطيط "، أي أنها بأرخص الأثمان، وعندما يكون سعرها مرتفعا يقال "الغنم اليوم ما تتقاسش" وفي الحالتين يقوم المرتحل ببيع كل رؤوس التي جلبها أو بعضا منها ثم يتجول في السوق يقضي حوائجه من خضر و فواكه و غيرها بما يكفيه للأسبوع القادم أما

---

[*] أما في غرب البلاد فيضع الشاري يده على يد البائع بشكل مبسوط ويقوم باقتراح ثمن الشاة والبائع يردد على مسمعه عبارة "أشري" ..أشري" دلالة على عدم رضاه وعندما ينطق الشاري بالسعر المناسب يشد البائع على يده علامة لتمام البيع، ووضع اليد على اليد هي أيضا إشارة للآخرين بعدم التدخل في العملية فإذا رفع هذا يده يعني أنه لا يريد الشراء فيقدم آخر يده ليضعها على يد للبائع.

[**] بعدما ينطق البائع بهذه العبارة يتم البيع ولا يمكن له التراجع بأي حال من الأحوال عن ذلك حتى ولو كان خاسرا.

[***] لهذا السبب يردد الناس كثيرا عبارة " كلمة وو قص " حينما يريد أحدهم الفصل في أمر ما.

[****] يتداول في السوق كذلك عبارة " وجه لخوف معروف " دلالة على أن البدوي يعرف بفراسته ويميز بين شر الخلق وأحسنهم.

السواقة منهم فهم من يقومون بالتسوق فقط، وحاجيات الرحل في واقع الأمر لا تنقطع فهم دائمو التبضع في السوق اليومي للمدينة.

12- المدينة:

لقد أدى الإحتكاك المستمر بالمدن إلى تطور حاجيات البدو الرحل في كل نواحي الحياة الإستهلاكية منها خاصة، كما أنهم أصبحوا يقلدون أهل المدن في الكثير من أمور الحياة فقد أصبحت اليوم الغلبة للحضر دون البدو وإنقلبت الدنيا على زمن عزهم حيث كان كل أمل الحضري ومناه أن يكون بدويا مرتحلا أو أن يكتسب من محامد الأخلاق و شيم الرجال ما كان لهم و قد كان الرجل من البدو عندما يريد أن يهين زوجته يقول لها "يا بنت الحضري" أما الآن فهذه العبارة إختفت و أصبح يقول لها "يا بنت الراعي"(1)، لقد صارت الخيم كتحصيل حاصل لا تبتعد كثيرا عن المدن (أنظر الصورة رقم: 12) ، إذ أن الترحال أصبح يعتمد كذلك عليها بشكل أساسي ويتخذها ملجأ له(2)، لذلك نجدها اليوم(أي الخيمة) و قد أصبحت في فصل الصيف مشهدا من مشاهدها المألوفة وحتى نسوة الرحل صرن كذلك يتسوقن بشكل إعتيادي إلى محلات المدينة التي تبيع آخر الموضات وهن يجتهدن أيما إجتهاد في مجاراة طريقة لباس النساء الحضريات والأولاد أيضا أضحوا يعزفون عن اللباس التقليدي ويرفضون أن يضعوا الشاش أو أن يحملوا العصي بأيديهم خاصة إذا دخلوا وسط المدينة " الفيلاج " حتى أن أحد الرحل حينما إشترى لابنه دراجة ثارت ثائرة الجد الذي تحفظ على الأمر قائلا:

" هاذي وين راح يلعب بيها هاذي؟؟، في لحصيدة !!!... ماتحكملوش يوم " (س.ك).

و يبقى الإنسان كما يقول ابن خلدون" مولع بتقليد الغالب في كل أحواله من ملبس ومأكل ومشرب فالإعتقاد بالكمال فيه أمر قد جبل عليه نفسه"(3) .

13- الرجوع إلى الصحراء :

كان الرجوع في الماضي من التل إلى الصحراء يسمى لعزيب و هو من الأهمية التي يكتسيها الصــعود إلى التل "العشابة" وإن كانـت معظم الكتابات ترتكز أكثر على حـــــركة العشابة و هذه

(1) M'hamed Boukhobza , L'agro- pastoralisme traditionnel en Algérie, Op. Cit., p.154.
(2) Denis Retaille, Conception nomade de la ville, In.U.R.B.A.M.A., N°.20, Tours, France, p.23.
(3) عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص.149.

الأهمية لم تكن في أهمية هذا التنقل في حد ذاته و إنما للأهمية التي يعرفها التل دون الصحراء لكن هذه العودة بالنسبة للرحل حدث خاص من كل النواحي بالإضافة إلى الجانب الاقتصادي فالحنين إلى الصحراء قد بلغ أوجه فيقولون: "أحنا مروحين" (أنظر الصورة رقم: 13) وهذه العودة تبدأ مع بداية البرد في الصحراء و زوال موجة الحر الشديد بها و يكون الحال أحسن ما يكون عليه عندما تتساقط الأمطار بها، فهي بشرى لتوفر الماء و الكلأ هناك أيضا و الحدرة لا يكون إلى مكان بعينه في الجنوب وإنما تكون بنفس منطق الصعود إلى التل أي الذهاب إلى المكان الذي يمثل مجالهم الطبيعي فقد يرجع شبه الرحل إلى مكان محدد لهم به سكن ونشاطات أخرى محددة وسنأتي للتفصيل في ذلك في فصل خصصناه للرحل وشبه الرحل، كما أن بداية الموسم الفلاحي بالتل يدفعهم إلى شد أمتعتهم لأن الأراضي التي يحتلونها يجب أن تخلى لغرض حرثها. أما ما يخص زمن حدرتهم في ما يسمى لوقات ولحساب فيقولون :

"إذا هب المرزم أرحل وأعزم... من دار الصيف... مابقى مصيف" (س.ك).

والمرزم نجم يعرفونه يظهر في الصيف بعد 73 يوما من بدايته، أما آخرون فيبسطون القضية بقولهم :

"كي يرحل بلارج نرحلو"*

فهذا الطائر دليلهم على إنتهاء موسم الحر في التل و بداية موسم البرد وهو وإن طال مكوثه لا يتجاوز عتبة الأيام الأولى لشهر جانفي و يقولون على لسان هذا الطائر المهاجر:

"كون نزيد نهار في ينار يتلاحو عظامي في النار"(س.ك).

*البلارج هو اسم عامي لطائر مهاجر هو اللقلق الأبيض الكبير ذا العلامات السوداء على الجناحين، منقاره احمر وقدماه وساقاه بلون قرنفلي محمر. يعيش هذا الطائر في آسيا، شمال إفريقيا وأوروبا في فصل الصيف وفي إفريقيا وشمال الهند في فصل الشتاء، يعود هذا الطائر كل سنة إلى نفس العش وهو أيضا طائر وفي لا يتزوج إلا مرة واحدة. يوجد 17 نوعا من اللقالق في العالم، تتغذى على الحشرات، الضفادع،الزواحف، صغار الطير وصغار الحيوانات الثدية، اغلب أصناف اللقالق تبحث عن طعامها في المستنقعات والوديان.

الخلاصة:

لم تفقد حركة البدو الرحل طابعها التقليدي فيما يخص تزامن الصعود أو القدوم إلى التل فببداية فصل الربيع يتسابق الرحل إلى الشمال بحثا عن الكلأ لأغنامهم في المناطق التي عهدوا شد المتاع إليها في مثل هذا الوقت من كل سنة بعد ضمان مرور التقلبات الجوية التي يمكن أن تحصل في فصل الربيع خاصة خلال شهر مارس الذي يعرف بتساقط الثلوج في هذه المنطقة فيقول الناس هنا " *مغرس بو الثلوج*"، و هذا كي لا تتعرض أغنامهم إلى موجة برد فتاكة قد تؤدي إلى هلاكها، فالمعروف أن الشاة لا تتحمل درجات الحرارة الجد منخفضة، وللبدو الرحل كذلك حسابات يعرفونها جيدا بما تراكم لديهم من خبرة في معرفة أحوال الطقس في هذه الفترة من السنة بما يسمى " حساب عرب " أو "الوقـات لحساب" ؛ و لأن المناطق الرعوية تكون في فصل الربيع منحصرة على الجبال و سفوحها و بعض القطع الفلاحية التي تخضع للراحة "العطيل" فإن التنافس يكون محموما للفوز بهذه الأراضي خاصة إذا كان العام شحيحا من حيث تساقط الأمطار.

يبدأ توافد أولاد عيسى و أولاد دراج مع تحسسهم إرتفاع درجة الحرارة في التل إلى تخوم غابات عين برناز و سفوح جبل مسطاس التي تقع كلها شمال عين عبيد والتي تعرف محليا بالساحل في خطوة أولى لترصد المراعي الشاسعة التي تقع جنوب البلدية والمعروفة بصراوات برج مهيريس و لكحالشة كبار وهذا طبعا للفوز بتلك الحقول بعد عملية الحصاد، أما قبل ذلك فهم يحاولون تمضية الربيع مستغلين المراعي الجبلية و تخوم الغابات في فرصة لتمضية هذه الفترة دون تكاليف و أعباء تثقل كاهلهم و تسمح لهم في نفس الوقت بجز صوف أغنامهم مع نهايات شهر ماي في أحسن حال، ومع بداية موسم الحصاد يبدأ الرحل اتصالاتهم مع أصحاب الأراضي للتفاوض من أجل إستغلال الحصائد و كذا شراء كميات "البال" التي يقومون بنقلها في شاحناتهم إلى الجنوب بغرض تخزينها كإحتياط من العلف لأغنامهم أو إعادة بيعها في السوق بأثمان مضاعفة و لأن موسم الحصاد قد يتأخر قليلا عن عادته لأسباب مناخية (عدم نضج القمح بسبب تأخر موجة الحرارة) فإن قلق الرحل يبدو واضحا للإسراع في التنقل إلى الجهة الجنوبية للمنطقة هروبا من الحشرات الضارة التي تستيقظ في مثل هذا الوقت كالقراد و البرغوث والتي تزحف على الأغنام من الجبال و الغابات، هذا ناهيك عن إزدياد نسبة الرطوبة بتلك المناطق الأمر الذي يجعلهم يستعجلون بإبعادها في أسرع ما يمكن لحمايتها من الأمراض والأوبئة.

يتفاوض الرحل مع مالك الحصيدة لتحديد ثمن الهكتار أو كما يسمونه " لقطار"، وقد يتم استئجار هذه الحصائد بشكل جماعي أو فردي هذا يرجع فقط إلى شساعة تلك المراعي و كذا الثمن الذي اتفق عليه، وحتى و إن تم الكراء الجماعي فتقسيم هذه الأراضي لا مناص منه بينهم ثم يجري بعد ذلك تعيين مجال مرعى كل واحد منهم حسب قيمة المبلغ المدفوع من طرفه و كذا الإحتكام لرأي كبير الجماعة، بعدها يضربون خيامهم في أماكن يختارونها بعناية فائقة ثم يزاولون رعي أغنامهم باحترافية مشهود لهم بها وهم في كل ذلك لا ينأون بعيدا عن المدينة التي أصبحوا يترددون عليها بشكل دائم وعلى أسواقها اليومية أو الأسبوعية حيث يبيعون أغنامهم ويشترون حاجياتهم من مأكل وملبس فلقد أدى الإحتكاك المستمر بالمدن إلى تطور حاجياتهم في كل نواحي الحياة الإستهلاكية ، كما أنهم أصبحوا يقلدون أهل المدن في كل شيء.

لقد أخذ الترحال اليوم شكلا أكثر فردانية تلاءم مع كل مرحلة من مراحل التغيرات العقارية التي طرأت على وضعية الأرض وأصبح أكثر إنسجاما لمحتوى متطلبات العصر التي تدور تجذباتها حول المدن والأسواق.

الفصل الخامس:

الرحل وشبه الرحل

اليوم

تمهيد:

إن محاولة الفصل بين الرحل و شبه الرحل أمر جد معقد أيضا سواء كان ذلك في الماضي أوالحاضر فحالة الترحال الدائم لا توجد في حقيقة الأمر بشكل مطلق، فالرحل كثيرا ما يضطرون للتموقع و السكون لوقت قد يطول في بعض الأحيان في مكان معين (حول بئر أو واحة) خاصة خلال السنوات التي يعتريها الجفاف، وإذا كنا نعرف شبه الراحل بأنه هو من يقيم عدة شهور من السنة بالقرب من بستانه ، فهل يكون كذلك من يقيم الصيف و الخريف في الواحة و لا يملك أي بستان ؟ هل الراحل الحقيقي هو الذي لا يأتي إطلاقا إلى الواحة؟[1] كيف يمكن أن نصنف اليوم الماكثين في التل لفترة الربيع و الصيف من السوامع وأولاد عيسى هل هم رحل أم شبه رحل؟ .

1- المقاييس الكلاسيكية:

يرى البعض أن التفريق بين هذين النمطين من الترحال إنما يكون على أساس الدوام و الاستمرار في التنقل طوال أيام السنة مع ممارسة الرعي فقط بالنسبة للرحل و التنقل المؤقت خلال فترة محددة بالنسبة لشبه الرحل مع اعتمادهم على الزراعة إلى جانب الرعي في نشاطهم الاقتصادي[2] ، بمعنى المكوث و الاستقرار لمدة معينة عادة ما تكون الصيف و الخريف في الواحة أين يملكون النخيل و البساتين[3] و يرى آخرون أن التفريق بين الحالتين إنما يكون اعتمادا على قياس مدى التنقل و الحركة فإذا كان هذا الترحال على مسافات محدودة كان من النمط الثاني أو نصف رحل [4]، لكن اليوم و مع الاستعمال الواسع للشاحنة لم يعد هذا التنقل يمثل في حد ذاته قياسا لذلك و حتى من يمارس الرعي دون غيره من النشاطات أصبح يمتلك منزلا في المدينة (بالجنوب) يقيم فيه خلال مدة من السنة أو على الأقل يقيم فيه جزء من عائلته بينما يقوم الجزء الآخر بمرافقة القطيع غير بعيد عن ضواحي الإقامة وهذه الفترة عادة ما تكون في الخريف و الشتاء و يكون أهم أسباب هذا الإستقرار الجزئي تمدرس بعض الأبناء.

---

[1] Cauneille.A, Les chaânba (leur nomadisme), Edition CNRS, Paris, p.139.

[2] د.صلاح مصطفى الفوال، علم الاجتماع البدوي، ج1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،2005، ص373.

[3] Cauneille.A, Les chaânba (leur nomadisme), Op. Cit., p.143.

[4] M'hamed Boukhobza, L'agro- pastoralisme traditionnel en Algérie, O.P.U, Alger, 1982, pp.16-38.

إذن و كما رأينا فالمقاييس التي نعتمدها لوضع تصنيف معين بين هؤلاء و هؤلاء يمكن أن تتغير شكلا و مضمونا مع تعقد الحياة ووجود مستجدات في عالم الترحال بصفة عامة، لذلك إرتأينا حسب ما عايناه ميدانيا أن نقترح مجموعة مقاييس أخرى أكثر موضوعية سواء من ناحية ملاحظاتنا من الخارج أو ما إلتمسناه من رؤية المبحوثين للصور التي يتمثلونها عن أنفسهم وعن توجهاتهم و آمالهم.

2 المقاييس الموضوعية:

نقصد بالمقاييس الموضوعية تلك المقاييس التي أمكنتنا ملاحظاتنا الميدانية إعتمادها ظاهريا حتى يتسنى لنا تحديد معالم تصنيف معين.

2 1 الخيمة (البيت):

لم يكن في الماضي التفريق بين الرحل و شبه الرحل على أساس الخيمة أو البيت * أمرا واردا لأنها كانت تمثل مسكنا رئيسيا لكلا الجماعتين و أكثر من ذلك فهي رأسمال إجتماعي وعلامة للانتساب و مدعاة للفخر والإعتزاز، يقول الأمير عبد القادر في هذا الشأن:

الحسن يظهر في بيتين رونقه بيت من الشعر وبيت من الشعر (1)

و يضيف:

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر وعاذلا لمحب البدو والقفر
لا تذمن بيوتا خف محملها وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر (2)

لكننا اليوم نستطيع أن نلاحظ ميدانيا مدى تباين هذه الخيم من ناحية حجمها (صغيرة أو كبيرة) أو من ناحية حـــالاتها المختلفة (إن كـــانت جيدة أو متردية و مـــــرقعة بالبلاستيك ام لا) كما

* يطلق البدو الرحل الوافدين على منطقة عين عبيد اسم البيت أو البيوت على الخيمة بيما يسميها الرحل في غرب البلاد (تيارت، البيض) بالخيمة.
(1) برونو إتيين، عبد القادر الجزائري، ترجمة المهندس ميشيل خوري، الديوان الوطني للنشر والطباعة،الجزائر، ط2 2001، ص07.
(2) المرجع السابق، ص.72.

لاحظنا أن البعض تخلى عنها بشكل نهائي و عوضها بالقيطون، هذا التباين سمح لنا بتصنيف أولئك الذين لا يزالون يحافظون على الخيمة حفاظا تاما بالرحل الحقيقيين (أي أولائك الذين لا يزالون يعيشون حياة الترحال الكامل) لأن الخيمة عندهم لا تزال تمثل مسكنهم الرئيسي طيلة السنة فهي لا تطوى إلا خلال مدة تنقلهم و هم يقومون على تجديدها دوريا حيث تحرص المرأة خاصة على نسيج الفليج* عن طريق السداية** لتستبدل غيرها كل سنة أو لتقوم بتوسيعها و هو عمل تقليدي تقوم به كبيرات السن من المرتحلات فيستعملن في ذلك الصوف وشعر الماعز و هما مادتان يوفرهما القطيع عادة فلا يكلف تجديد الخيمة إلا جهد تلك النسوة، أما بالنسبة لساكني القيطون*** و الخيم المتردية فقد عزفت نسوتهن عن هذا العمل التقليدي بسبب ما صار لديهن من سكن قار فلا يتخذن هذه الخيم إلا كسكن استثنائي يمضين فيه فترة تواجدهن في التل مع أزواجهن و بذلك يهمل الاعتناء بالخيمة شيئا فشيئا حتى تتهالك أو تستبدل بالقيطون مرة واحدة وهؤلاء هم على الأرجح شبه رحل لهم عند عودتهم إلى الصحراء نشاطات أخرى غير الرعي. ميدانيا فقد استطعنا إحصاء الخيم والقواطن الموجودة على تراب البلدية كما يلي :

2 1 1 خيمة أولاد سايح :

يفد أولاد سايح إلى عين عبيد من منطقة سيدي الشيخ بالمغير ولاية ورقلة وهم يسكنون خيما صغيرة سوداء، مرقعة بأجزاء من البلاستيك وهي في الواقع بقايا خيم قديمة كانت لآبائهم الذين كانوا يمارسون حياة الترحال في الماضي، يحيط بالخيم المتجمعة ثلاثة، ثلاثة بعض من الماعز والدجاج، ونجد أيضا بعض الأحمرة التي تستعمل في جلب الماء، الخيم المتقاربة نسبيا هي لعائلة واحدة (أبناء العم)، خمسة متر بين كل خيمة وأخرى والمتباعدة نسبيا (20 إلى 25 متر) هم من نفس المنطقة ونفس العرش (أولاد سايح) (أنظر الصورة رقم: 14).

* الفليج أو الفليجة عبارة عن شريط عرضي متفاوت المقاييس والألوان (حسب كل قبيلة وكل بطن) وهو الأساس الذي تتكون منه الخيمة و الجزء الذي يتم تجديده في حالة إهترائها.
** السداية آلة تقليدية تستعمل لحياكة الخيمة أو الزرابي أو غيرهما من حوائج الملبس والغطاء.
*** القيطون هو خيمة إصطناعية، وقيطن يعني أنه أخذ أكثر فأكثر على المكوث وقلل من الحركة لذلك عادة ما يكون القيطون علامة لبداية الإستقرار والتخلي عن حياة الترحال بشكله القديم.

" اللي قراب يدخلوا لبعضاهم واللي بعاد ميدخلوش لبعضاهم" (س.ك).

وهم يأتون إلى منطقة عين عبيد لتمضية عطلة الصيف هروبا من حر الصحراء الذي لا يطاق

"حنا جينا صيافة برك، ماحناش رحل تاع الصح " (س.ك).

ويقول بعض الشباب الذين وجدنا منهم المعلم والأستاذ الجامعي بسيارته البوجو 206:

" نحن نأتي لمنطقة عين عبيد لسببين: أولهما التمتع بهوائها النقي والبارد في الصيف وثانيها لأن كبارنا سنا يحنون إلى حياتهم القديمة فهم يأتون ليجمعوا بقايا السنابل ويقومون بدرسها ويعتنون أيضا ببعض الماعز" (س.ك).

والحالات الثمانية من خيم أولاد سايح كانت كلها في حالة سيئة ومتردية إذ أنهم أهملوا صناعة الفليج وإعادة تجديده ومعظمهم اليوم أصبح يستأجر مساكن بقرية برج مهيريس بصراوات عين عبيد كي يمضي فصل الصيف بعيدا عن قيض الصحراء وحسب ولا يكادون يمارسون في غضون ذلك أي نشاط معين فلق جاؤوا إلى هنا فقط لغاية الراحة و الإستجمام ولا علاقة لهم اليوم بحياة الترحال القديمة إلا ما تبقى من آثارها كوجود تلك الخيم البالية التي يصر بعض الشيوخ على التمسك بها حتى تفنى.

والملفت للنظر كذلك أن أولاد سايح يستهلكون الشاي بكثرة و يعيدون أدراجهم إلى الجنوب قبل الدخول المدرسي لأن جل أبناؤهم متمدرسون.

2- 1 2 خيمة أولاد عيسى :

أولاد عيسى الذين يتفرعون إلى إثنى عشر بطنا منهم أولاد عيفا، أولاد لعور، أولاد ملخوى كلهم يرجعون إلى قبيلة أولاد نايل المعروفة وهم يسكنون خيما كبيرة حمراء تصل مساحتها إلى أكثر من 216م^2، كاملة المنظر دلالة على الاعتناء الشديد بها وهي خليط من الصوف ووبر الماعز (الصورة رقم: 15)، نجد في بعض الأحيان تجمعا لهذه الخيم يصل إلى العشرة وكأننا أمام قبيلة حقيقة (دوار)، تتعدى رؤوس الأغنام للبيت الواحد (الخيمة) أربعمائة رأس وهم يستأجرون لرعيها مساحات شاسعة جدا "هاذ العام كرينا 600 هكتار بـ 60 مليون".

ونلاحظ أيضا وجود خيم صغيرة عبارة عن قيطون صغير لا يبعد كثيرا عن الخيمة يستعمل لإستقبال الضيوف، كما أن الزريبة تكون ملتصقة بالخيمة كي تسمح للراعي من حراسة الغنم ليلا وفي القديم كما قيل لنا كان الراعي ينام وسط غنمه وقد يستعمل حبلا يربط به التيس كي يتحسس أي خطر يحوق بالقطيع، وعن اللون الأحمر الذي تتميز به الخيمة النايلية عن سواها من الخيام فقد روي لنا أن سيدي نايل تنازع مع إخوته الذين ظلموه و أخذوا حقوقه فقرر الرجل هجرهم بشكل نهائي و استبدال لون خيمته السوداء باللون الأحمر :

"الخيمة الحمرة أصلها كانت كحلة، وو سيدي نايل كي خرجوا خاوتو عليه الطريق هجرهم وو بدل لون بيتو" (س.ك).

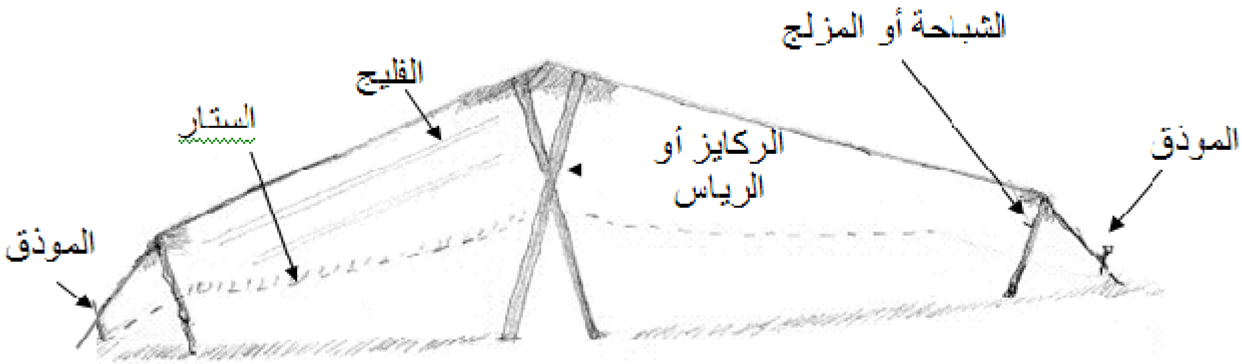
لا يزال أولاد عيسى يحافظون على الخيمة ويجددون فليجها بشكل دوري ودائم (تقريبا كل سنة) وهذا ما تحققنا منه في كامل حالات الخيم الحمراء الثمانية والعشرون لأنها ببساطة مازالت تمثل بيتهم الرئيسي الذي يؤويهم أثناء ترحالهم طوال السنة.

2 1 3 خيمة أولاد دراج:

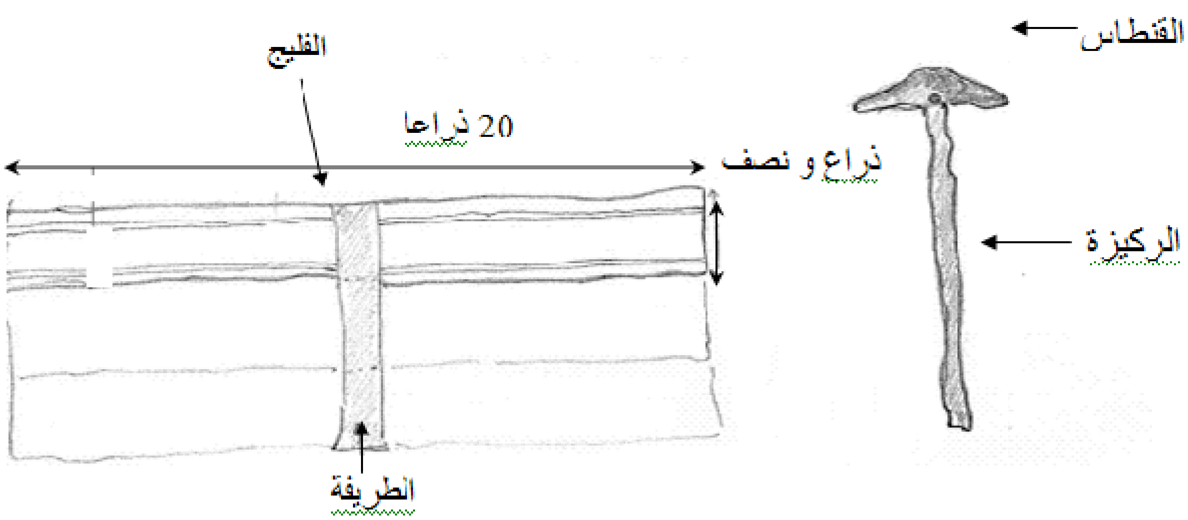
أما أولاد دراج فخيمهم أصغر نسبيا (50 م^2) (الصورة رقم :16) وهي سوداء اللون وتقسيم الفضاء عندهم لايختلف كثيرا عن خيمة أولاد عيسى وهم بدورهم يتفرعون إلى عدة بطون منهم أولاد سحنون، الضحاوي، لعثامين، أولاد خضرة، أولاد سيدي محمد والسوامع ومن بين 43 خيمة وجدنا 13 خيمة جد متردية عرفنا بعد التحري أن أصحابها لا يملكون القطيع بل يعملون كمستأجرين مقابل أجرة شهرية تتراوح بين 6000 دج و 12000 دج وهذه القطعان لا تتعدى في الغالب المائة رأس بعكس الخيم الكاملة زاهية اللون التي يملك أصحابها أكثر من 300 رأس نجد أيضا شاحنات من نوع سوناكوم تربض أمام بعض الخيم وهي تستعمل في نقل المواشي والرحيل وكذا في البحث عن الكلأ وارتياد الأسواق لبيع الماشية وقد يستأجرها بدو آخرون مقابل تقديم نفس الخدمات. و نجد القيطون أيضا عند البعض من أولاد دراج الذين استغنوا بشكل كامل عن الخيمة "لأن الخيمة تاع الصح راحت" ويقصدون بذلك الخيمة المصنوعة من وبر الإبل التي تمنعهم حر الشمس وتساقط الأمطار وهي وإن وجدت فهي باهظة

مكونات الخيمة

خيمة أولاد عيسى



خيمة أولاد سايح



- تستعمل في الخيمة الكبيرة ركيزتان على شكل (X) لتخميد و تخفيف حركة الخيمة أما في الخيمة الصغيرة كخيمة أولاد سايح و أولاد دراج فنجد ركيزة واحدة يعلوها جزء متحرك يسمى "القنطاس" و هو أيضا موضوع لنفس الغرض الأول أي إخماد الحركة كي لا تتمزق الخيمة بفعل الرياح.
- يعزز الجزء الداخلي من الخيمة شريط يوضع بشكل عرضي كي يقوي الجزء الأكثر عرضة للحركة و يسمى الطرقية.
- يستعمل"الموذق" لتثبيت الخيمة من جميع أطرافها الخارجية أما "الشباحة" أو "المزلج " فهي لشد الجوانب الداخلية للخيمة كي تجعلها مرتفعة.
- يتفاوت قياس الفليج حسب كل خيمة و هو يتراوح بين ذراع و نصف إلى ذراعين عرضا و 20 ذراعا إلى 24 ذراع طولا.
- الستار هو الجزء الذي يرفع من أمام الخيمة و خلفها كي يشكل مدخلا.

الثمن (50 مليون سنتيم)*، وقريبا من القيطون نجد الزريبة التي هي عبارة عن سياج على شكل دائري تبيت فيه الأغنام كما نجد الكثير من المعالف دلالة على أنهم يستعملون بكثرة العلف الاصطناعي للتسمين.

من هذه المعطيات نستطيع تصنيف أولاد سايح كصيافة توطنوا بسيدي الشيخ و لمغير بولاية الوادي معظمهم له أعماله القارة لا يمارسون الرعي إلا بشكل استثنائي ولهم في الجنوب بساتين و واحات، خيمهم آخذة في التردي بسبب قدمها وعدم الحرص على تجديدها كما نجد أيضا بعضا من أولاد دراج (خاصة السوامع) الذين تخلوا بشكل كلي عن الخيمة وآخرون منهم كذلك خيمهم جد متردية و مرقعة بالبلاستيك و هؤلاء لهم منازل في بسكرة أما من بقية خيمهم في حالة جيدة من ألاد سحنون ، السوامع و أولاد عيسى فهم لا يتخذون غيرها سكنا طيلة السنة و هذا ما يؤكد إمكانية اعتمادنا على جودة الخيمة للتفريق بين الرحل و شبه الرحل.

كما لا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن كلا من الصنفين(أي الرحل وشبه الرحل) أصبحنا اليوم نجدهما في العشيرة الواحدة و حتى داخل العائلة الواحدة .

2 2 الارتباط بالأرض:

إن إرتباط البدو الرحل بالأرض موضوع في غاية الحساسية، فلقد أراد الاستعمار الفرنسي إستغلاله من أجل إثبات عدم شرعيتهم في إمتلاكهم هذه الأراضي لأنهم ببساطة قوم يفتقدون الإحساس بها ودوافعهم للتمسك بها ضعيفة مما قد يسهل أمر التخلص منهم ماديا و قانونيا، لذلك إفترض الفرنسيون بادئ الأمر أن وجود هؤلاء الرحل في شمال إفريقيا إنما هو في حد ذاته إحتلال لها من طرفهم[(1)].

لقد تحول مصطلح الرحل و شبه الرحل إلى مساحة لمعركة سياسة وإيديولوجية خاضها كل من رافعي لواء الاستيطان الفرنسي من جهة والمدافعين عن طبيعة و نمط حياة الترحال من جهة أخرى، دارت رحاها حول مفهوم الارتباط بالأرض؛ ما معناه و كيف يتصوره كل من الطرفين،

* متوسط تكلفة المتر المربع من فليج الخيمة المصنوع من الوبر يقدر ب:10000 دج أي ملين سنتيم.
(1) M'hammed Boukhobza, Monde Rural, Contraintes et mutations, O.P.U, Alger, Novembre 92, pp.20.

هل يعني ترك الأرض لمدة معينة، طويلة كانت أم قصيرة، يعني بالضرورة التخلي عنها و فقدان الحنين إليها ؟.

يستدل المؤيدون لطرح إستئصال البدو الرحل في مواقفهم إلى سهولة تخلي هؤلاء الرحل عن مجالاتهم الحيوية حين الأزمات السياسية (الحروب)، الأمراض و المجاعات و سنون القحط، كما حدث لبني هلال و بنو سليم القادمين من أقاص الأرض إلى المغرب العربي تاركين وراءهم بلادا بأكملها؛ و لكن ألم يترك هؤلاء المستوطنون من فرنسيين، ألمان، إيطاليين وغيرهم بدورهم بلدانهم و جاءوا إلى غيرها ؟؟. أولم يفضل بنو هلال وبنو سليم* سكن صحراء

كصحرائهم[1] دلالة على حنينهم لتلك الأوطان من ورائهم ؟ ألم تكن التغريبة في ذاكرتهم المتواترة خير دليل على أن استعمال مفهوم الارتباط بالأرض قد يتسع عند البعض ليعني الوطن و حتى الأمة و قد يضيق عند البعض الآخر كي لا يعني أكثر من الانتماء إلى منطقة جغرافية بعينها، و إذا كان البدو الرحل قد عرفوا بارتباطهم بقطعان مواشيهم أكثر من ارتباطهم بالأرض (بمفهومها الزراعي) فقد عرفوا أيضا بذودهم اللامحدود و اللامتناهي عن حمى هذه الأوطان خلال حقبة الاستعمار و غيرتهم على هذه البلاد بكل ما يحمله هذا الإحساس من معاني التضحية و الفدى "إن الأمكنة لا تصنعها الأزمنة بل يولدها الوجدان لأنها سر من أسراره، وخاصية من خواصه، ومتعة من متعه الحسية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية"[2] وهذه إحدى البدويات تنشد في هذا المعنى مطربة[3]:

* من أشهر الهجرات العربية إلى شمال إفريقيا هي الهجرة الهلالية (بنو هلال) في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي و تعرف " بالهجرة الهلالية " في التراث الشعبي العربي ، فيما يصفها ابن خلدون بانتقال العرب إلى أفريقيا . و تعرف كذلك "بالهجرة القيسية " نسبة إلى أن اغلب القبائل المهاجرة تندرج تحت الفرع القيسي من العرب العدنانية و بالرغم ان بني هلال و بني سليم شكلوا اكبر القبائل المهاجرة إلا أنها ضمت قبائل هوازنية أخرى كشجم و سلول و دهمان و المنتفق و ربيعة و خفاجة و سعد و كعب و سواءة و كلاب و قبائل قيسية كفزارة و أشجع و عبس و عدوان و فهم و قبائل مضرية كهذيل و قريش و تميم و عنزة بل و قحطانية كجذام و كندة و مذحج، وقد كان بنو هلال وبنو سليم و من جاء معهم من القبائل يقيمون في المنطقة الممتدة بين الطائف ومكة وبين المدينة ونجد، وشاركوا في الفتوحات العربية الإسلامية،إلا أنهم احتفظوا بتقلهم و طابعهم البدوي في الجزيرة العربية حتى تاريخ هجرتهم 440 هـ . واستقرت هذه القبائل في شمال أفريقيا، وشاركت هذه القبائل في الحروب والفتوحات والصراعات السياسية والعسكرية التي قامت في المنطقة وفي حوض المتوسط، وكان لها الأثر الحاسم في تعريب شمال أفريقيا.

(1) Youssef Nacib, Une geste en fragments, Publisud, Paris, 1994, P32.
(2) (www.ulum.nl/d213.html) le 14/05/2009 à 17h 20m.
(3) (www.almithnab.net/forum/index.php?showtopic=14074) le 12/04/2009 à 10h 23m.

لبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إلي من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني

أحب إلي من لبس الشفوف

وأكل كسيرة في كسر بيتي

أحب إلي من أكل الرغيف

وأصوات الرياح بكل فج

أحب إلي من نقر الدفوف

وكلب ينبح الطراق دوني

أحب إلي من قط أليف*

وبكر يتبع الإظعان صعب

أحب إلي من بعل زفوف

وخرق من بني عمي نحيف

أحب إلي من علج عنوف

خشونة عيشتي في البدو أشهى

إلي نفسي من العيش الظريف

فما أبغي سوى وطني بديلا

فحسبي ذاك من وطن شريف.

ونحن في هذا المقام و دون الخوض في متاهات هذه المفاهيم نريد أن نستعمل قياس الارتباط كمجرد مؤشر دال على خاصية التنقل و مداه دونما سوا ذلك من الخوض في الأحاسيس ومدارك القلوب و العقول ، فمن مجمل ما استطعنا ملاحظته في هذا السياق احتفال الرحل بإقامة الأعراس و الختان في التل و كذا دفن موتاهم بأماكن ترحالهم و هذه سلوكات قد استفردوا بها عن غيرهم من القاطنين الذين يحرسون على إقامة احتفالاتهم من أعراس و ختان

* لم نجد لدى جميع الرحل الذين أجرينا معهم هذه الدراسة ولا قطا واحدا والسبب في ذلك يرجع إلى كون هذا الحيوان يركن للمكان ويألفه وعند الرحيل يرفض الانتقال وهو كما وصفه احدهم " حيوان حضري ".

و دفن لموتاهم بأماكن سكونهم أو بما يسمى مسقط الرأس. و هنا نرى كيف يكون الارتباط بالأرض معنى مخالف عند الجهتين فبينما هو أساسي عند الحضر و المزارعين يكون ثانويا عند الرحل بشكل عام.

2 2 1 إقامة الأعراس بالتل: (أنظر الصورة رقم: 17)

يحرس الرحل من أولاد عيسى و السوامع على إقامة أعراسهم* في منطقة عين عبيد في فصل الصيف فهو من الناحية الزمنية أنسب الأوقات لإقامة مثل هذه الاحتفالات أما من الناحية المكانية فالتناسب يقع لكون هؤلاء الرحل يجتمعون في مثل هذه المنطقة في مثل هذا الوقت من كل السنة و دون ذلك فهم متفرقون في أنحاء شتى و متباعدة من البلاد.

يقوم صاحب الزيجة بدعوة ** أقاربه و حتى معارفه من أهل المدينة في عين عبيد إلى مأدبة عشاء تمتد طيلة أسبوع كامل عند مضاربه، تقدم خلالها أطباق "الجاري" نهارا عند الغداء و قصعة "الكسكسي" المرصعة بقطع اللحم الكبيرة عند العشاء كما تقوم الخيل باستعراض جميل و متناسق للفونطازيا تعيد إلى الأذهان سابق عهدهم بالخيل و الفروسية و ينطلق البارود في السماء ممتزجا بالزغاريد تعبيرا عن الفرحة العارمة بالزيجة.

تنتصب غير بعيد عن الخيمة الكبيرة قيطونات خاصة بالشباب المدعوين وهي أبعد نسبيا عن قيطونات الكبار وهذا حتى يتسنى لهم أخذ كل حريتهم فيما يفعلونه من رقص وقهقهة وزهو الشيء الذي يمتنعون عنه بشكل كلي أمام كبارهم لأنهم يوقرونهم أيما وقار حتى أنهم لا يستطيعون مجالستهم أوحتى الخوض في أحاديثهم لذلك نجد الكبار من جهتهم يتركون هذه الفسحة لهم ويعملون على الابتعاد عنهم وتجاهلهم.

* يقيم الرحل عادة أعراسهم تزامنا مع اكتمال البدر حتى يكون المكان مضيئا وتتشاءم العروس وأهلها من احتمال حجب الغيوم للقمر فهو فأل غير حسن ونجد في التراث البدوي أغنية تغنيها العروس في هذا المقام حزنا على حظها التعيس فتقول: " في ليلة عرسي غابت القمرة" ونفس التشاؤم نجده أيضا عند الحضر لما تنقطع الكهرباء .

** التخلف عن الدعوة بالنسبة للرحل أمر لا يغتفر وقد تكون عواقبه وخيمة تذهب إلى حد قطع العلاقات بينهم لان عدم تلبية الدعوة في حد ذاته إشارة إلى وجود إشكال ما خاصة إذا كان الأمر يتعلق بأقرب الأقربين، أما إذا كان هذا الغياب له مبرراته الموضوعية فعلى المعني أن يزور أهل العرس في قرب وقت ممكن وهو يحمل بين يديه هدية تعيض ما كان منه من تقصير وتظهر حسن نواياه في كل الأحوال.

"*أحنا les jeunes مانقدروش نقعدو مع الشيوخ هوما عقلية وأحنا عقلية، ماتقدرش تشطح ولا تقصر قدامهم...عيب وو زيد احنا نقادروهم بزاف*" (س.ك).

هؤلاء الشباب الذين يسترسلون في الرقص على طريقتهم على أنغام الأغاني الصحراوية مستعملين الديسك جوكي الذي تغذيه كهرباء مولد صغير و يحيطون بالعريس يحثونه على مجاراتهم في كل ما يفعلونه، و هم يلبسون ألبسة عصرية تختلف عن كبارهم الذين لا يزالون يتمسكون بالشاش و القدوارة و العريس من جهته يرتدي "الكوستيم" الذي يميزه عن باقي الشباب بأناقته المتألقة.

بعد تناول الغداء مبكرا (على الساعة العاشرة صباحا) ينتظر الجميع تجمع السيارات لتنظيم محفل استقدام العروس أو ما يعرف "بالكورتاج " الذي يظم سيارات للمعارف و أخرى تم استئجارها، ثم يأمر أب العريس بخروج النسوة للركوب فيها و خلال دقائق تنطلق هذه السيارات التي زينت بالورد و الدبل تدوي بالكلاكسون: "إنها تنبعث من كل مكان وتنتهي بامتزاج بديع، بها يتميزون عن الآخرين، وبتلك الزغاريد المدعمة يعلنون لهم بأنهم يحتفلون"[(1)] وعند الوصول إلى بيت العروس يتم إكرام القادمين بتقديم القهوة و مختلف أطباق الحلوى ثم يتم شحن "شورة العروسة" المتواضعة و البسيطة على متن سيارة من نوع "404 باشي"، بعدها تخرج العروس و هي ترتدي فستانها الجميل (La robe) لتركب أجمل السيارات الموجودة ضمن الموكب و قد ركب زوجها بجانبها ثم يقفل الموكب عائدا إلى بيت العريس و قد زاد محفل الرجوع صخبا بارتفاع الزغاريد و كذا استعمال البارود المدوي والنسوة المرافقات يسترسلن بغناء الظفر والغنيمة " جبناها..... جبناها.....ديناها.....ديناها ".

ومشهد العرس هذا لا يرضي كثيرا الشيوخ الذين تراهم يأسون على الأيام الخوالي حيث كانت العروس تأتي إلى بيت زوجها على هودج بعير و كانت الأفراح تقام لمدة شهر يأكل الناس فيها و يتسامرون .

---

(1) Boulem Souibès, Algérie, terre de contrastes, Edition lablimage, Alger, 2006, p49.

" الدنيا كانت خير من هكذا، كانت الباراكة و الحشمة، لعريس كان يستحي يبان قدام باباه وو خاوتو طوال مدة العرس، أما اليوم عادو ايديرو كيما ناس لمدينة" (س.ك).

أما من كان من شبه الرحل فيدعون بدورهم إلى مثل هذا العرس بحكم علاقاتهم المختلفة مع الرحل فقد يكونون من أهاليهم أو أقاربهم وإنما تكون حياتهم قد بدأت منذ زمن في نحو منحا مختلف للاستقرار النسبي وهم على شاكلة الحضر لا يستطيعون إقامة أعراسهم إلا حيث مساكنهم :

"أحنا عندنا أحبابنا و جيرانا لهيه ما نقدروش نديرو العرس هنا" (س . ك).

فكل شؤونهم و ارتباطاتهم الرسمية حيث بنوا مساكن من طوب و إنما يكون تواجدهم بمنطقة عين عبيد فقط لعوامل اقتصادية ترتبط بالدرجة الأولى برعي أغنامهم و الإشراف عليها لا أكثر.

2 2 2 دفن الموتى:

لدفن الموتى عند الرحل كذلك مدلول يختلف عن غيرهم فيما يخص ارتباطهم بالأرض فهم يتدافنون حيثما حلت عليهم مصيبة الموت:

" أحنا وين نروحو عندنا أهل تحت الأرض في الشرق و لا فلغرب" (س. ك)

وهم يعتبرون كل مقابر المسلمين مقابرهم:

" هذي كلها بلاد ربي و بلاد الإسلام وين يموتلنا واحد ندفنوه" (س.ك)

و زيارتهم لقبور موتاهم تتاح لهم أثناء ترحالهم مرة أو مرتان في السنة . و هذا لا يعني أنه ليس للرحل أماكن مقابر يحبذون دفن موتاهم بها بالقرب من ذويهم بالجنوب خاصة و لكن ظروف حياتهم تمنعهم من ذلك بشكل دائم و مستقر أما بالنسبة لشبه الرحل الذين أخذت حياتهم في الاستقرار النسبي فميولهم إلى دفن موتاهم في مقابر معينة أقوى من الرحل و حين يموت أحد ذويهم فهم يعملون جاهدين على نقله إلى حيث يدفن الأقارب و الأهل و لكن الظروف والقوانين المستجدة بسبب الظروف الأمنية أصبحت تمنع هذا النقل و تفرض الدفن في أماكن

الوفاة إلا في حالات إستثنائية جدا تستوجب الحصول على تراخيص من السلطات الأمنية لنقل الجثة إلى مسافات بعيدة.

2 3 زمن الصعود إلى التل و الرجوع إلى الصحراء:

رأينا في الفصل السابق كيف يتحدد زمن الصعود إلى التل بالنسبة للرحل الذين لا يزالون يحافظون على نمط هذه الحياة بشكله الكامل لكن بالنسبة لشبه الرحل فإن زمن الصعود إلى التل يختلف شيئا ما عن سابقيهم فهم لا يشدون رحالهم إلى عين عبيد إلا بعد انقضاء الموسم الدراسي و دخول الأبناء في عطلة الصيف و أما من يأتي منهم مبكرا فإنما يكون دون رفقة من العائلة التي سرعان ما تلحق به بمجرد بداية عطلة الصيف و نفس الشيء عند الرجوع إلى الصحراء فنصف الرحل يسدلون راجعين قبل انطلاق الموسم بأيام معدودة (شهر سبتمبر عموما) أما الرحل فلا يرتبطون بهذا الموعد إطلاقا * و تكون عودتهم مع بداية موسم الحرث هنا بالتل بداية وموجة البرد أي حوالي أواخر شهر أكتوبر.

2 4 النشاط الاقتصادي:

يميل شبه الرحل إلى ممارسة نشاطات أخرى غير الرعي كالتجارة والزراعة بينما تشكل تربية المواشي وممارسة الرعي النشاط الأساسي للرحل وهم بالرغم من كونهم يمارسون كذلك التجارة أو الزراعة الظرفية** أو بعض الأعمال المأجورة الموسمية إلا أنها تبقى ثانوية أمام اهتمامهم بالغنم وامتهان حرفة الرعي(أنظر الصورة رقم: 18)، و سنرى وبأدق التفاصيل في الفصل الأخير من هذا العمل بأن محور النشاط الاقتصادي عند الرحل يتميز بنوع خاص من تقسيم العمل لا يستثني أحدا من أفراد العائلة المرتحلة والتي تشكل في نفس الوقت وحدة اجتماعية واقتصادية يضطلع فيها الفرد حسب سنه وجنسه بمهام أصبحت تقليدية في عرف البدو الرحل، فالرعي مثلا ينقسم إلى ثلاث دوريات توكل كل دورية حسب الملائمة العمرية لمن

* لا يعني هذا بالضرورة عدم تمدرس أبناء الرحل بشكل مطلق فكثيرا ما يقيم هؤلاء عند أهل لهم مستقرين أو في اقامات مدرسية وجامعية.
** وتسمى أيضا الزراعة البعلية لأنها تنحصر على أنواع معينة من النباتات لا تتطلب الكثير من الماء للقيام بشؤونها ليكون منتوجها جيدا.

جدول رقم: 10

أهـــم المقاييـــس الموضوعيـــة للتفريـــق بين الرحل وشبه الرحل:

	الرحـــــل	شبـــه الرحـــل
الخيمـــة	حالـــة جيـــدة	حالة متردية أو قيطـــون
الارتبـــاط بالأرض	إقامة الأعـــراس بالتـــل عدم وجود مقابر محدودة	إقامــة أعراس بمحل الإقامة وجــود مقابــر محدودة
زمــن الصعـود إلــى التـــل	مع بداية الموسم الحـــر في الصحـــراء و مرور الحســـوم في التـــل	بعـــد العطلـــة المدرسية أو انتقـــال جزئـــي من العائلـــة قبل ذلك
زمـن الرجـوع إلى الصحـراء	مع بدايـــة موسم الحـــرث فـــي التـــل و تساقـــط الأمطـــار في الصحـــراء	مع الدخول المدرسي أو انتقال جزء من العائلة فقط
النشـــاط الاقتصـــادي	رعـــي بشكـــل رئيســـي	الرعي و الزراعة
تنقـــل القطيـــع	تنقـــل دائـــم	تنقل موسمي
تنقـــل العائلـــة	كـــل العائلـــة تتبـــع القطيـــع	جزء من العائلة

المصدر: إنجاز الطالب.

تتناسب قدرته على القيام بذلك العمل[1]:

- الدورة الأولى وتدعى الضحوة وهي دورة الرعي الصباحي وتكون من طلوع الشمس حتى منتصف النهار ويقوم بهذه المهمة الأولاد والبنات الصغار.
- الدورة الثانية وتدعى الظهيرة، تبدأ بعد منتصف النهار إلى الغروب ويقوم بهذه المهمة الصغار والأكبر سنا.
- أما الدورة الثالثة فتدعى السردة وهي فترة ما بعد الغروب وطوال الليل ويقوم بهذه المهمة الكبار لأنها مهمة شاقة وتحتاج إلى سهر وقدرة على الاحتمال ومقدرة على متابعة المواشي وحمايتها من الوحش.

3 المقاييس الذاتية:

يعتقد محمد بوخبزة أن التفريق بين الرحل وشبه الرحل لا يمكن حصره في تصنيف نوع منازلهم أو مدى تنقلاتهم وحسب بل يجب كذلك معاينة ذلك في سلوكياتهم وحتى ذهنياتهم، فليس مجرد سكنهم مساكن من طوب ينفي عنهم نمط حياتهم دفعة واحدة ولا يمكن الحديث إطلاقا عن تحضرهم إلا بعد مرور ثلاث أجيال من استقرارهم[2].

3 1 البحث عن حياة الاستقرار:

يبدي المبحوثون رغبتهم القوية في ترك حياة الترحال و الأمل في تحقيق حياة أفضل عن طريق الاستقرار و التوطن و هم يجمعون أن حياة التنقل حياة شقاء و تعب:

" هذي حياة ميزيرية وشقا، نظافة مكانش ، كي نوض الريح لحوايج كامل اوليو تراب، الماكلة تولي تراب، كي تصب النو ما تقدرش تتحرك " (س.ك).

لكن التخلص من هذه الحياة ليس بالأمر اليسير فهم من جهة لا يملكون الوسائل الممكنة لذلك من خبرة في أداء أعمال أخرى غير الرعي كما أن فرصة تمدرسهم قد ضاعت و قلت بسبب نمط حياتهم الشارد فلا مؤهلات علمية أو تكوينية تسمح في التوجه إلى وظائف إدارية أو

[1] لغريبي نسيمة، تجربة توطين البدو الرحل بالمدينة الصحراوية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة، 2007، ص35.
[2] Boukhobza M'hamed, Op.Cit., p.312.

حرفية معروفة في المدينة، وحتى من لا يمارس الرعي منهم يلجأ إلى العمل المأجور المحدود الدخل * الذي تتيحه المنتوجات الموسمية من حصاد في التل أو جني التمور في الجنوب ويبقى السعي إلى التوطن يشكل للبدو الرحل سرابا أو حلما يسعون لتحقيقه لكن هل مجرد التوطن والحصول على سكن في مكان ما يعني نهاية هذه الحياة ؟.

وحتى هذه الإمكانية لا تجعل من المبحوثين في راحة كاملة لإعطاء جواب محدد تجاه سؤال كذلك محدد... هل في حالة الحصول على السكن القار يتوقفون عن حياة الترحال؟ تبقى الحيرة و التردد بادية و واضحة ثم الإجابة بعد ذلك بلا!!.

3 1 1 العمل القار:

إن أهم شيء يبحث عنه الرحل بالإضافة إلى السكن القار هو العمل القار أيضا الشيء الذي يمكن أن يضمن لهم قوتهم و قوت عيالهم و هذا العمل يشكل في حد ذاته إشكالية عدم توفره أمام الطلب المتزايد عليه و تفشي البطالة حتى في أوساط الجامعيين و المؤهلين لشغل مناصب كالتي يرغبون فيها.

وتبقى إمكانية العمل عند الخواص (القطاع الخاص) تخلو من إمتيازات الشعور بالأمن وتأمين المعاش و كذا التعرض للاستغلال مقابل أجور زهيدة، كل هذا يجعل الرحل في حالة إنعدام وضبابية لرؤية واضحة لمستقبلهم فالغد هو المجهول عندهم و التمسك بما لديهم من خبرة في العيش يبقى الملاذ الوحيد و الأمل الأكثر حظا في مصادفة جميلة قد تغير حياتهم جملة و هذه المصادفة تتوقف على "عام صابة" أي سنة يكون فيها المرعى متوفر بكثرة في الصحراء وترتفع في نفس الوقت أسعار الغنم فيستطيع الراحل ببيعه جزءا من القطيع أن يشتري المنزل والشاحنة و كذلك بستان النخيل فيوفر بذلك أسباب الاستقرار النسبي على الأقل بتحوله إلى حياة شبه الراحل أي ضمان مسكن في الصحراء لتأمين التمدرس للأبناء و الإبقاء على إمكانية التنقل خاصة إلى التل في فصل الصيف لمزاولة الاعتناء بقطيع الغنم، أما عندما تسوء الأحوال و تتعاقب سنوات الجفاف و يهـــتلك قـــــطيع البدوي فـــإن اختيار التوطن و الكف عن التنقل يكون

* أي العمل مقابل أجر يوم واحد لا تلزم هذه الصفة في عرف العمل رب العمل أي التزام قانوني تجاه العامل فهي مجرد تعاقد ظرفي ينتهي بنهاية العمل في ذلك اليوم.

مصيرا محتوما لكنه ليس نهائيا فخبرته في الرعي قد تتيح له من إيجاد العمل عند الموالة* كراع مما يعني العودة من جديد إلى حياة الترحال و في حالات أخرى قد تساعد ظروف بعضهم على الإبقاء على الشاحنة و استغلالها للعمل في النقل فجل الرحل اليوم لهم رخص السياقة الشاحنات مما قد يؤهلهم كذلك لسياقة الحافلات أي في كلتا الحالتين الحصول على عمل يمكنهم من الاستقرار و الدخول في حالة توطين حقيقية.

3 2 الرموز الثقافية:

إن السؤال الذي يطرح نفسه في كل الأحوال أمام هذه الوضعيات المختلفة التي يؤول إليها التحول في هذا المجتمع من رحل إلى شبه الرحل أو إلى التوطين النهائي هو: هل أسس التوازن داخله خاضعة فقط لبنى اقتصادية إنتاجية و توزيعية معينة أم أنها مرتبطة بصفة جدلية وعضوية برموزه الثقافية؟[(1)].

أما الأولى(أي جوانبه المادية الاقتصادية) فهي ولا شك معرضة للتحول و التبدل من سيئ إلى أحسن أو العكس لكن تمزق و تصدع الثانية(أي الجوانب الرمزية الثقافية) فيبقى له آثارا سلبية مؤلمة على حياتهم النفسية[(2)] التي تتنازعها قيم جديدة على حساب القيم المتوارثة عن الآباء والأجداد من فضائل العيش و الكرم و الاعتزاز بالانتماء للعروبة و حياة الشدة و إغاثة الملهوف و الزهد و الشجاعة كل هذا أمام النزعة الجديدة للفردانية و تعميم المعاملات النفعية المبنية على تثمين كل ما هو مادي في عالم الرأسمالية المتوحشة.

3 2 1 الغفارة:

هكذا يبقى الاستقرار النفسي أيضا ضالة الرحل و البحث عن هويتهم التي كان للاستعمار الفرنسي دور كبير في صدعها، إحدى مآربهم و مطامعهم و هم يحيون ذلك بأدنى رموز

* "يعتبر مربي الماشية أن قطيعه هو رأسماله، وتسميته بموال لها مدلولان يعبر الأول عن شخص يمتلك قطيعا كبيرا من الأغنام والثاني عن صاحب مال، لأن الكلمة مشتقة منه وكثيرا ما يستعمل مربي الماشية كلمة المال كبديل عن مصطلح القطيع"(طيب عثمان، الجمع بين تربية الماشية والزراعات المسقية ضرورة أم إختيار في منطقة أقصى شمال الشط الشرقي، إنسانيات، العدد:38، وهران،2007، ص.15.)

(1) Youssef Nacib, Une geste en fragments, Publisud, Paris, 1994, p09.
(2) Ibid.

الانتساب إلى الماضي المجيد، فأولاد أم لخوة من أولاد عيسى مثلا لا يزالون إلى يومنا هذا يؤدون الغفارة * جدهم سيدي نايل إلى سيدي بن خليفة و سيدي عيسى و مقدم كل زاوية يأتي كل صائفة إلى ناحية عين عبيد و يتقدم من كل خيمة حمراء يجدها ليسأل عن حقه، فيعطى لسيدي ابن خليفة الرخلة (العلوشة)** و يعطى لسيدي عيسى الشاة "الشارف"***، ومرد هذا التقليد يعود إلى حكاية يتوارثها أولاد سيدي عيسى بن نايل و يرددونها لأبنائهم و هي أن جدهم نايل كان ذات مرة يجلس مع سيدي بلكحل**** في خيمته و إذ بأربعين فارسا يقصدونه طالبين الغفارة فأشار عليه بلكحل بأن يأمرهم أن يطوفوا بجانب الغنم و من كان له برهان وتبعته شاة فهي له وسيظهر ذلك في الحين، وكان الأمر كذلك، فلم تتبع الشياه أحدا منهم سوى سيدي بن خليفة الذي لحقته الرخلة وسيدي عيسى تبعته "الشارف" فهم من ذلك الحين إلى يومنا هذا تؤدى إليهم هذه الغفارة تقليدا وعطية للتبرك بالجد الولي صاحب البرهان سيدي نايل..

3 2 2 كبير الجماعة:

لا يزال كبير الجماعة على غرار المشيخة في الماضي يحتل مكانة خاصة عند البدو الرحل فهم لا يحتكمون إلا لرأيه ومشورته وهو الزعيم الذي يجتمع الكبار في بيته للتسامر والأنس في سائر الأحوال أو مناقشة قضايا "عرشه" من أمور الترحال ومقاصد الحال أو قد يكون الأمر بت في نزاع بين متخاصمين من نفس القبيلة أو مع غيرهم من السكان يكون فرد أو جماعة منهم طرفا فيه، فهو الذي يمثلهم عند غيرهم و هو الذي يتكلم باسمهم*" اللي ماعندوش كبير يسمى صغير"* (أنظر الصورة رقم: 19)، و يعمل الكبير على تعزيز مكانته وإظهار قدراته أمام قومه فهو الرجل الذي يحل مشاكل كل القبيلة عن طريق اتصال بسيط من الهاتف النقال فهذا احدهم صودرت رخصة سياقته من أعوان الدرك الوطني بسبب مخافة ارتكبها فما كان سوى أن اتصل فعولج الأمر...وفي إحدى اجتماعاته مع قومه طلب مني أن لا اكلم أحدا غيره وعندما كانوا يسألونه : من هذا ؟ كان يجيبهم بإيجاز شديد:" حبيبي دولة".. وكان عندما يركب بجانبي في

* الغفارة معناها السماح وهي نوع من المغارم تفرضها القبائل القوية أو المخزنية على غيرها من القبائل الضعيفة نظير الحماية.
** الرخلة هي الشاة التي بلغت الحول وغيرت سنين من قواطعها العلوية.
*** الشارف هي الشاة التي تجاوزت الأربع سنوات واستبدلت كل أسنانها.
**** سيدي بلكحل هو احد الأولياء الصالحين له مقام عظيم لدى أولاد سيدي نايل.

السيارة يطلب مني أن أمر أمام جماعته و يتظاهر انه مشغول جدا ويخاطبهم أثناء ذلك "*آني رايح هنا برك، ضرك نولي، واحد مايتحرك راني جاي*" ، وهم من جهتهم يقرون انه رجل المهمات الصعبة الذي يعرف الناس في كل مكان وله علاقاته المتشعبة وله خبرة الحياة الواسعة:

""*الكبير* * *يعرفها كل، واصل..والو مايغيبلو، يعرف لجماعة، ماكانش مشكل مايحلوش، الناس تروح للمحمة عام مايفضوهاش، هو في جماعة هاك أنت هاك أنت يفريها وي يفضل حق لعشا*" (س.ك).

3 2 3 الحصان:

و لا يقتصر هذا الإحياء على محاولة تمجيد رموز الذاكرة الجماعية فحسب بل إن الحفاظ على الجانب المادي الموروث من أعماق التاريخ له دور مهم في الحفاظ على هذه الشخصية فالحصان مثلا بالرغم من فقدانه كل مبررات وجوده لدى الرحل إلا أنه لا يزال يمثل ثقلا ثقافيا ذا دلالة رمزية كبيرة وهم يسعون جاهدين لامتلاكه و ضمه للقطيع مع ما يمكن أن يشكله من عبء و تكلفة مادية إضافية زهاء علفه والعناية به (2كغ من الشعير يوميا) إلا أنه بالمقابل يحتفظ بمكانة كبيرة لديهم، فهو رمز للعروبة والأصالة، كما أن البركة في أذيالها وحيث حلت الخيل حل الخير معها، و قد أمكننا مشاهدة هذه الخيل في مناسبات الزفاف عند أولاد عيسى يستعرضونها في فنطازيا احتفالية رائعة كما رأيناها ترعى بالقرب من بعض الخيم الحمراء وهي أيضا دلالة على أن مالكيها من أغنى القوم:

"*هاذوك ناس لا باس بيهم، يقدرو على لكسيبة تاع العوْد، وو هما ناس عربان، احبو الخيل وي هيمو بيها هيام، يتفاخرو بيها، و يقلك اللي مايكسبهاش ماوش عربي تاع الصح*" (س.ك).

وهذا يتناسب تماما مع ما كان يبديه الأمير عبد القادر من إفتخار وحب للخيل:[(1)]

لنا المهاري وما للريم سرعتها　　　　بها وبالخيل نلنا كل مفتخر

*يقول لك كبير القوم أن بيته (خيمته) هي البيت لكبيرة وعندما تريد زيارتهم " أقصد البيت الكبيرة لاكان ماتعشيتش تبات لدفا".

[(1)] برونو إتيين، مرجع سابق، ص.70.

فخيلنا دائما للحرب مسرجة من استغاث بنا بشره بالظفر

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحدا وأي عيش لمن قد بات في خفر؟

كما قد تكون هذه الإشارات أيضا دلالة على إستمرار حياة الترحال بمعناها التقليدي أو على الأقل الحنين إليها والطموح إلى إحياء مآربها (أنظر الصورة رقم: 20).

3 3 الرحل الحقيقيون:

يجمع الرحل من أولاد عيسى أن السوامع قد خطوا خطوات مهمة في حياتهم فهم اليوم يملكون مساكن في الصحراء (حي العاليا ببسكرة خاصة)، و معظمهم يدرس أبناءه و لهم كذلك تجارة وأعمال قارة في مناطق عديدة من الوطن:

" *السوامع فايقين علينا وو متقدمين علينا، معظمهم توطنوا، أولادهم قاريين، وو كسبوا تجارة وو بحاير ، عادوا لاباس بيهم* " (س،ك).

وبالمقابل يرى السوامع أن أولاد عيسى لا يزالون يحافظون على حياة الترحال الحقيقية وفضائلها القديمة، فهم أهل كرم و شهامة و نخوة، يتحدثون عنهم بإعجاب واضح:

" *أولاد عيسى مازالوا عربان رحالة، مازال عندهم النيف، يقومو بالضيف وو يفرحوا بيه، مازالت عندهم الجماعة وو متعاونين، الحر تاعهم ينفض...اقلقو جارو غدوة يهز يرحل ماتلقاهش، لخر فيهم مادي ثلاث نسا ، الراجل هو لي يحكم، المرى ماعندهاش وين تتحرك، راسوا وو راسها في لخلا، لمن تشكي؟، تقلقو يتكي يذبحها، وحنا تهدر معاها تروح لجدرمية تشكي بيك* " (س.ك).

"الرحلة فيها سبع منافع،
تعلمك معرفة الناس وو لوطان،
تعلمك كيفاش تكون حر نفسك... سلطان ،
الأرض ارض ربي هو مول القوة... الرحمن،

ترتاح كي تسرح فالبلدان،
رزقك رزق الطير
قال ربي تروح خماص تغدو بطان
معرفة الرجال كنوز
عقلك هو ميزانك" (س.ك)

ويبدو أن أولاد عيسى ليسوا إلا صورة لما كان عليه رحل السوامع في الماضي البعيد ولظروف ما كان تغير السوامع وتأقلمهم مع معطيات الحياة الجديدة ومستجداتها أسرع قليلا من نضرائهم أولاد عيسى فابتداء بتغير تكوين الأسرة الذي أصبح لا يعرف تعدد الزوجات* إلى القابلية الشديدة للتوطن خطى رحل السوامع خطوات مهمة سواء للتخلي نهائيا عن حيا ة الترحال أو اختيار الحل الثالث وهو حياة شبه أو نصف الترحال ويبدو كذلك أن نفس المسار سيعرفه تبدل الأحوال عند أولاد عيسى وهم يمثلون على حد التعبير البورديوزي (نسبة الى بورديو Bourdieu) مخبرا حقيقيا لتتبع هذه التغيرات الحاصلة اليوم داخل مجتمع البدو الرحل.

* يرجع كبر خيمة أولاد عيسى الذي يتراوح بين 140الى250م^2 إلى تعدد الزوجات فلكل منهن جناحها ويقول لك العيساوي "اللي مادي مرا وحدة أعور" أي انه يرى الدنيا بعين واحدة بينما صغر الخيمة عند السوامع (60إلى 120م^2) فيعود إلى الإكتفاء بالزوجة الواحدة.

الخلاصة:

كان التفريق بين الرحل و شبه الرحل يتم وفق معايير كلاسيكية أساسها الأول قياس الدوام و الاستمرار في التنقل طوال أيام السنة مع ممارسة الرعي فقط بالنسبة للرحل و التنقل المؤقت خلال فترة محددة بالنسبة لشبه الرحل مع إعتماد هؤلاء الزراعة إلى جانب الرعي كنشاط إقتصادي مكمل، مما يعني إستقرار لمدة معينة عادة ما تكون الصيف و الخريف في الواحة أين يملكون النخيل و البساتين و يرى آخرون أن التفريق بين الحالتين إنما يكون اعتمادا على قياس مدى هذا التنقل و حركيته فإذا كان هذا الترحال على مسافات محدودة صنف ممارسوه كنصف رحل أما إذا كان مداه كبيرا أعتبروا رحلا بأتم معنى الكلمة ، لكن اليوم و مع الاستعمال الواسع للشاحنة لم يعد مدى هذا التنقل ودوامه يمثلان قياسا لذلك و حتى من يمارس الرعي دون غيره من النشاطات أصبح يمتلك منزلا في المدينة يقيم فيه خلال مدة معينة من السنة؛ لذلك ونضرا للتداخل الذي يعرفه اليوم نوعي الترحال من رحل وشبه رحل ارتأت هذه الدراسة معاينة مقاييس أكثر دقة للتفريق بين الصنفين، فكان أولها الخيمة التي لم يكن في الماضي التفريق على أساسها بين الرحل و شبه الرحل أمرا واردا لأنها كانت تمثل مسكنا رئيسيا لكلا الجماعتين لكنها اليوم أصبحت تشكل تباينا واضحا بينهما فالبعض تخلى عنها بشكل نهائي ليعوضها بالقيطون وهم على الأغلب الشبه رحل أما البعض الآخر فما زال يحافظ عليها حفاظا تاما لأن الخيمة عندهم لا تزال تمثل مسكنهم الرئيس طيلة السنة فهي لا تطوى إلا خلال مدة تنقلهم و هم يقومون على تجديدها دوريا أما المقياس الثاني فتمثل في مناقشة مفهوم إرتباط كلا من الصنفين بالأرض حيث لاحظنا أن إقامة الأعراس بالتل و دفن الموتى حيث حلت بهم الموت سلوكيات يتميز بها الرحل عن غيرهم من شبه الرحل الذين أصبحوا من جهتهم أكثر إرتباطا بالأرض على شاكلة المتوطنين من أهل المدن والقرى لا يحتفلون أو يتدافنون إلا حيث كانت مساكنهم. المقياس الثالث يتعلق بزمن الصعود إلى التل والعودة منه إلى الصحراء فبالنسبة للرحل الذين لا يزالون يحافظون على نمط هذه الحياة بشكله الكامل فمواقيتهم لشد الرحال إلى الشمال تتبع حسابات تقليدية تسمى "حساب عرب" تحمل مفهوما ثقافيا خاصا عن الزمن وتعلقه باختبار المناخ والعلم بأحواله أما بالنسبة لشبه الرحل فإن زمن الصعود إلى التل يختلف عن سابقيهم فهم لا يشدون رحالهم إلى عين عبيد إلا بعد انقضاء الموسم الدراسي و دخول الأبناء في عطلة

الصيف و أما من يأتي منهم مبكرا فإنما يكون دون رفقة من العائلة التي سرعان ما تلحق به بمجرد بداية عطلة الصيف و نفس الشيء عند الرجوع إلى الصحراء فهم يسدلون راجعين قبل انطلاق الموسم الدراسي بأيام معدودة أما الرحل فلا يرتبطون بهذا الموعد إطلاقا و تكون عودتهم مع بداية موجة البرد. أما المقياس الرابع فيخص نوع النشاط الإقتصادي الذي تمارسه كلا من الجماعتين وهو مقياس قديم جديد لكونه يناقش فوارق المستجدات والتفاصيل التي أصبحت أكثر تداخلا من ذي قبل،

لقد بقي شبه الرحل يميلون إلى ممارسة نشاطات أخرى غير الرعي كالتجارة والزراعة بينما تشكل تربية المواشي وممارسة الرعي النشاط الأساسي للرحل وهم بالرغم من كونهم يمارسون كذلك التجارة أو الزراعة الظرفية أو بعض الأعمال المأجورة الموسمية إلا أنها تبقى ثانوية أمام اهتمامهم بالغنم وامتهان حرفة الرعي كنشاط يتميز بنوع خاص من تقسيم العمل لا يستثني أحدا من أفراد العائلة المرتحلة.

ولان هذه المقاييس لا تكفي وحدها لوضع تصنيف نهائي لأحوال الترحال وأنواعه فقد أخذت الدراسة كذلك بعين الإعتبار رؤية المبحوثين للصور التي يتمثلونها عن أنفسهم وعن توجهاتهم و آمالهم ومدى إرتباطهم برموزهم الثقافية و الوجدانية التي تجعلهم يصنفون بعضهم بعضا إن كانوا رحلا حقيقيين أم لا.

الفصل السادس:

الإنتاج الرعوي عند البدو الرحل

تمهيد:

يختلف نمط الإنتاج الرعوي عند البدو الرحل عن غيره من أنماط الإنتاج عند القرويين ووحدات الإنتاج الرعوية الحديثة حيث أنه يعتمد بالدرجة الأولى على تربية الماشية ذات الكم المهم والإنتشار في مساحات أوسع بما يسمى تربية دون سياج، وهو يتوافق أيضا مع نمط خاص لاستغلال الأرض يرتبط تاريخيا بالمناطق القاحلة و نصف القاحلة[1] أين يصعب مزاولة الزراعة بشكل دائم و مستقر، الأمر الذي حذا بالإنسان القديم أمام هذه الصعوبات إلى التكيف مع ما لديه من معطيات في الطبيعة كي يطور إقتصادا رعويا يقوم أساسه على تربية حيوان واحد كالياك عند المغول و الرنة عند * Les lapons ، أو تركيبة من البقر، الغنم و الماعز عند المغاربة في شمال إفريقيا، أو تركيبة ثنائية جمال–ماعز في جنوبها و بقر- ماعز عند كل من **Les peuls في غربها و ***les maasai في شرقها، و هذا الاقتصاد بطبيعة الحال يكمن أن يتضمن أيضا الصيد و تجارة القوافل و كذلك الزراعة الواحية المؤقتة[2] لكن و مع التحولات الكبيرة التي تعرفها هذه الخصائص من نقص في المساحات الرعوية، محدودية التنقل بسبب زيادة إنتشار ملكية الأراضي (كما هو الحال في التل هنا في الجزائر) و إنفجار البنى التقليدية للمجتمعات العشائرية فإن هذا النمط من الإنتاج بدأ يعرف عدة مفارقات مست أهم مبادئه القائمة أساسا على التقليل قدر المستطاع من التكاليف و كذا نقل الماشية حيث المرعى و ليس العكس؛ هذه الظروف الجديدة وضعت حياة الترحال التقليدية على المحك، فإما التحول إلى الأنماط الحديثة و بالتالي التخلي عن حياة التنقل نهائيا أو محاولة التأقلم و التكيف بشكل أو بآخر مع المستجدات للتمكن من الإستمرار و المحافظة و لو نسبيا على نمط خاص من الإنتاج و من الحياة دام لآلاف السنين.

---

(1) Robert Cressuell, Maurice Godelier, Outils d'enquête et d'analyse anthropologiques, Librairie François Maspero, Paris, 1976, p.170.

* يسكن "اللابون" مناطق التوندرات بأسكونديناڤيا(http://fr.kipedia.org/wiki/lapons)

** يشكل شعب "البول" عرقا بذاته ويتواجدون في عشرة دول من غرب إفريقيا منها السودان، تشاد وجمهورية إفريقيا الوسطى (http://fr.kipedia.org/wiki/peuls)Le15-2-2009 à 17h41m.

*** المازي أو الماعازي رعاة ينتشرون على طول جبل كيليمانجارو بين الحدود الكينية –التنزانية على مساحة تقدر ب100.000كم^2،يبلغ عددهم الآن حوالي 800.000نسمة، يعرفون بحسن ضيافتهم وبتنظيمهم الديمقراطي المبني على البعد الروحي في تصورهم لعلاقة المجتمع و الطبيعة وهم يتميزون خاصة بطول قامتهم. (http://www.xavierperon.com)Le15-2-2009à 17h32m.

(2) Jeans Copans, Introduction à l'ethnologie et à l'anthropologie, Editons Nathan, Paris, 1996, p.73.

1- القاعدة الذهبية للإنتاج الرعوي عند الرحل:

إن محاولة إرساء دعائم إنتاج رعوي على أسس حديثة يبدو بعيد المنال بالنسبة للرحل الذين أجرينا معهم هذه الدراسة و هذا راجع بالدرجة الأولى إلى تباعد و تباين قيم و مبادئ كل من نمطي الإنتاج الحديث و التقليدي فالأول يتطلب مشروعه وجود بنى قاعدية معينة و توفير يد عاملة مختصة و كذا الدخول في مجموعة من الإجراءات البيروقراطية و التعاملات الرسمية التي لا يحبذها كثيرا من البدو الرحل لكن هذا لا ينفي كونهم يستغلون الكثير من التقنيات الحديثة التي أثبتت نجاعتها في عملية الإنتاج الرعوي بينما يبقى إعتمادهم الأساسي على نمطهم الإنتاجي الذي ينطلق من قواعد بسيطة وسهلة المنال لا تتطلب الكثير من التكاليف لإرساء دعائمها:

" خمس نعجات في خمس سنين توليلك ألف "

وهي قاعدة ذهبية تلخص على بساطتها و سذاجتها الظاهرية أهم مبادئ الإنتاج الرعوي التقليدي عند البدو الرحل فمن خمس نعاج (نعجات) كعدد بسيط تبدأ عملية الإنتاج التي تعتمد على النعجة (الأنثى) كأساس إنتاجي، تعطي كل واحدة في السنة خروفين عل أقل تقدير، "لأن النعجة الجيدة ذات السلالة الجيدة إذا ما وجدت الرعاية الكافية و وفرة في العلف تستطيع أن تعطي 4 خراف في السنة"[(1)] وخمس سنوات كمدة زمنية تحدد القدرة الإنتاجية لهذه الوحدة (النعجة)؛ أي أنها بإمكانها الولادة بشكل جيد مدة خمس سنوات دون إنقطاع مما يعطينا بشكل حسابي متوسط ما يفوق الألف شاة[*].

جدول رقم(11):الحصيلة النظرية لتكاثر الأغنام خلال خمس سنوات.

الزمن	الإنتاج	القطيع
العام الأول	10= 2 x 5	15
العام الثاني	30=2 x15	45
العام الثالث	90=2 x 45	135
العام الرابع	270= 2 x 135	405
العام الخامس	810= 2 x 405	1215

المصدر: إنجاز الطالب

(1) Jules Cambon, Le pays du mouton, Giralt, Alger, 1893, p.06.

* إن الزيادة الموجودة فوق الألف شاة (215 رأس) بالإضافة إلى إنتاجها الذي تدره من صوف وحليب يعبر عنه الراحل بقوله: "عندك ألف شاة ماكل، شارب، خالص".

لكن وبالرغم من وجود هذا الجانب الحسابي الدقيق في عملية الإنتاج الرعوي عند الرحل إلا أن إعتماده لا يتم بالمفهوم الكمي المحض بل قد نجد في بعض الأحيان تهربا وخوفا من إستعماله (الحساب) لأنه في إعتقادهم يجلب الضرر* ويرفع البركة.

1-1 البركة:

البركة عند الرحل هي الزيادة و الكثرة من غير علة فهي تحل بالقليل فتجعله كثيرا و تحل بالكثير فتجعله نافعا وهي أيضا ثبوت الخير الإلهي في الشيء [1] و لذلك كان الإهتمام بها و البحث عنها أمر هام و ضروري في حياة الرحل والإعتقاد بها راسخ لا شية فيه، فالنعجة على حد تعبيرهم "***بارك فيها ربي والنبي***" فلقد جاءه أحدهم سائلا الكساء فأعطاه من صوفها و جاءه آخر عطشان فسقاه حليبها و جاءه آخر جوعان فأعطاه خروفها و بقيت النعجة كما هي " بركة"؛ وهذا أحد الشيوخ (س. ك) من أولاد عيسى يعلمنا بحكمته و حنكته معنى البركة بعدما إستفززناه و أثرنا حفيظته بأن هذه البركة لا وجود لها و نحن لا نتعلم في الاقتصاد شيئا يسمى "بركة" فيرد غاضبا :

- *" أنتوما واش تعرفوا... أنا البراكة نقريك فيها..... شوف عندك كلبة وو عندك نعجة... الكلبة قداش تجيب و النعجة قداش تجيب؟؟*
- فأجيبه:*" ما علاباليش" (لا أدري).*
- فيكمل: *"الكلبة تجيب في العام عشرة جرا (جمع جرو) والنعجة في أحسن الأحوال تجيب زوز خرفان ... شوف أحنا واش نذبحو كل يوم وو كل عيد وو كل فرح..... لكلاب ولا النعاج ؟".*
- فأجيبه: النعاج.
- فيسألني مرة أخرى : شوف طرا ما أكثر النعاج ولا لكلاب؟
- فأجيبه : النعاج .
- فيسألني مجددا: أعلاش؟(لماذا؟).
- فأقول له : ما علاباليش(لا أدري).

* لتعيين عدد رؤوس الأغنام يستعمل الرحل بدل الحساب المباشر إصطلاحات مرادفة فمثلا يقابلون 300 رأس بكلمة غنيم فيقول لك "عندي سبعة غنيم برك" أي ما يقابلها 2100 رأس من الغنم وهذا تجنبا للحسد.

[1] http://www.saaid.net/arabic/7.htm Le 22/04/2009 à 11h 26m.

- فيجبيني بدوره :على خاطر النعجة بارك فيها ربي و الكلبة لا .

وهنا دليل واضح على إيمان الرجل الملموس بالبركة التي أودعها الله عز و جل بشكل خاص في بعض الأشياء فيقولون "**الله بارك في النخلة والرخلة** " أي أنها أشياء تحمل الخير في ذاتها ورزقها موفور خاصة إذا إرتبطت بالإيمان بالله عز وجل "ولو أن أهل القرى آمنوا لأنزلنا عليهم بركات من السماء " (الآية من سورة) ويؤكد أنري مندراس Henri Mendras في هذا الصدد "أن الحساب الإقتصادي بمعنى الكلمة لا يوجد في المجتمعات التقليدية، هذا ما يفترض وجود أسس عقلانية أخرى تتحكم في هذا النوع من السلوكيات وهي مبنية على قيم وإعتقادات مخالفة"(1) .

و توجد كذلك البركة في بعض ما ذكر في القرآن الكريم و سنة الرسول (صلى الله عليه و سلم) كالعسل و زيت الزيتون ، و القمح.

ويكون طلبها على العموم في غير ذلك من الولد و الوقت و العمل و الإنتاج و الزوجة والعلم و الدابة و الدار و العقل و الجوارح و الصديق و سائر نواحي الحياة (2).

ويبقى العمل بهذه القاعدة وفق مبدأ نظري محض لا يتوافق و العوامل الموضوعية التي تحيط بظروف هذا النمط من الإنتاج والتي يمكن أن نجيزها فيما يلي:

1 1 1 عامل المناخ:

و كما رأينا في الفصل السابق فإن عامل المناخ يحدد بشكل كبير عملية الإنتاج الرعوي ونجاعتها لدى البدو الرحل، " إن عدم الإستقرار هو إحدى أكبر نقاط ضعف المناخ في الجزائر، وهذا يلمس جميع مقاييسه (الحرارة، مدة تساقط الثلوج ومدة هبوب رياح السيروكو) ونفس الشيء بالنسبة للهواطل الأخرى؛ وإن كنا نعرف إحصائيا أن تساقط الأمطار يتزايد بانتظام من الجنوب إلى الشمال فان الإشكال يكمن تطبيقيا في شريط المناطق التي تقع بينهما، إن المناطق الشبه رطبة بها دائما نسبة من الرطوبة والصحراء جافة طوال السنة، إذن تبقى المنطقة الوسطى ترتبط أحيانا بالنطاق التلي فتكون رطبة، وأحيانا أخرى بالنطاق الصحراوي فتكون جافة، والسكان يبقون من سنة إلى أخرى تحت رحمة السماء. لقد بينت الدراسات حول تساقط الأمطار في الجزائر وجود دورات طويلة المدى وأخرى قصيرة المدى لكن التنبأ بها يبقى مستحيلا، فقد تعرف بعض

(1) Henri Mendras, Eléments de sociologie, Edition Armand Colin, Paris, Quatrième édition 1996, p14.
(2) http://www.saaid.net/arabic/7.htm Le 22/04/2009 à 11h 26m.

المناطق موجة من الجفاف تدوم من أربع إلى خمس سنوات متتالية "[1] وفي هذه الظروف يتذبذب الترحال بين شرق البلاد وغربها فعندما يمس الجفاف الشرق يتجهون إلى الغرب والعكس صحيح أما إذا أصاب القحط الشرق والغرب فالسنة تكون قاسية أيما قسوة :

"عام الشرق رانا فالشرق وو عام الغرب رانا فالغرب وو العام اللي ما فيهش هاو ياكل اللي قدامو و اللي وراه"(س.ك).

ولربما كانت الدراية الكافية بتقلبات المناخ وأحواله هي ما تجعل الرحل أكثر حرصا على عدم الخوض في الحسابات والتكهنات.

1 1 2 التداخل بين الإنتاج و الإستهلاك:

يعزز الإنتاج الرعوي التقليدي منطق المعاش الذاتي الذي يشكل أهم الدعائم لتي يقوم عليها الترحال، لذلك نجد أن هذا الإنتاج لا ينفصل بأي شكل من الأشكال عن عملية الإستهلاك؛ فالراحل يقوم ببيع رؤوس من غنمه لتلبية حاجياته المعيشية اليومية كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وبالرغم من أنه يبيع "الهينة" من غنمه أي تلك التي مسها مرض أو عجز ما إلا أن عملية البيع هذه وبهذا الشكل الدائم يجعله يفقد السيطرة على التحكم في عملية الإنتاج و بالتالي يفقد القدرة على إجراء حسابات دقيقة أو تكهنات مدروسا لما سيؤول إليه قطيعه في المستقبل:

"هذي لغنم الواحد عايش منها، يصرف منها، يتكسى منها، إداوي منها وو مرة على مرة إزوز واحد من الذراري ولا كاشما الإنسان تجيه صابية ثاني يذبح منها "(س.ك).

1 2 الدلالة السوسيولوجية لهذه القاعدة:

عندما يضطر الراحل للإنفصال عن أبيه لتكوين حياته المستقلة والتي عادة ما تبدأ بالزواج فإنه لا يأخذ من أبيه سوى "*دعوة الخير*"، فالوالد ليس مضطرا لإعطاء ولده أكثر مما أعطاه :

"*أنا كبرتو و زوزتو مالا ما يسال عندي والو، أنا بابا ما عطانيش ملا هو إدبر راسو* "(س.ك).

[1] Marc Cote, L’Algérie, Média-Plus, Constantine, 2005, p.39.

أي على الإبن أن يعول على نفسه في تكوين قطيعه الخاص وألا يطمع أبدا في الحصول على عطاء مفروض من والده.

يبدأ الشاب الراحل الناشئ بامتهان الرعي كي يكون تدريجيا نواة قطيعه الصغير الذي وفقا لما نشأ عليه وتلقنه سيصير خيرا كثيرا وهو الأمر الذي يقتنع به كل الإقتناع و يطمئن له و لا يبدأ حياته إلا طامحا ومتفائلا بالنجاح في تكوين قطيع كبير على شاكلة من سبقه ولا يكون الرعي السبيل الوحيد في الحصول على عدد يسير من الرؤوس فقد يجود عليه والده بجود العام:

"*إذا كان العام مليح و الخير كاين نعطيه*"(س.ك).

أما إذا صادف إنفصال هذا الشاب عن والده أعوام الشح فيجب أن ألا يعتمد إلا على نفسه؛ كما يمكن لهذا الشاب أيضا أن يحصل على تلك النعاج من هدايا العرس أو عن عملية تعاونية من طرف مجتمعه.

2 السلالات[1]:

لتحقيق قدرة إنتاجية جيدة للقطيع يعمل رحل السوامع وأولاد عيسى على التحسين الدائم لسلالة قطعانهم إعتمادا على أنواع السلالات الأكثر إنتشارا في الجزائر والتي تتشكل أساسا من:

2 1 سلالة أولاد جلال (La race ouled djelal):

هي السلالة البيضاء و الأكثر أهمية نظرا للياقتها البدنية وكذا قدرتها الإنتاجية العالية، نستطيع أن نميزها بسهولة عن باقي السلالات الأخرى بعلوها الواضح الذي يفوق المتر، جسمها الضخم، برأسها الكبيرة المميزة الخالية من الصوف وبأذنيها الطويلتين المفرطحة البعيدة عن عينيها إلى مؤخرة الرأس و تحمل زائدة يطلق عليها إسم "الفولة"، تتميز أيضا بذيل طويل و صوف ملساء قصيرة تسمى محليا "صوف قساسي" يزن الخروف عند الولادة ثلاثة كيلوغرام ونصف ويبلغ في شهره الخامس أكثر من 30 كيلوغراما، نجد بهذه السلالة صنفين:

- صنف أعلى(variété haute) و هي المشاءة لها القدرة على المشي لمسافات طويلة.

[1] http:// fr.wikipidia.org/wiki/liste_des_races_ovines Le 22/04/2009 à 13h 09m.

- صنف أدنى(variété basse) وهذه تنشأ في المناطق الشبه صحراوية.

2 2 سلالة رامبي (la race rembi):

ناتجة عن السلالة البيضاء عن طريق طفرة أو تبدل وراثي وهي تحمل تقريبا نفس أوصاف السلالة الاولى مع هيئة جسدية أقل، رأس أشقر، قوائم و هيكل قوي جدا، خروف هذه السلالة يزن عند الولادة 3.5 كيلوغراما وفي الشهر الخامس يصل من25 الى 30 كيلوغراما.

2 3 سلالة حمرة (la race hamra ben lghil):

وهي تحتل المركز الثاني من حيث الأهمية، تتميز بمقاومتها العالية لكنها في تراجع مستمر بسبب خصائصها الجسمية غير المرغوب فيها مقارنة مع السلالة البيضاء وهي تنتشر بشكل أكبر بغرب البلاد، يزن خروفها عند ولادته 2.5 كيلو غراما و يبلغ 25 كيلو غراما في شهره الخامس.

2 4 سلالة تادمايت (la race tadmaat):

وهي عبارة عن تهجين بين المينيروس Le ménéros و سلالة الحمرة و هي سلالة خصبة جدا كونها تستطيع وضع أربع خراف في السنة (توأمين كل مرة) كما تتميز كذلك بصوفها عالي الجودة ذي الألياف الطويلة.

2 2 الشتلة:

لا يقسم الرحل السلالات سابقة الذكر بنفس الشكل بل يطلقون عليها اسم المناطق التي تعيش فيها فأما ما لديهم من قطعان فيطلقون عليها اسم الشاة العربية والتي تعيش في التل فيسمونها "التلية" و الشاة التي موطنها الجبال فيسمونها الجبايلية أو القبائلية.

الإختلاف بين هذه السلالات واضح من حيث الشكل و اللون و كذا درجة تأقلمها و تحملها لمناخ دون آخر و يقوم الرحل بعد عملية التهجين المستمر بين بعض من هذه السلالات بانتقاء أحسن الغنم التي يجدون لها مواصفات جيدة من حيث الوزن، القدرة على الولادة، تحمل الجوع والعطش، التأقلم مع المناخ و القدرة على المشي.

"أحنا ديما نشتلو، المليحة نحكموها والهينة نبيعوها، النعجة لازم تكون عندها وقفة مليحة، كاملة، تاوم وتلاوي التمرميد" (س.ك).

وهذه العمليات الانتقائية تتناسب والتقنيات الحديثة التي تعتمدها أساليب الانتاج الرعوي الحديث، فلقد أدت هذه التحسينات المستمرة إلى اكتساب الرحل قطعان غنم ممتازة وهم يشتهرون بذلك حيث يسعى بعض من مربي المواشي من القرويين إلى امتلاك هذه الأغنام و هم يقولون في ذلك *" النعجة لمليحة عند العربان"*.

لم يعد القطيع عند الرحل كسابق عهده يعتمد فقط على نواة إنتاجية ثابتة بل أصبحت هذه النواة (الأساسية) تعرف تجديدا مستمرا حيث يتم التخلص من الشاة التي فاق استغلالها أكثر من خمس سنوات و هذا كي يحافظ القطيع على قدرة إنتاجية جيدة (الإنتاجية =)[1].

في القديم كان الراحل لا يحبذ بيع شاته التي شكلت قطيعه الأول لأنها كانت تمثل بالنسبة له الخصوبة و الفأل الحسن و البركة و كان ينظر لها بعين التقديس وهذا أحد الرحل (س.ك) يخبرنا بأن والده كان لا يبيع أول قطيع امتلكه أبدا :

" كان الحاج ربي يرحمو النعجة لي يكسبها لولى تشرف وو ما يبيعهاش خلاص، كان ايقولنا هذ النعجة ربحت عليها وو بمال الدنيا ما نبيعهاش"

لكن هذه الطريقة زالت اليوم وأصبح الرحل يجددون قطعانهم بشكل آلي حيث يبقون دائما على الشاة الجيدة ضمن القطيع الأساسي.

2 2 1 الفحل:

أصبح كذلك وجود الفحل داخل القطيع له موازنات دقيقة حيث لا يحتفظ إلا بفحلين لكل عشرين شاة بالنسبة لغنم الصحراء و واحد لكل 40 شاة لغنم التل وعلى العموم يكون متوسط عدد الفحول في القطيع بين 5 إلى 6 في 100 شاة[2]ويكون لهذا الفحل كذلك مواصفات دقيقة جدا يجب مراعاتها حيث يفترض أن يكون طويلا ، له ذيل طويل، صوفه ليست غثة (صوف قساسي) ، له رقبة كاملة ، قوائم طويلة، بطن مرتفعة، رأس كبيرة و لا يوجد بها شعر و من الأفضل ألا يكون

(1) http:// http:// fr.wikipedia.org/wiki/Productivit%C3%A9 Le 27/04/2009 à 20h 01m
(2) Jules Cambon, Op.Cit. , p.11.

له قرنان و إن وجدت فمن الأفضل ألا تتجه هذه القرون إلى الأعلى بل تتجه إلى عينيه و يحرص الرحل كذلك على اختيار هذا الفحل من حالات الولادات الثنائية "*الفحل لمليح من أم تاوم** " أي أنه من شاة تلد خروفين على الدوام وهم يعتمدون على هذه المواصفات لتحسين سلالة غنمهم "*الفحل هو لي يعدل الشتلة*" و لأهميته في القطيع و دوره الحيوي فيه يقول لك الرحل "*البركة في الفحل*" و هم يتشاءمون أيما تشاؤم عندما تشير إليه داخل القطيع أو تبدي إعجابا به و قد يتخذ منك موقفا لا تحمد عقباه إذا أظهرت نية في شرائه.

2 2 2 الخصي:

يعزل الرحل باقي الذكور عن طريق خصيهم بطرية تقليدية حتى يحافظوا على العدد المعلوم من الفحول في القطيع:

"*إن الخصي معروف عند العرب منذ زمن طويل و هم يمارسونه عن طريق نزع الخصيتين أولويهما أو ضربهما ، و الطريقتين الأولتين هما الأكثر انتشارا، فالخصي عن طريق القلع يتم بشق كيس الخصيتين من الجهة السفلية ثم إخراجهما باستعمال اليد و جذبهما من الحبال الخصوية بعدها يوضع القليل من الملح على الجرح ، يربط الجلد بحبل من الأعلى بشدة ثم يربط من الأسفل ليحافظ على وضعيته و هكذا تتم العملية*".(1)

ويمارس الخصي كذلك على حيوانات أخرى كالحصان، الحمار و التيس، لكن ليس لنفس الغرض الذي تجري له هذه العملية عند الغنم وهي الآن في طريقها إلى التلاشي و الزوال بسبب ما تسببه من أذى للحيوانات بصفة عامة مما قد يؤدي إلى موتها في بعض الأحيان و استبدلت هذه التقنية باستعمال بسيط لأدوية بيطرية لها مفعول أكيد.

2 2 3 الإلقاح والتخصيب:

بالموازاة يعمل الرحل و يحرصون كل الحرص على توفير الظروف الجيدة لعملية الالقاح والتخصيب في قطعانهم لكي يكون المنتوج جيدا، لكنهم يعترفون في نفس الوقت بعدم قدرتهم الكاملة في التحكم في كل ما يعرفونه وكل ما يريدونه بسبب ما يفتقده نمطهم الإنتاجي من وسائل تطبيقية وعملية لتنفيذ كل أهدافهم، فالشاة مثلا يحبذ أن أن تخصب قبل أن تجز صوفها أول مرة

*يرجع الرحل سبب الولادات الثنائية "التوام" إلى الشاة الجيدة لذلك يفترض أن يكون الفحل الذي يأتي منها كذلك جيدا.

(1) Ibid, p.06.

"*الرخلة إذا ولدت تحت الصوف مايش مليحة*"(س.ك)، أي يجب أن تستكمل الشاة عاما كاملا كي تكون ولادتها بعد ذلك جيدة وتستطيع الإستمرار في الإنتاج بشكل متواصل، لكن الرحل لا يستطيعون التحكم في ذلك فكثيرا ما تلقح الشاة قبل أن تجز بسبب عدم القدرة على عزل الفحل عن القطيع ووجود الرعي المشترك، الأمر الذي يسبب في كل الأحوال تخصيبا مبكرا فتسمى النعجة حينئذ بالمظلومة وتستدعي رعاية خاصة لها من توفير للدفئ و العلف.

2 2 4 الولادة:

تلد النعجة مرتين في السنة الأولى في الخريف (ابتداء من شهر سبتمبر) و يطلق عليه اسم الخروف "البدري" و الثانية في الربيع (ابتداء من شهر ماي) و يطلق عليه اسم " الربعي".

ويفضل الرحل خروف الخريف(البدري)على خروف الربيع(الربعي) حيث تصادف عادة الولادة الاولى تساقط الامطار و تجدد المراعي مما يتيح لهذا الخروف الكلأ الطبيعي و كذا الحليب الجديد من أمه:

" "*البدري كي يلقى الحشيش ينوض مليح* "(س.ك).

بينما يصادف الثاني قدوم فصل الصيف مما يعني اعتماد هذا الاخير بالضرورة على الاعلاف الشيء الذي يجعله اقل شأنا من جميع النواحي بالنسبة للأول، لذلك فالرحل كثيرا ما يعمدون الى عزل الكباش في هذه المرحلة كي لا تكون هناك ولادة في الربيع وكي تبقى النعجة في كامل قواها مما قد يتيح لها في فصل الخريف ولادة خروفين:

"*النعجة لي تبقى حاكمة روحا ويخطيها الربعي التاوم في الخريف*" (س.ك).

2 2 5 الرضاعة والفطام:

يبدأ الخروف في رضاعة حليب أمه بشكل كامل خلال الأسبوعين الأولين من ولادته و هذا على ثلاث فترات من اليوم أي عند الصباح و في وسط النهار وفي آخر المساء و لا يرافقها أبدا إلى المرعى بل يحتفظ بالخراف في خيمة خاصة هي عبارة عن قيطون، تعد لها وعند الفطام الذي يتم بإرسال الخرفان إلى المرعى دون أمها حيث تبدأ في الاعتماد على نفسها في اكل العشب، هذه العملية تتم في فترة تتراوح بين 15الى30 يوما حسب توفر المرعى و حالة الخروف

إن كان خروف الخريف أو خروف الربيع الذي يأخذ القسط الأكبر من حليب أمه، هذا الحليب* الذي يوجه ما تبقى منه بعد ذلك للاستهلاك العائلي وخاصة لتغذية الأطفال الصغار فيقدم لهم بشكل خاص أول الحليب النازل بعد الولادة والذي يسمى"اللبى"بما يحتويه من فوائد غذائية و مناعية عالية.

3 القطيع لا ينمو طبيعيا:

لم يعد القطيع كما في الماضي ينمو بشكل طبيعي إعتمادا على ما توفره حركية الرحل من كلإٍ لهذه المواشي و حسب بل أصبح من الضروري اليوم أن يوفر لها الراحل العلف الاصطناعي خاصة إذا شحت السماء و نقصت المراعي:

"بكري الشاة تأكل منها و اليوم ولينا نعلفو" (س.ك).

و هذه الضرورة للعلف لا تأتي فقط لحماية القطيع من نقص الكلأ إنما أيضا تأتي كضرورة يفرضها منطق السوق فإذا أراد الراحل أن يبيع شاة فعليه أن يعلفها عدة أيام كي يسمنها بأعلاف اصطناعية ثم يقدمها للبيع:

"لازم نسمنو باش يجيبنا السومة"(س.ك).

لذلك فإن لوازم تقديم الأعلاف للمواشي لا تكاد تغادر مشهد أي بيت من بيوتات الرحل و هي عبارة عن أحواض معدنية يطلقون عليها اسم ماجوارات** ، تتراوح أبعادها بين متر و نصف طولا إلى مترين و 25 إلى 40 سم عرضا بعمق 20 سم على الغالب و هي إما أن تشترى جاهزة أو تجهز للراحل حسب طلبه بمقاييسه الشخصية (أنظر الصورة رقم: 21)، و تقدم الأعلاف التي تكون في معظم الأحيان مركبا من الشعير و نخالة أو مستورة (ذرى) و نخالة إلى الأغنام بمعدل 1 كغ في اليوم للشاة الواحدة إذا لم تكن تشبع من المرعى كدعم إضافي لها أما إذا كان المرعى غير متوفر على الإطلاق فإن معدل هذا العلف يزيد إلى 5 أضعاف في اليوم و يرجع الرحل الكثير من الأمراض التي تصيب الأغنام إلى طبيعة هذه الأعلاف:

* يتراوح إنتاج الشاة من الحليب بين300 إلى 400غرام لليوم الواحد ولفترة تمتد بين الأربع إلى الخمس أشهر بعد ولادتها للخروف.

** و هي تكييف لأصل التسمية بالفرنسة (Mangeoire).

" بكري كيكانت النعجة ترعى برا كان ماكانش المرض هذا وو ضرك مع العلف هذا ظهرت امراض جامي سمعنا بيها، الشاة كانت تاكل الحشيشة شبعة وو دوا "(س.ك).

ومع ظهور الكثير من الأمراض* المجهولة إستعصت الطرق التقليدية في مداواتها، أصبح الرحل يلجؤون بشكل دائم و دوري إلى البيطري لتأمين الأدوية والفحوصات المفروضة في كثير من الأحيان ليتمكنوا من حيازة رخص التنقل من جهة إلى جهة أخرى حتى تضمن السلطات عدم تنقل الأمراض المعدية و محاصرتها.

تعدى أثر هذه الأعلاف كذلك ليمس طبيعة لحم المواشي في حد ذاتها فهي لم تعد كذلك طبيعية والفرق شاسع بين لحم الشاة التي تتغذى بالأعشاب الطبيعية كالحلفة والشيح وتلك التي تأكل الأعلاف الإصطناعية :

" ضرك تاكل لحم الشاة اللي تعلف كلي راك توكل فالكارطون "(س.ك).

وتبقى بعض المناطق التي تشهد بمحافظتها على التغذية الطبيعية و تستقطب طالبي النكهة والذواقين إلى درجة أن الكثيرين يتنقلون مسافات طويلة فقط ليتناولوا قطعة لحم مشوية لشاة لم تأكل الأعلاف المسمومة.

4 إستراتجيات التعويض:

إن عملية تقديم العلف هذه يجب ألا تؤثر بشكل كبير على المنطق التقليدي في نمط هذا الإنتاج الذي يعتمد أساسا على توفير المرعى و إلا زادت تكلفة الشاة بشكل كبير مما يعني الخسارة. ولأن الأعوام تتفاوت في درجة تساقط الأمطار فلا يكون إلا عام جيد من 5 أعوام** فإن الرحل قد لجؤوا إلى تطوير استراتيجيات فعالة لتخطي هذه الصعوبات و من هذه الاستراتيجيات نجد:

4 1 الشراكة:

يستقطب الرحل اهتمام الكثيرين من أصحاب رؤوس الأموال الذين يجدون في تربية المواشي مجالا خصبا للاستثمار و تنمية أموالهم وهم يجدون في خبرتهم الرعوية أكبر عوامل النجاح ومن

* يعرف الراحل مرض شاته عندما تغير سلوكها إذ تصبح أكثر كسلا وخمولا و تتخلف عن القطيع أثناء سيره.

** من المبحوثين من يقول أن هناك عام جيد(بالنسبة إلى تساقط الأمطار وتوفر الكلأ) من 5 سنوات، عامان متوسطان،عام ناقص وعام جفاف بالمقبل هناك من يقول انه يوجد عامان جيدان من بين سبعة، اثنان متوسطا، اثنان ضعيفان و عام قحط و جفاف.

جدول رقم (12) : أهم أمراض الأغنام المنتشرة و المعروفة عند البدو الرحل

أمراض الأغنام المعروفة عنــد البدو الرحـــل	الـــدواء التقليـــدي	إسم المـــرض باللغة اللاتينـيـة	التـــداوي البيطـــري
1 الجدري	عشبة القزايح	Clavelée	Vaccin anti-claveleu
2 الصفاير	يعصر (فقوس لحمير) و يقطر في أذن الشاة و أنفها	Piroplasmose	Traitement chimiqu
3 الرية	أوراق التبغ	Pneumonie	Des antibiotique
4 المرارة	اللبن الحامض+ المريوت	Entérotoxemie	Vaccin anti entérotoxémiqu
5 بوصوفة	يشق مكان التعفن بآلة حادة	Piétin	Sulfate de cuivre o bien formole à 10%
6 الكلب	أوراق الدرفلة	La rage	Vaccin antirabiqu
7 الجنون	شق الأذن بآلة حادة حتى يسيل الدم الأسود.	Cénurose	Abattag
8 بولسان (الحمى القلاعية)	الشب + قشرة الرمان	Fièvre aphteuse	Vaccin anti-aphteu
9 النقر	الزفت أو القطران	Œstrus-ovis	Antiparasitaire intern
10 الجرب	زيت المحرك	La gale	Antiparasitair extern
11 بولسان لزرق	الشب + قشرة الرمان	Fièvre catarrhales	Abattag
12 الوجع و المغص	يربط ذيل الشاة بخيط أحمر	Multiple	Antispasmodiqu
13 الطاعون	لا دواء له	La peste ovine	Pas de traitemen

جهتهم يسعى الرحل إلى إبرام هذه الصفقات و قبول الشراكة مع هؤلاء ليتمكنوا من التخلص من أعباء دفع تكاليف الأعلاف واستئجار الحقول في فصل الصيف، أو تأمين الأعلاف الغالية الثمن خلال السنوات العجاف، لكن تبقى القاعدة الأساسية المرجوة من كلا الطرفين هي الاستنفاع قدر المستطاع من الجانب الآخر، فبمقابل تلك العناية والتكاليف التي يغطيها أولئك المستثمرون والتي تكون عموما منحصرة في فترة صعود الرحل إلى التل، يكون الاتكال بشكل كلي في الرعاية بالقطيع على المرتحل و على مراعي الصحراء المجانية والملائمة لتكاثر الأغنام خلال فصل الشتاء وهم يعبرون عن ذلك بقولهم: "*العام تجيبو الصحراء*"، يقول جول كانبون في هذا الصدد: "من المسلم به أن نعاج الصحراء تلد أربع خراف في السنة وهذا صحيح في حدود معقولة ولا يمكن أن يكون قاعدة عامة ...ما يجري هو انه عندما تتساقط الأمطار ويتوفر المرعى الجيد تنشط الحيوانات فتخصب الأمهات مرتين وبما أن الحمل في هذه الظروف عادة ما يكون زوجي فانه من الممكن جدا أن تنتج النعجة أربعة خراف في السنة لكن يجب النظر إلى هذه الحالة كاستثناء وليس كقاعدة"[1].

وتأخذ هذه الشراكة طرقا عدة نذكر منها:

4 1 1 الأرض ، الجزة و الخروف:

عادة ما يكون الشريك في هذه الحالة من أصحاب الأراضي في التل فهو يوفر للراحل مراعي الحقول في فصل الصيف مقابل أن يعتني له هذا الأخير بقطيعه خلال باقي السنة بالإضافة إلى أجر شهري يكون متوسطه عادة 10.000 دج و يكون اقتسام الإنتاج من صوف بعد ذلك بالتساوي و قد تتغير هذه القسمة وفق احتياجات القطيع فإن اكتفى القطيع بالمرعى الذي وفره الشريك لم لم يطالبه المرتحل بشيء أكثر مما سبق و إن كان المرعى شحيحا في سد شبع القطيع لجأ المرتحل إلى العلف مما يعني تغيير اقتسام الإنتاج و يكون ذلك على حد تعبيرهم حسب" التفاهم" أي حسب المفاوضات التي يجريها الطرفين في تحديد التكاليف و الأعباء و التي تزد بدورها من الجزة و الخروف الذي يمتلك بدوره قطيعه الخاص إلى جانب قطيع شريكه قد حقق غايته في تأمين المرعى و العلف بشكل غير مباشر لقطيعه و أكثر من ذلك فهو يأخذ منه الشهرية التي يستعين بها في تلبية حاجيات عائلته من مأكل و ملبس.

---

[1] Ibid.

4 1 2 طريقة الجزة و الخروف:

في هذه الحالة لا يمتلك الشريك أرضا فيكون الاتفاق على تأمين العلف للقطيع بانتقاص ثمنه من المنتوج مناصفة أي بعد اقتسام الجزة و الخروف تحدد تكلفة العلف و تقتسم بالتساوي على الطرفين و تكون هنا الحرية للشريك في أخذ قسمته أو إعادتها إلى القطيع لتنميته، فمثلا إذا كان القطيع عبارة عن 20 نعجة و أعطت بعد عام 40 خروفا و 40 جزة صوف و كانت تكلفة العلف 60.000 دج كانت القسمة كالتالي : يأخذ كل طرف 20 خروفا و 20 جزة صوف و تقسم تكلفة العلف 30.000 دج على عاتق كل منهما، فيقوم الراحل بعد تحديد ثمن الرأس من الخرفان بتعويضه ثمن العلف أي إذا كان ثمن العلف 30000 دج يقابل خمسة خرفان، كانت حصة الشريك 15 خروفا و 20 جزة صوف فقط . هذه الصوف يقوم الشريك بتعويضها عادة بخروف أو خروفين حسب سعر الصوف المقابل لسعر الخروف في السوق فتكون النتيجة النهائية ستة عشر 16 أو 17 خروفا منتوجا للقطيع في هذه السنة يمكن أن يعيدها هذا الشريك للقطيع ليصبح 36 أو 37 رأسا كلها ملك للشريك و لا يسمح للمرتحل بإدخال قطيعه الخاص في هذه المعادلة.

4 1 3 طريقة رأس المال:

يأخذ المرتحل قطيعا بعدد معين من الرؤوس و يعمل جاهدا على تسوية شراكته بإعادة رأس مال هذه الرؤوس إلى شريكه ليصبح شريكا حقيقيا في القطيع فإذا كان مثلا رأس مال هذا القطيع يقدر بـ 20 مليون سنتيم (200.000دج) و كان منتوج هذا القطيع من خرفان و صوف يقدر بـ عشرة ملايين سنتيم (100.000 دج) تناقصت قيمة القطيع 15 مليون باعتبار أن الشريك يأخذ حصته أي خمس ملايين سنتيم (50.000دج) والراحل يعطي حصته كذلك ليحقق تدريجيا تعادلا في القطيع يسمح له بأن يكون بعد مدة شريكا كاملا في النعجة و الخروف و الصوف و بهذا الشكل يكون المرتحل قد ضرب عصفورين بحجر واحد فأمن لنفسه قطيعا من الغنم و جزءا هاما من تكاليف القيام بشؤونه.

4 2 التهريب:

يلجأ الرحل إلى تهريب قطعان الغنم والماعز خلال سنوات الجفاف وأثناء ارتفاع أسعار العلف عبر الحدود التونسية وهذا لتجنب الخسائر الهائلة التي يمكن أن تحل بهم وهم يستغلون

في ذلك معرفتهم لأراضي الحدود ومسالك التهريب بحكم تحركهم المعهود في تلك المناطق، كما أنهم يستعملون كذلك شبكات معارفهم الرحل في الجوار والتي قد تجمعهم بهم علاقات النسب القديم فالسوامع مثلا يقولون أن أهلهم يوجدون هناك منذ فترة الاستعمار الفرنسي فقد اضطر الكثير منهم أو جزء من قبيلتهم في تلك الفترة إلى الهروب إلى تونس اتقاء لبطش الإستعمار الفرنسي على إثر مشاركتهم في ثورة المقراني سنة 1871م[1] وهم يتواصلون معهم إلى يومنا هذا ويمكننا أن نشاهد على طول الشريط الحدودي بين الجزائر و تونس انتشارا لقطعان الغنم ترعى دون حرج دخولا و خروجا بين البلدين الشيء الذي يغطي بسهولة عملية تهريب المواشي و في حقيقة الأمر أن هذه الظاهرة لا تكاد تتوقف و إنما يزيد من حدتها فقط الجذب الذي يصيب المنطقة وكذلك غلاء الأعلاف في الأسواق الجزائرية بين الحين والآخر ليكون التهريب بالجملة، ووجهة هذه المواشي لا تتوقف في تونس بل تتعدى حتى تذهب إلى إيطاليا و إسرائيل أين يزيد الطلب في مطاعمها الفاخرة على المواشي الجزائرية و يقدم لك هناك ضمن قائمة الخدمات بالبنط العريض " لحم خروف جزائري مشوي".

4 3 التجارة و تخزين الأعلاف:

تسمح تجارة وتخزين الأعلاف للراحل من توفير التغذية لأغنامه من جهة و تعوض بعض تكاليف هذه الأعلاف من جهة أخرى ولتحقيق ذلك يتنقلون بشاحناتهم مسافات طويلة جدا لاستقدامها من مناطق تعرف انخفاضا في الأسعار، فقد يتوفر المرعى في الجهة الغربية من البلاد فتكون الأعلاف هناك أقل ثمنا بينما ولقلة تساقط الأمطار بالجهة الشرقية تكون الأسعار في أوجها الشيء الذي يسمح لهؤلاء الرحل من تحقيق هوامش ربح كبيرة جدا، كما أن هذه الأعلاف قد تخزن كذلك لنفس الغرض و أكثر الأعلاف تخزينا التبن و القرط (Balle) و التي يتم نقلها بكميات هائلة خاصة في فصل الصيف من التل نحو الهضاب العليا و الجنوب (أنظر الصورة رقم: 22)، فأسعارها قد تتضاعف خمس مرات (من 50 دج إلى 250 دج) بمجرد نقلها إلى تلك المناطق و قد تفوق ذلك بكثير حتى أنها تصل 8 مرات ثمن الشراء أي (من 50دج إلى 400 دج) إذا عرفت نفس المناطق شحا في تساقط الأمطار ، و لأن هذه العملية تدر أموالا طائلة على محترفيها فإنك تلاحظ في فصل الصيف كيف تتسارع تلك الشاحنات إلى المناطق التلية طالبين

[1] Mouloud Gaid, Mokrani, Editions Andalouses, Alger, 1993, p.175.

هذه السلعة و التي تتفاوت أيضا قي جودتها و نفعها فإذا كان هذا التبن من المناطق التي تعرف "بالسمراوات" كان الإقبال عليه كبيرا و أسعاره جد مرتفعة و أما إذا كان من مناطق الساحل كان ثمنه أقل لأن نفعه للشاة أقل:

"*قرط الساحل مراخسو وقرط عين عبيد نافع أنا كينشوفو نعرفو هذا منين وهذا منين*"(س.ك)

ويحاول بعض الباعة الترويج لتلك المادة أنها جيدة و من منطقة عين عبيد بالخصوص إلا أن العارفين بأحوالها يفرقون جيدا بينها فلقد تمرس بعض الرحل هذه التجارة إلى حد أنهم تخصصوا فيها و تركوا ما دونها من تربية الماشية ومنهم من استقر بمناطق بسكرة (خاصة السوامع) وأصبحوا يحتكرون هذه التجارة فيستعدون لها طيلة السنة بإعداد المخازن و شراء الشاحنات الأكثر حمولة و أيضا ربط العلاقات مع أصحاب الأراضي في لتل بالدفع المسبق لهم كي لا تضيع منهم هذه الفرص في تحقيق أرباح هائلة خلال فصل الصيف.

5 حيوانات الترحال :

بالإضافة إلى ما ترتكز عليه حياة الترحال من تربية للغنم والماعز بشكل رئيسي نجد بعض الحيوانات الأخرى تستكمل منطق الاقتصاد الرعوي التقليدي وتساعد الرحل على تخطي صعوبات الحياة اليومية من جميع النواحي كأداة مهمة الحراسة بالنسبة للكلاب و حمل الأثقال و نقل المتاع بالنسبة للحمار وحيوانات أخرى قد نجدها أيضا يستفيدون من خدماتها كالأرانب والدجاج ولإن كان دور بعض الحيوانات قد تراجع مع تطور الحياة و ظهور وسائل عصرية كما هو الشأن بالنسبة للجمل والحصان فإن حياة الترحال لا تزال تستأثر بخدمات الحيوانات الأخرى حتى أنها لا تكاد تستغني عنها أبدا.

5 1 الماعز في القطيع:

يلعب الماعز دورا أساسيا في حلقة الانتاج الرعوي التقليدي فبالإضافة إلى استعماله الطبيعي في قيادة القطيع (أنظر الصورة رقم: 23)، فإن تربية الماعز كذلك تشكل إحدى الإستراتيجيات المهمة التي يعتمد عليها الراحل كي يحافظ على منظومته القيمية والتقليدية بالإضافة إلى استهلاك لحمه بشكل دائم فإن الرحل يعمدون إلى ذبحة لإكرام ضيفهم دلالة على الفرح بقدومه و حسنا لضيافته:

" أحنا الضيف لازم نذبحولو، منين إجيك الضيف راهو جاب خيرو معاه، اللي يامن بربي وو النبي يكرم ضيفو" (س.ك).

وهذا السلوك أي الذبح مع ما يحمله من رمزية عالية لشيم الجود و الكرم يرمي أيضا إلى تحقيق غاية أخرى و هي الحفاظ على الغنم:

"المعيز ينهر على الغنم وو غطيلك وجهك قدام الناس "(س.ك).

أي بذبح الماعز الذي هو أكثر خصوبة من الغنم إذ تستطيع الجدية أن تلد عند بلوغها ستة أشهر فقط* وهذا مع وضع جديين في العادة فيكون الراحل بذلك قد وفر الخوف الذي هو أغلى قيمة مع أداء فريضة إكرام الضيف الذي هو في عين العرب من أعظم الواجبات.

يربي الرحل نوعا محليا من الماعز يتميز بجسم طويل مزوى و قوام جيد، لها قرون مفلطحة عادة ما تلتف إلى وراء أذنيها وهي متباعدة بالنسبة للنوع الهجين الموجود بالجزائر الذي يحمل قرونا مدببة متجانسة** و متقاربة كما أن لها أيضا (أي النوع المحلي) ضرعين كبيرتين تدران لترا من الحليب كل يوم لفترة قد تصل إلى خمسة أشهر بعد الولادة يستغل الجزء الأكبر منه للاستهلاك العائلي وهو ذو قيمة غذائية عالية حتى أنه يعطى للطفل بعد فطامه مباشرة فيكون بديلا عن حليب أمه، و يتميز كذلك هذا الماعز بشعر طويل يتدلى يجعله يبدو و كأنه مستطيل الشكل، له ألوان مختلفة يستعمل الأحمر منه بعد خلطه مع وبر الإبل في حياكة الخيمة و صناعة القشابية و البرنوس، يتأقلم هذا الحيوان بشكل جيد في المناطق الشبه صحراوية، الجبال و الأماكن الصخرية لأنه يتمتع بأظافر صلبة و قوائم قوية، يستعمل الرحل جلده كقرب للماء و أيضا كحافظات للمواد الغذائية (للدقيق فيسمى "مزود" و للغرس فيسمى" بطانة") يزن جديها كيلوغرامين و نصف الكيلوغرام عند الولادة و يصل إلى خمسة وعشرون كيلوغراما بعد الشهر الخامس[(1)] ، و لأن الماعز يتمتع بحاسة شم قوية جدا فإن الرحل يستعملونه كمنبه للقطيع*** من أي خطر يحدق به خاصة من خطر الحيوانات المفترسة كالذئب، و في الليل عندما يسمع الراحل صوت الماعز يعلو فإنـــــه يعرف أن هناك خـطبا ما لأن الغنم عــــــــادة في اللــــيل لا يسمع ثغــــــــاؤها و لأن

*أضف إلى هذا فان الراحل لا يكلفه الماعز أبدا عناء مداواته عند البيطري "المعيز ما يمرضش خلاص ولا مرض، مات".

** هذا النوع هو نتاج السلالة المحلية مع السلالة الألبية، له شعر قصير، قرونه وقوامه تشبه الغزال ، يغلب على هذا النوع اللون الأحمر وهو كذلك رشيق وسريع .

(1) http://ressources.ciheam.org/com Le 15-2-2009 à 20h 2m

*** كما يعتقد الرحل أيضا أن العنزة السوداء تحفظ القطيع من عين الحسود.

سارقو المواشي من المحترفين يعلمون أن الماعز قد يفضح أمرهم فأنهم يلجئون إلى رشه بالماء كي يبرد و يتجمع في مكان واحد ويصمت فيتمكنوا بعد ذلك من أخذ باقي القطيع.

5 2 الكلاب:

يمتلك رحل السوامع و أولاد عيسى نوعين من الكلاب، الأولى تسمى السلوقي و الثانية تسمى البتي* (أنظر الصورة رقم:24، المشهد الأول)، تستعمل هذه الكلاب في حراسة الخيمة ليلا و نهارا، و يمكن للراحل أن يترك عائلته وأولاده ليتنقل إلى المدينة أو إلى أي مكان آخر بكل راحة و طمأنينة معتمدا في حمايتهم و أمنهم على كلابه الأمينة الوفية، و هم يقولون في ذلك "*الكلب خوك بلا وصاية* " أي أنك يمكن أن توصي أخاك ليقوم على حماية عائلتك لكن كلبك لا داعي لأن توصيه في ذلك، فهو يقوم بعمله على أحسن وجه.

و تعمل هذه الكلاب أيضا على حراسة القطيع، فالكلب يصحب الراعي مع غنمه إلى أماكن بعيدة يؤنس وحدته و يحفظ الشاة من أي خطر ولا يترك قاسية إلا أعادها حيث مأمنها، أما في الليل فيعرف الرحل إن كان كلبهم ينبح على حيوان أو إنسان:

"*الكلب كي عود ينبح على الحلوف زي، وو كي عود ينبح على الذي بزي وو كي عود ينبح على العبد زيا خر*"(س.ك)

و قد يطارد الراحل سارق قطيعه بكلبه في الظلام الحالك و ينال منه و هذا أحدهم يقول لنا:

" *أنا نضرب البارودة على رأس الكلب في الليل نطيح السارق*"(س.ك) و هذا لما يتمتع به الكلب من رؤية جيدة في الظلام يستغلها البدوي لتوجيه سلاحه نحو طريدته، ويربي الرحل النوعين معا من الكلاب السلوقي** و البتي لكون الأول سريع جدا يلحق بطريدته بسهولة أما الثاني فهو قوي يفتك بها فتكا:

"*السلوقي يقدر يلحق الذيب ويجيبو، يعطلو ، البتي باسل، بصح قاوي كي يلحق لذيب يحكمو من مسلانو و يقلبو مرة وحدة افلعصو*" (س.ك)

* يطلق أيضا على هذا النوع الهجين(خليط بين الكلب العربي وسلوقي) إسم الحرفوش.

** يعطى لهذا الكلب عندما يكون جروا الطعام المالح كي يدفعونه على الشرب كثيرا مما يؤهله فيما بعد على الجري والتحمل كما تكوى رجلاه عند المفاصل كي لا يصيبها الاعوجاج لأنها تنمو و تزداد طولا بسرعة.

و هم يستمتعون أيما استمتاع عندما يتجهون إلى صيد الذئب* حيث تتعالى الأصوات حول كلب السلوقي الذي ينطلق كالبرق في مطاردة الذئب و هم عادة ما ينادونه بـ "الزرق " أو " الواعر " وقد يتعرض الكلب الذي يخفق في مهمته للسب و الشتم إهانة له، فهم يكلمونه كأنهم يكلمون إنسانا لكن السلوقي يبقى في كل الأحوال الند الوحيد للذئب:

" الي قاريه الذيب حافظو السلوقي، الذيب واعر وو حيال، ما يامنش حتى ولو يكون وحدو، يمشي فالجبل وي دور وراه، بصح كل آفة وو دارلها ربي دوا ، و الذيب قد ما يدير يمرقلو السلوقي " (س.ك)

ويسعى الراحل كذلك إلى امتلاك الكلب العربي الحر:

" الكلب العربي تلقاه بيض وو عندو شعرة طويلة، الكلب الحر تهدر معاه يفهم وو كون تحازو مايوليش"(س.ك).

وهو محبذ بلونه الأبيض لأنه لا يظهر وسط الغنم كما لا يستبان في الليل لأنه يتموه مع لون أرض الصحراء وخلال الأيام المقمرة (أنظر الصورة رقم : 24 ، المشهد الثاني) أما الكلب الأسود فهو مستنكر ويتعوذ الراحل عند رؤيته لأنه يعتقد أن الشيطان يستطيع أن يتمثل صورته.

5 3 الحمار:

لقد أخذت أهمية الحمار تزداد شيئا فشيئا عند البدو الرحل و هذا بعد تراجع دور الحصان في حياتهم فمنهم من كان لا يعرفه إطلاقا كما هو الحال بالنسبة لرحل ورقلة إلا بعد سنة 1896 حيث بدأت وسائل النقل ذات المحرك تفرض نفسها[1] و لا يستعمل الحمار عند رحل السوامع و أولاد عيسى اليوم إلا لجلب الماء الشروب و التنقل على ظهره لمسافات بسيطة (أنظر الصورة رقم:25،المشهد الأول)، وهذا عكس الماضي أين كانوا يستعملونه أيضا لحمل الراحلة و التسوق إلى الأسواق البعيدة جدا.
لقد أصبح الحمار اليوم جد ضروري بالنسبة للرحل فلا تخلو خيمة من خيمهم من وجوده و هو سهل للنقل في الشاحنة مع باقي الراحلة و القطيع (أنظر الصورة رقم: 25، المشهد الثاني)، كما لا

---

* يعرف الذئب الذي يصعب صيده باستعمال الكلاب بأنه "ذيب فردي" أي الذئب الذي ولد وحيدا الشيء الذي يجعله ينمو قوي البنية لأنه يستأثر بكل الطعام عندما يكون جروا.

[1] Cauneille.A, , Les chaânba (leur nomadisme), Edition CNRS, Paris, p.134.

يكلف امتلاكه من طرف الراحل الشيء الكثير من حيث علفه و القيام بشؤونه ويستغل الراحل أيضا حاسة الحمار الشديدة لاستشعار الخطر في مراقبة محيطه و الحيطة من كل شر و هو عندما تنتصب أذنيه يعلم صاحبه أن الأمور ليست على ما يرام.

5 4 الأرانب:

تعود تربية الأرانب من طرف الرحل إلى أمد قريب جدا و هم يخصصون لها قيطونا صغيرا تأوي إليه و يعطونها بقايا خبزهم اليابس و يستعملون لحمها في طهيهم كي تضفي عليه شهية ونكهة خاصة،، لكن الكثير منهم يعزف بعد مدة عن تربيتها لأنها في رأيهم تجلب الأفاعي لخيمهم و هي في كل الأحوال حيوان يستوجب رعاية و عناية خاصة و يصعب عند الرحل جمعها حين الرحيل لأنها تتخذ جحورا تحفرها في الأرض.

5 5 الدجاج:

تهتم المرأة عند الرحل بشكل خاص بتربية الدجاج فهي تقدم لها غذاءها بشكل منتظم و تحرص على جمع بيضها كما تعد لها خما وتختار لها بيضها الملقح بعناية كي تحضنه، و يلعب الدجاج دورا هاما في حماية محيط الخيمة* من خطر الأفاعي و العقارب و باقي الحشرات الضارة وتعرف المرأة بشكل خاص هذا الخطر و تميزه عندما يعلو صوت الدجاج (الصورة رقم:26).

5 6 الجمــل:

لقد أصبح من النادر اليوم أن يرى الجمل في التل بعد ما كان إلى عهد ليس ببعيد يشكل مشهدا عاديا من مشاهد تواجد الرحل بهذه المناطق و لكن و لأسباب عديدة و متشعبة بدأ استعمال هذا الحيوان في التنقل والترحال يأفل شيئا فشيئا حتى أصبح اليوم ينحصر تواجده فقط في أقاصي الجنوب كثروة حيوانية هي أيضا مهددة بالزوال (الصورة رقم: 27).

إستعمل أولاد عيسى و السوامع الجمل لحمل ترحالهم و بضاعتهم من الجنوب إلى الشمال لأزمان طويلة جدا تمتد إلى ذلك العهد الذي كانت فيه تجارة القوافل تسيطر على شرايين الحركـــة

*يستعمل الرحل كذلك مادة القطران لحماية محيط الخيمة من الحشرات الضارة كما يستعملونه لتعقيم الماء وللتداوي من بعض الأمراض، القطران عبارة عن مادة سوداء تستخلص بعد حرق أغصان وأوراق أشجار الصنوبر والعرعر.

الاقتصادية في المغرب العربي و لكن بعد الأزمة العامة التي مست هذه المنطقة ابتداء من 1350م إلى ظهور الطرق البحرية في المحيط الأطلنطي خلال القرن الخامس عشر[1] بدأت نقطة بداية نهاية هذا الحيوان الأسطوري الذي صنع تاريخ الرحل و أمجادهم عبر الصحاري الواسعة لقرون طويلة.

لا يزال الرحل ممن أجرينا معهم هذه الدراسة يذكرون آخر عهد لهم في استعمال هذا الحيوان اثناء ترحالهم و هذا أحد الشيوخ يروي لنا قصة آخر جماله التي باعها كي يشتري شاحنة سنة 1982م:

" *هذاك الوقت كنت أنا واحد من الناس لخرين لي كسبو الجمل ، الناس كل دارت الكاميو ، الجمل خلاص ما بقاش*"(س.ك).

و يرجع أول استعمال فعلي للشاحنة من طرف الرحل إلى الخمسينات من القرن الماضي حيث اكتشف هؤلاء مزايا النقل في الشاحنة و إمكانية التنقل بشكل سريع، مريح و بأقل التكاليف إلى أماكن بعيدة تتوفر فيها ظروف الحياة الملائمة مع إمكانية حمل القطيع و المتاع و الأهل معا وهكذا بدأ الجمل يشكل عبئا على مستعمليه (خاصة رعاة الشاة منهم)، و يقدم لنا حسان رشيق في دراسة قدمها حول بني قيل ? Comment rester nomade كيف تخلى هؤلاء عن خدمات الجمل لأسباب كان أهمها الجفاف و تبني النقل الحديث .[2]

5 7 الحصان:

وكما رأينا سلفا فان للحصان مكانة وجدانية جد خاصة عند البدو الرحل فهم يتباهون بها ويعتبرونها رمزا من رموز العروبة والفروسية وهم كذلك اعلم الناس بالخيل وأحوالها، يعرفون أنسابها كما يعرفون أنسابهم[3] فأفضل الخيول على الإطلاق كما يورد الأمير عبد القادر في رسالة منه إلى دوماس بتاريخ 8 تشرين الثاني –نوفمبر- 1851م هي خيول هميان دون استثناء " فكل خيولهم مـمتازة، إنـهم لا يستخدمونها لا للـتفلاحة ولا للحمل، إنما للـــجري الطويل والقتال، وهـــــي

[1] Hassan Remaoun et Autres, L'Algérie, histoire, société et culture, Casbah, Alger, L'an 2000, p.25.
[2] Hassan Rachik, Comment rester nomade, Afrique-orient, Casablanca, En 2000, p.123.
[3] برونو إتين، عبد القادر الجزائري، ترجمة المهندس ميشيل خوري، إصدارات الديوان الوطني للطباعة و النشر، ط2 2001، ص.498.

أفضل الخيول في تحمل الجوع والعطش و التعب وبعد خيول هميان تأتي خيول هرار، والأربعاء و أولاد نايل"[1]وللحصان العربي القدرة على الجري المستمر من 5 إلى 6 ساعات دون انقطاع مع السير طيلة 20 إلى 25 يوما . كما أن خبرتهم بها تذهب إلى ابعد الحدود فهم يعرفون ما ينفعها وما يضرها فسقاية الحصان مع طلوع الشمس تضعفه و سقايته في المساء تسمنه وسقايته وسط النهار تحافظ عليه في حالة جيدة، أما أفضل الأوقات لعلفه بالشعير فهي المساء ويقال بهذا الخصوص ان شعير الصباح يذهب إلى المزابل و شعير المساء يذهب إلى الكفلين وان كان أحسن العلف للحصان هو الشعير على الإطلاق فان الحلفاء كذلك تساعده على السير وأما الشيح فتهيؤه للقتال[2]ويقول لك الخيال المتمرس انك لن تغدو فارسا إلا إذا كبوت أكثر من مرة واعلم أن الخيول الأصيلة لا تمكر بصاحبها والجواد الأصيلة في المربط شرف لصاحبها .

6 تقسيم العمل:

يتشكل مجتمع الرحل من خلايا عائلية هي في نفس الوقت عبارة عن وحدات إنتاجية تؤمن للفرد الحماية الاجتماعية والاقتصادية، لا يعرف الرحل مصطلحا يسمى البطالة فلكل فرد مكانته ومهامه التي يضطلع بها وفقا لمعياري الجنس و العمر، و لأن تقسيم العمل في هذا المجتمع يتميز ببساطته و محدودية التخصص فيه فإن ذلك يجعل من تلك الوحدات العائلية تتشابه تشابها يكاد يكون مطلقا وهذا ما يدفعنا إلى تصنيفها وفقا للنموذج الدوركايمي الذي يصف مثل هذه المجتمعات بالبسيطة و المتجانسة نتيجة لضعف تقسيم العمل فيها إلى درجة كبيرة [3] و تعرف هذه المجتمعات ما يطلق عليه دوركايم التضامن الميكانيكي حيث لا يختلف الأفراد فيها كثيرا بعضهم عن بعض و هم يتشابهون لأنهم يشعرون بنفس الأحاسيس و يتقاسمون نفس القيم كما أنهم يؤمنون بنفس المقدس[4] الذي يجعل من هذه المجتمعات أكثر تماسكا و نلمس ذلك بشكل خاص فيما إذا تعرض أحد أفراد هذا المجتمع إلى خطر ما و إذا تعلق الأمر بنزاع مع قوم غير أفراد القبيلة فإن اللحمة تكون أكبر و العصبية أشد لنصرة الأخ أو ابن العم و هذه عموما هي إحدى خصائص المجتمعات الحلقية التي تقوم على مبدأ (أنا ضد أخي، أنا و أخي ضد ابن عمي، أنا و أخي و ابن عمي ضد كل الآخرين).

---

(1) المرجع السابق، ص498.
(2) المرجع السابق، ص496.
(3) د.صلاح مصطفى الفوال، علم الاجتماع البدوي، ج1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص67.
(4) Raymond Aron, Les étapes de la pensée sociologique, Edition Gallimard, Paris, 1967, p.312.

بصفة عامة يمكن أن نلخص مميزات هذه المجتمعات اللا صناعية في النقاط التالية(1):

أ‌ يوجد خلط بين مفهومي العائلة و المؤسسة و عدم التفريق بين الإنتاج و الاستهلاك داخل هذه المجتمعات.

ب‌ تقسيم العمل فيها تتحكم به البنى الاجتماعية السائدة.

ت‌ رأس المال بمفهومه الصناعي غير موجود لكن مفهوم الغنى و الاكتناز له أنماط و أشكال مخالفة.

ث‌ الحساب الاقتصادي بمعنى الكلمة غير موجود و إنما هناك عقلانية مغايرة تتحكم في السلوك الاقتصادي تبنى على قيم و معتقدات هذه المجتمعات.

ج‌ المجتمع ينتظم في وحدات و خلايا ذات أبعاد و أحجام معينة ضمن مجالات مكانية محدودة.

كل هذه الخصائص و المميزات رأيناها بوضوح في مجتمع الرحل عند كل من السوامع و أولاد عيسى حيث لا يسود تقسيم مهم للعمل، و لا توجد تخصصات كثيرة و لا أعمال حرفية خارج تلك التي تقوم بها المرأة تحت الخيمة من حياكة للفليجة و بعض الألبسة التقليدية.

تنحصر أهم الأعمال المعروفة اليوم لدى الرحل في الرعي ، التجارة و سياقة الشاحنة وهذا التخصص الأخير كعمل مستجد على حساب وظائف و مهام أخرى اندثرت مع الزمن كالمشيخة ، الفروسية و الغزو .

و يمكن أن نلخص أهم الأدوار التي يقوم بها أفراد مجتمع الرحل حسب العمر و الجنس فيما يلي:

6 1 دور الأب:

يمارس الأب سلطة مطلقة عند الرحل (مجتمع ذكوري) فهو الآمر و الناهي و لا يجوز في العرف الرد عليه أو مجاراته بشكل غير لائق في الحديث أو حتى رفع الصوت في حضرته، يشرف بشكل كامل على كل كبيرة و صغيرة في بيته كما يصرف كل الأعمال ، ينهض باكرا ليوجه كلا إلى عمله ثم يتجه بعد أن يضع شاشه، قدوارته وعصاه في يده إلى "الفيلاج" (وهذا خاصة إذا كان في التل) ليلتقي بباقي أرباب البيوت أمثاله يجلسون جماعة جماعة في مقهى يدور الحديث حول أحوال المرعى، الشاة و السوق بشكل عام أو قد يكون المقال لمقام آخر في شأن من شؤون فض النزاعات أو ترتيب قران أو عقد صلح، وهذا هو الحال في سائر الأيام،

(1) Henri Mendras, Op. Cit., p.128.

ماعدا يوم السوق حيث يتجه الأب بشاحنته للجلب و قضاء مستلزمات البيت وحاجياته مباشرة إليها (أي السوق)، ولم يعد اليوم تواجد الأب ضروريا طيلة الوقت قريبا من خيمته و قطيعه فهو يستطيع تدبير الأمور و الطمأنينة على صيرورة العمل عن طريق الهاتف النقال.

6 2 الإبن الأكبر:

للإبن الأكبر مكانة خاصة عند البدو الرحل فهو كذلك يحظى باحترام باقي الإخوة بعد أبيه و هو الوصي من بعده على كل شيء والأب يعهد إليه عادة سياقة الشاحنة، ويبدأ تزويج الأبناء في عرف الرحل بالابن الأكبر ثم الذي يليه.

6 3 باقي الإخوة:

يتحدد عمل باقي الإخوة حسب سنهم و جنسهم و مقدرتهم على القيام بعمل ما و الذي عادة ما يكون الرعي أو جلب الماء و يتداول عدة إخوة على رعي القطيع خلال النهار و قد تقوم البنت (الأخت) أو العجوز(الجدة) بالرعي كذلك عند أولاد عيسى الأمر الذي لا نجده عند السوامع (المرأة لا تقوم بالرعي) و قد يصل عدد الإخوة عند أولاد عيسى إلى 22 تحت الخيمة الواحدة بسبب تعدد الزوجات.

6 4 الزوجة:

تقوم الزوجة على القيام بشؤون البيت من إعداد للطعام، تنظيف للخيمة و الزريبة و الاعتناء بالأبناء جملة، كما أنها تقوم أيضا كما رأينا سلفا بالحرص على دجاجها و باقي الخرفان الصغار، تشارك باقي النسوة في إقامة (السداية) لتجديد أو صناعة أجزاء من الخيمة ، و الزوجة عند السوامع على العموم واحدة لكن عند أولاد عيسى فغالبا ما تكون أكثر من اثنتان تحت الخيمة الواحدة وهم يقولون في هذا الشأن:

"*الراجل اللي عندو مرا وحدة.....أعور*"(س.ك).

6 5 الجد:

يحظى الجد باحترام منقطع النظير في عائلة الرحل كما يلقى الطاعن في السن منهم عناية خاصة، فهو محـــور الأنـــس و السمر، يقـص على أحفـــــــاده مغامرات الترحال و التجوال عبر

الأراضي الشاسعة و الأوطان البعيدة و يستذكر مآرب الأجداد و خصالهم، يفخر بالنسب و يحفظه فهو الذاكرة و الأصل و البركة .

6 6 الجدة:

بالإضافة إلى ما يمكن أن تقوم به من أعمال منزلية على غرار باقي النسوة تهتم الجدة أكثر بتطبيب الأحفاد بطرق تقليدية (باستعمال الأعشاب و التعاويذ) كما أن مداواة الشاة المريضة تقع أيضا على عاتقها عادة فهي العارفة بأنواع الأمراض و الخبيرة بتجريب الدواء.

الخلاصة:

إن محاولة إرساء دعائم إنتاج رعوي على أسس حديثة يبدو بعيد المنال بالنسبة للرحل الذين أجرينا معهم هذه الدراسة و هذا راجع بالدرجة الأولى إلى تباعد و تباين قيم و مبادئ كل من نمطي الإنتاج الحديث و التقليدي فالأول يتطلب مشروعه وجود بنى قاعدية معينة و توفير يد عاملة مختصة و كذا الدخول في مجموعة من الإجراءات البيروقراطية و التعاملات الرسمية لا يحبذها كثيرا البدو الرحل، هذا بالإضافة إلى كون نمطهم الإنتاجي يختلف عن غيره من أنماط الإنتاج عند القرويين ووحدات الإنتاج الرعوية الحديثة حيث أنه يعتمد بشكل كبيرعلى تربية الماشية ذات الكم المهم والإنتشار في مساحات أوسع بما يسمى تربية دون سياج، وهو يتوافق أيضا مع نمط خاص لاستغلال الأرض يرتبط تاريخيا بالمناطق القاحلة و نصف القاحلة أين يصعب مزاولة الزراعة بشكل دائم و مستقر لكن و مع التحولات الكبيرة التي تعرفها هذه الخصائص من نقص في المساحات الرعوية، محدودية التنقل بسبب زيادة إنتشار ملكية الأراضي و إنفجار البنى التقليدية للمجتمعات العشائرية فإن هذا النمط من الإنتاج بدأ يعرف عدة مفارقات مست أهم مبادئه القائمة أساسا على التقليل قدر المستطاع من التكاليف و كذا نقل الماشية حيث المرعى و ليس العكس؛ هذه الظروف الجديدة وضعت حياة الترحال التقليدية على المحك، فإما التحول إلى الأنماط الحديثة و بالتالي التخلي عن حياة التنقل نهائيا أو محاولة التأقلم و التكيف بشكل أو بآخر مع المستجدات للتمكن من الإستمرار و المحافظة و لو نسبيا على نمط خاص من الإنتاج والحياة دام لآلاف السنين؛ ويبدو أن الوضع الأخير هو الصورة الحاصلة على أرض الواقع فقد تمكن نمط الإنتاج الرعوي البدوي من مسايرة المستجدات ومواكبة أهم التغيرات في عالم إنتاج الرعوي الحديث واستفاد من تقنياه محافظا في نفس على أهم قواعده الإنتاجية والإجتماعية البسيطة التي تنطلق من مفاهيم وإعتقادات مخالفة تماما لأسس الحساب الإقتصادي بمنظوره الرأسمالي فما زال الترحال اليوم بالرغم من نزعته الفردانية يسير وفق التوجهات العامة للإنتاج التقليدي من تحديد للإنفاق إلى أقصى حد ممكن وتطوير إستراتيجيات تعويضية تغطي نقاط الضعف فيه كالشراكة مع أصحاب الأراضي في القطيع والتجارة والتهريب، كما أن الترحال الحالي لم يتخلى عن استغلال بعض الحيوانات وتسخيرها بما تقتضيه الحاجة والمنفعة ويبقى مجتمع يتشكل من خلايا عائلية هي في نفس الوقت عبارة عن وحدات إنتاجية تؤمن للفرد الحماية الاجتماعية والاقتصادية، لا يعرف الرحل مصطلحا يسمى البطالة فلكل فرد مكانته

ومهامه التي يضطلع بها وفقا لمعياري الجنس و العمر، و لأن تقسيم العمل في هذا المجتمع يتميز ببساطته و محدودية التخصص فيه فإن ذلك يجعل من تلك الوحدات العائلية تتشابه تشابها يكاد يكون مطلقا وهذا ما يدفعنا إلى تصنيفها وفقا للنموذج الدوركايمي الذي يصف مثل هذه المجتمعات بالبسيطة و المتجانسة نتيجة لضعف تقسيم العمل فيها إلى درجة كبيرة و تعرف هذه المجتمعات ما يطلق عليه دوركايم التضامن الميكانيكي حيث لا يختلف الأفراد فيها كثيرا بعضهم عن بعض و هم يتشابهون لأنهم يشعرون بنفس الأحاسيس و يتقاسمون نفس القيم كما أنهم يؤمنون بنفس المقدس.

الخاتمة

خاتمة:

حاولنا في هذه الدراسة تتبع مسار حياة الترحال في الجزائر كيف كان وإلى أين يتجه اليوم؛ وقد رأينا من خلال مجمل ما قدمناه أن الترحال مر بعدة مراحل كان أولها عصر القوة والإزدهار الذي ساد قبل 1350م حيث كان البدو الرحل يسيطرون على تجارة القوافل، يؤمنون طرقها ويصنعون الدول بكثرتهم وعصبيتهم في بلاد المغرب العربي أين كانت كذلك المدن والأمصار تحت سيطرتهم وحمايتهم.

جاءت بعد ذلك مرحلة من الضعف والتقهقر دامت إلى مجيء الفرنسيين سنة 1830 م، حيث دخلت المنطقة في فوضى عارمة كان سببها النزاعات المستمرة بين الدويلات القائمة آنذاك وكثرة الثورات لعدم توفر الإستقرار الإجتماعي و تفشي الأمراض والحروب مما نتج عنه حالة من اللاأمن تحولت على إثرها طريق الذهب القديمة (السودان، سجلماسة المغرب) إلى محور جديد يخدم أكثر مصر المماليك، كما أن إكتشاف الطرق البحرية خلال القرن الخامس عشر همش بشكل شبه كلي الدور الحيوي الذي كان يلعبه البدو الرحل في التجارة وتأمينها؛ هذه المرحلة إستمرت إلى ما بعد الوجود العثماني في الجزائر إبتداء من سنة 1518م حيث أن هذا الأخير لم يكن ليضفي تغيرات مهمة على مجرى الحياة الإجتماعية التي سادت قبل ذلك العهد في الوقت الذي كانت فيه المجتمعات الأوروبية تشهد تحولات عميقة وجذرية أدت فيما بعد إلى تفوقها وهيمنتها على باقي العالم.

ثالث مرحلة كانت مرحلة التفكك والإنحلال التي تعرض لها الترحال عقب الإحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 م والذي أجبر الرحل في الشمال على التوطن في التلال و سفوح الجبال التي لم يجد لها المستعمرون جدوى و قيمة فلاحيه وذلك باستعمال أكثر الطرق راديكالية من حصار وتصفية جسدية مما أدى إلى زوال الترحال الرطب بشكل مفاجئ وعنيف سنة 1900م مما جعل حركة العشابة نحو الشمال غير ممكنة تدريجيا حتى تم إلغاؤها تماما من طرف الإدارة الفرنسية سنة 1920م، وبالتالي كان على الترحال الجاف أن يتعرض بدوره إلى عوامل الإنحلال و التفكك، فلقد حوصر هذا الأخير مدفوعا إلى المناطق الأكثر فقرا من الهضاب العليا، فكان على الرحل أن يواجهوا الوضع الجديد ويحاولوا تخطي ندرة المياه

والكلأ في تلك المناطق الشحيحة من جهة و تأمين الجو المناسب لقطعانهم والطعام لعوائلهم من جهة أخرى، فأضطرهم ذلك إلى تحويل حركتهم نحو الجنوب حيث لا يمكن لأغنامهم أن تطيل البقاء بعد النصف الثاني من أفريل و هذا بسبب إرتفاع درجة الحرارة وقلة المياه هناك، فأدت جملة هذه المستجدات إلى الاستغلال الفاحش لمراعي الهضاب كما أن الحاجة أيضا إلى الطعام أجبرت الرحل على ممارسة الزراعة مما جعل قرابة المليون من الأراضي الرعوية تخضع لعمليات حرث مكثفة من أجل توفير القمح و الشعير اللذان كانا مصدرهما فيما مضى الشمال، ومع انتهاء كذلك الدور التقليدي للبدو الرحل كوسطاء تجاريين بين التل و أهل القصور بدأت سلسلة التخلي عن الحياة القديمة و عن قطعان الماشية الموفورة إما بحثا عن عمل مأجور عند المستعمرين كخماسة أو الإكتفاء بعدد قليل من رؤوس الغنم و القبول بحياة مزرية فرضها الواقع الإستعماري بكل ما يحمله من قيم تختلف جذريا عن القيم التي عهدوها من قبل و علاقات جديدة لها منطقها الخاص كتعميم التعاملات النقدية و تفكيك وحدة الأراضي و إنتشار العمل المأجور ، هذه المفاهيم الرأسمالية المهيمنة جعلت من النزعة الفردانية داخل المجتمع الجزائري تزداد شيئا فشيئا حتى هددت البنى الاجتماعية و الاقتصادية التقليدية. بعد الإستقلال الوطني تأتي مرحلة التعايش ومحاولة الإستمرار إذ ظهر نوع جديد من الترحال يعتمد إستراتيجيات تخالف تماما تلك التي كانت تحرك مفاهيم وأسس الترحال القديم وتتلاءم أكثر و المستجدات الحاصلة اليوم من نقص في المساحات الرعوية و محدودية التنقل بسبب زيادة إنتشار ملكية الأراضي حيث أعطى إستعمال الأعلاف الصناعية و الشاحنة كوسيلة نقل بديلة، نفسا جديدا لترحال إحترافي يستأثر الملكية الفردية بدلا من الملكية العائلية وتبرز فيه العلاقات الإجتماعية المبنية على إقتصاد السوق عوض العلاقات الإجتماعية المبنية على القرابة، الموالاة أو التبعية هذا بالإضافة إلى ألفة المدن والأسواق حيث أصبح الرحل يترددون عليها بشكل دائم ومستمر ناهيك عن تغير منطق العلاقات الخارجية مع المحيط والتي كان يتحكم فيها شيخ القبيلة وأعيانها إلى منطق فرداني يتوقف على المرتحل في حد ذاته.

إن ترحال اليوم أصبح أكثر مرونة في تقبل العصرنة ووسائلها وهو في نفس الوقت لا يزال يحتفظ بكل فاعليته القديمة فيما يخص التأقلم مع ظروف الطبيعة المتباينة حيث يستمر الدور التكاملي الذي أوجدته الجغرافيا و صنعه التاريخ بين التل والصحراء وهو يتجه نحو نمط جديد يزاوج بين أساليب الإنتاج الرعوية الحديثة والتقليدية أين يحافظ فيها الترحال على أهم

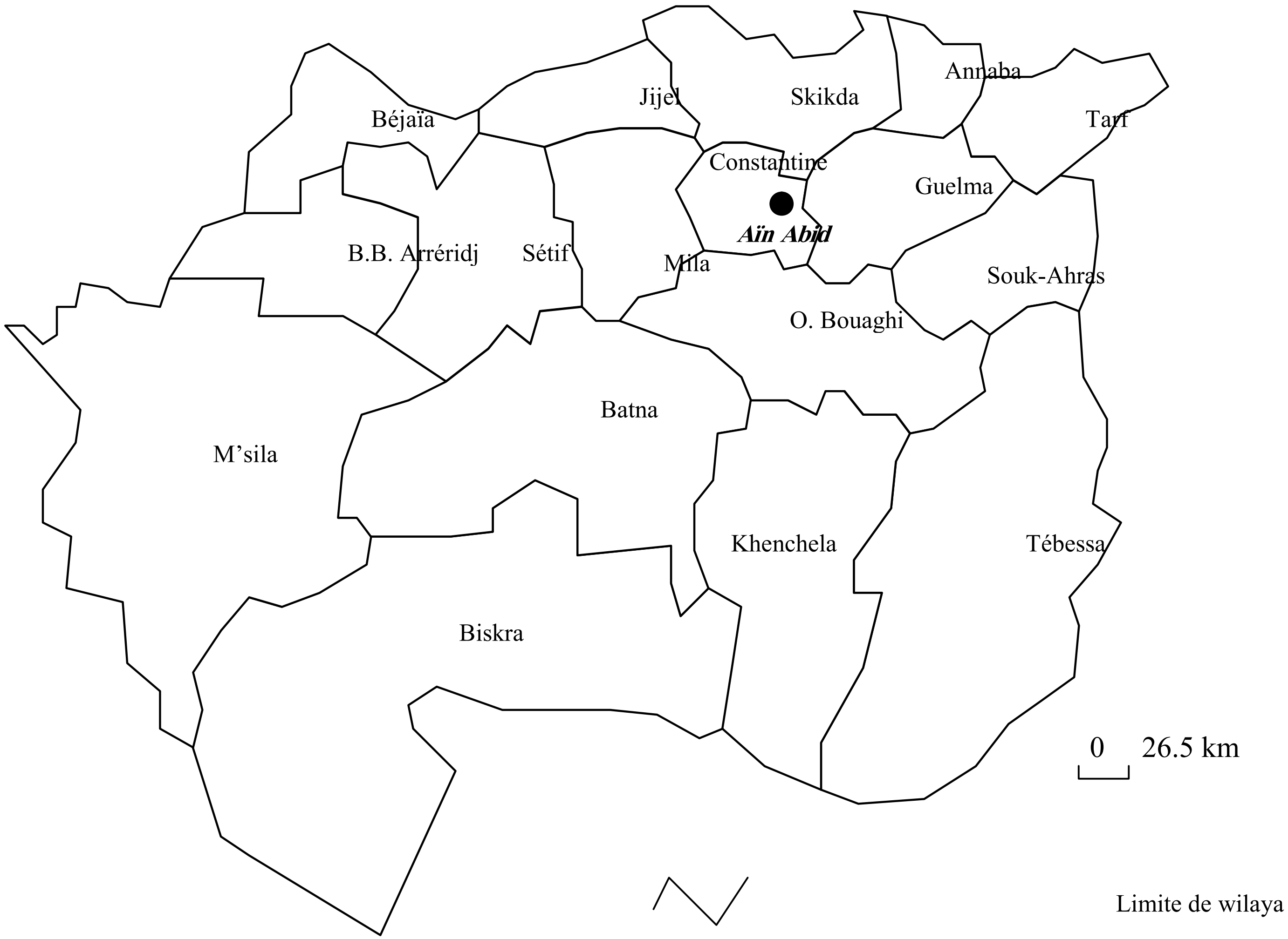
قواعده العملية القديمة بخطوطها العريضة مطورا إستراتيجيات تعويضية تبقي على توازنها، هذا بالإضافة إلى أن بساطة هذا الإنتاج هو ما يجعله في الأساس ذا بعد إقتصادي ناجع في ظل ما تعرفه الدولة اليوم من أزمة في توفير السكن والشغل.

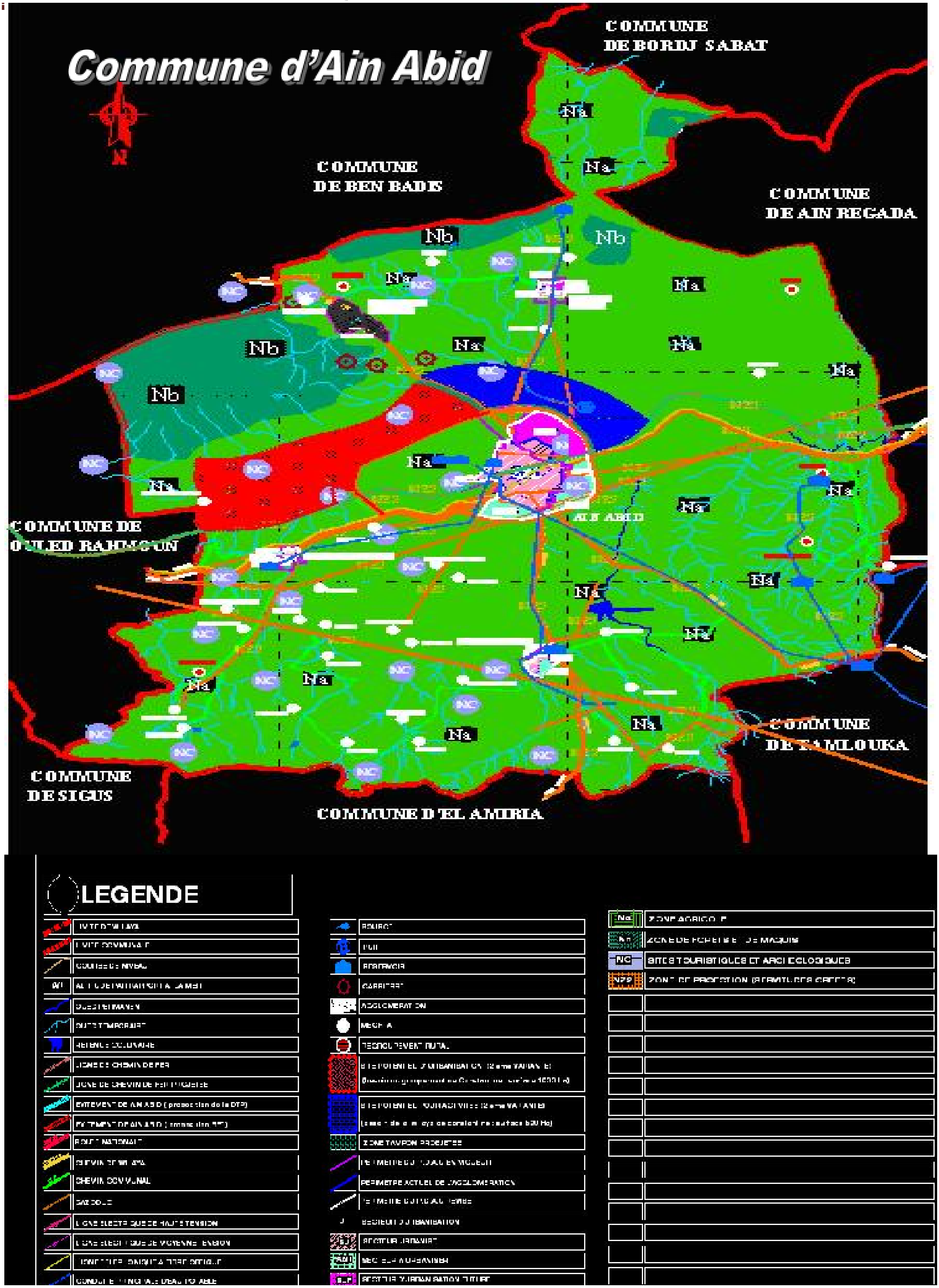
يبقى إذن البدو الرحل في الجزائر يشكلون مكونا هيكليا للمجتمع الجزائري لهم وزنهم الثقافي والإقتصادي المشهود هذا على الرغم من قلة وزنهم الديمغرافي، ومن المهم كذلك أن يبقى البحث مستمرا ومتاحا للإجابة على العديد من التساؤلات التي لم تتح لنا الفرصة بعد في صبر أغوارها جيدا، كمثل التسائل عن وجهة الأموال الطائلة التي يجنيها البدو الرحل من خلال تربيتهم للمواشي، فيما يستثمرونها وأين يوجهونها ؟.

ملحق الخرائط

NORD-EST ALGERIEN

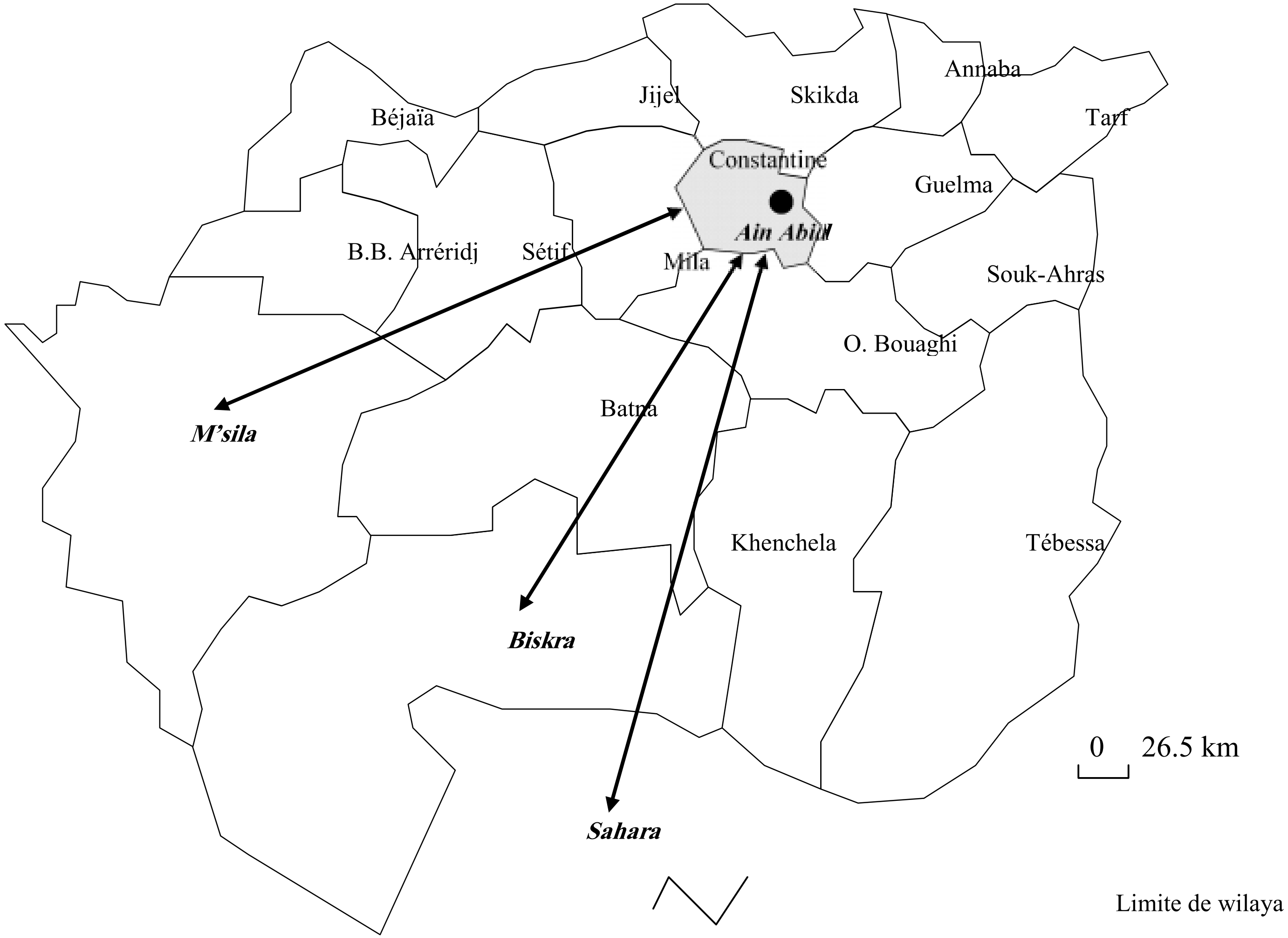
LIMITES ADMINISTRATIVES DE WILAYAS




Commune d'Ain Abid
N
COMMUNE DE BORDJ SABAT
COMMUNE DE BEN BADIS
COMMUNE DE AIN REGADA
COMMUNE DE OULED RAHMOUN
AIN ABID
COMMUNE DE SIGUS
COMMUNE D'EL AMIRIA
Na
Nb
NC
LEGENDE
ZONE AGRICOLE
SITES TOURISTIQUES ET ARCHEOLOGIQUES
ROUTE NATIONALE
CHEMIN COMMUNAL
AGGLOMERATION

NORD-EST ALGERIEN

MOBILITE NOMADE VERS AIN-ABID



ملحق الصور

الصورة رقم:01

البدو الرحل يتجاذبون أطراف الحديث



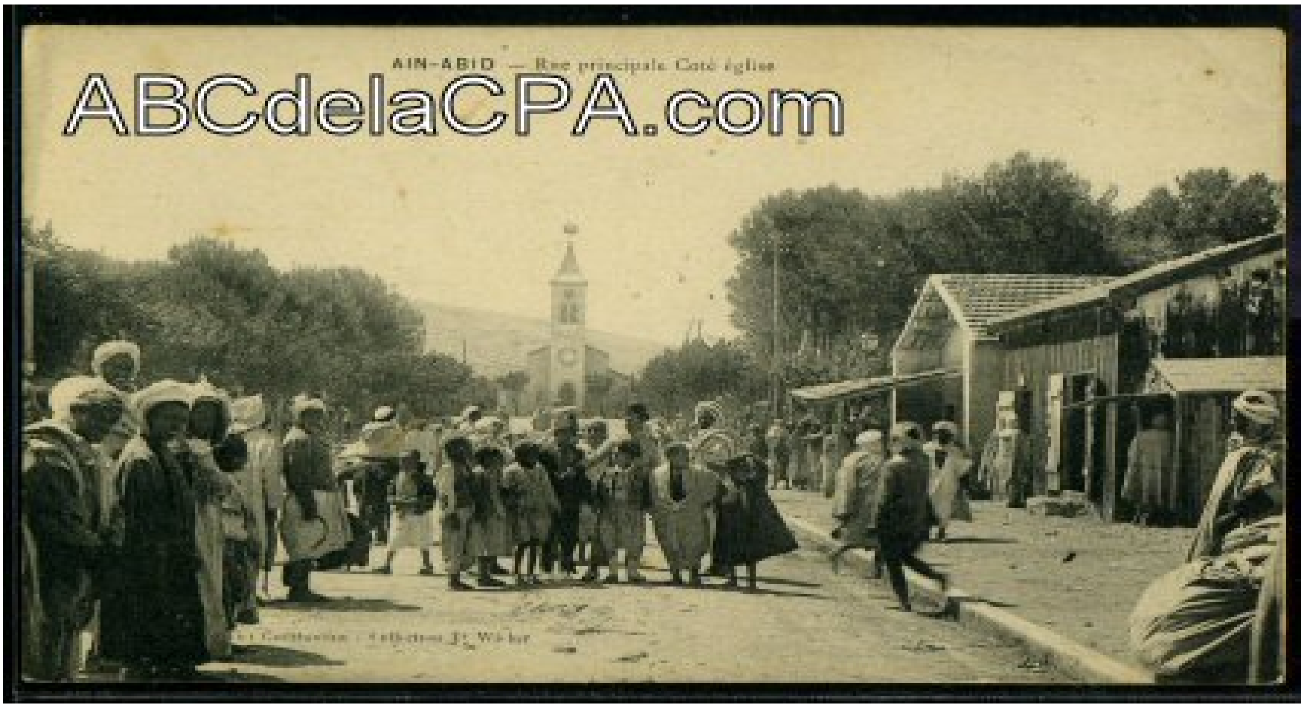


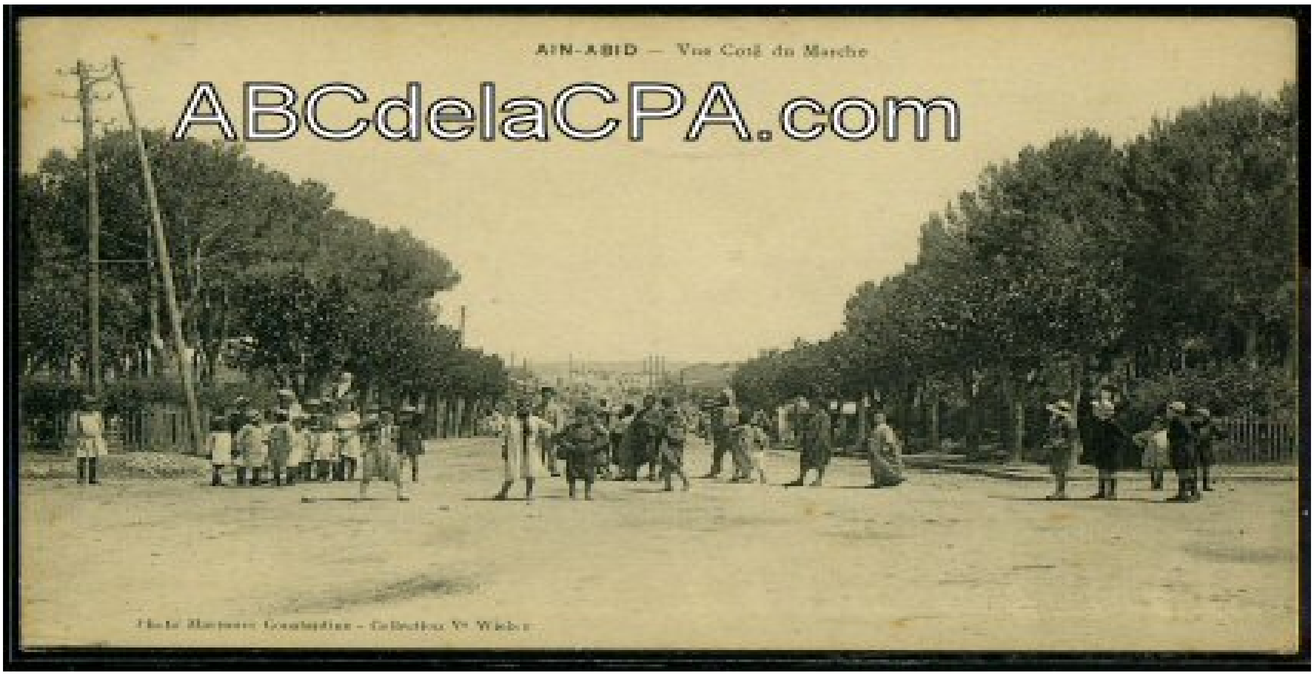
المصدر: إنجاز الطالب يوم 29 جويلية 2008

يجد البدوي كل الراحة في الحديث وهو يدخن سجائر العرعار ويتناول كوب الشاي ولا يحبذ الإنعزال عن جماعته- فهو ينتمي إليها أكثر مما ينتمي إلى نفسه وأثناء المحاورة يسترسل في سرد قصص الماضي البعيد متفاخرا بأنسابه وأجداده، يقص مغامراته التي لا تنتهي مع حياة الترحال وما يصادفه فيها من ألوان الخلق وعجيب الخُلق، وهو أثناء ذلك يستنجد بذاكرة من حوله ممن شاهدوا ما شاهد أو سمع ذكرا عنه.

الصورة رقم : 02

عين عبيد خلال الحقبة الإستعمارية (قبل 1900م)





Source : http://images.google.com/images Le 14/08/2008 à 10:04

تظهر الصورة مجموعة من سكان عين عبيد يقفون بالشارع الرئيسي وبساحة السوق (في المشهد الثاني) وهم يرتدون ألبسة تقليدية عبارة عن قدوارة ، شاش وبرنوس وهم لا يزالون على وصف البدو وتقاليدهم في تلك الفترة غير البعيدة من زمن الإحتلال .

الصورة رقم: 03

آثار رومانية بمنطقة عين عبيد (العهد البيزنطي)

(أ) قبر حجري



(ب) مهراس



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 25 ماي 2009

وجدت هذه الآثار بحي البستان (عين عبيد) على إثر أشغال الحفر الجارية لبناء مسجد أحمد حماني وهي تعود حسب معاينة قامت بها الأستاذة : سعاد سليماني من معهد التاريخ ، قسم التاريخ والآثار–جامعة قسنطينة – إلى العهد البيزنطي أي حوالي القرن الثالث إلى الخامس ميلادي ، فوجود مقبرة بهذا المكان يؤكد فرضية وجود مدينة رومانية أو بيزنطية مطموسة المعالم غير بعيدة عنها، هذا يعززه أيضا الإكتشافات المتعددة التي تتم عن محض الصدفة بين الحين والآخر من طرف المواطنين لآثار تعود إلى حقب مجهولة مما يؤكد من جميع النواحي أن منطقة عين عبيد قد عرفت وجودا سبق الوجود الفرنسي كما أنها تدل أيضا على أنها كانت تعرف نشاطا إقتصاديا مهما يرتكز بالدرجة الأولى على النشاط الفلاحي.

الصورة رقم: 04

مجازر 20 أوت 1955 بعين عبيد



Source : http://www.1novembre54.com/vidéo Le 5/02/2008.

لم يتوانى المستعمر في رد فعله الأولي على الهجومات التي نفذها المجاهدون يوم 20 أوت 1955 وطيلة أسبوع كامل من هذا التاريخ على إرتكاب أبشع المجازر في حق سكان عين عبيد العزل من أطفال وشيوخ و عائلات أبيدت بأكملها .

الصورة رقم :05

البدو الرحل يتعرضون إلى الإنتقام الأعمى بعد هجومات 20أوت 1955 على عين عبيد



Source : http://www.1novembre54.com/vidéo Le 5/02/2008.

تظهر الصور التي مصدرها شريط سمعي بصري تقدم معمرين من خيمة البدوي الذي كان يستعد للرجوع إلى الصحراء من محطة القطار بعين عبيد خلال أحداث 20 أوت 1955م ، يطلبان منه الخروج ثم بكل دم بارد يوجه أحدهما بندقيته إلى رأسه ليرديه قتيلا؛ وقد قام بإلتقاط هذه الصور المصور السينمائي جمال شندرلي الذي كان يعمل في الإذاعة والتلفزة في الجزائر، ولبشاعة ما رآه من مجازر أقترفت في حق شعب أعزل فضل هذا الأخير الإلتحاق بثورة التحرير المظفرة فكان أفضل ما قدمه شندرلي لها هذه الصورة التي إهتز لها الضمير العالمي وهذا على إثر عرضها أمام هيئة الأمم المتحدة من طرف ممثل الحكومة الجزائرية المؤقتة آنذاك.

الصورة رقم: 06

الشاحنة: سيدة الترحال الحالي اليوم بلا منازع

المشهد (أ):



المشهد (ب):



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 15 أوت 2008.

- أصبحت الشاحنة اليوم تشكل مشهدا من مشاهد الترحال الإعتيادية فلقد عوضت الجمل في شد المتاع وتنظيم عملية الحواسة وكذا نقل القطيع وجلب صهريج الماء و يمكنك كذلك مشاهدتها كل مساء تربض إلى جانب الخيمة (المشهد (ب)) من الجهة الخلفية وهذا كي تستعمل بطاريتها للإنارة ومشاهدة التلفاز كما أنها تكون في مأمن من أي محاولة للسطو عليها في تلك الوضعية المحاذية لمرقد الراحل؛ والشاحنة في أغلب الحال يمتلكها من هم أيسر حالا من الرحل الموالة.

الصورة رقم: 07

الرحل و الدراجة النارية



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 13 سبتمبر 2008.

عادة ما يكون عدم إمتلاك شاحنة من طرف الراحل علامة عن فقره وإمتهانه الرعي فقط لصالح أصحاب القطيع من الموالة أو أصحاب رؤوس الأموال من التلية، وهو مع ذلك لا يستغني عن خدمة دراجة نارية تسهل عليه قضاء أموره من المدينة أو جلب الماء وحتى تفقد الغنم التي يرعاها أحد الأولاد بين الحين والآخر .

الصورة رقم: 08

دور القطيع في تسميد الأرض

المشهد (أ):



المشهد (ب):



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 16 ماي 2008

(أ)- يساهم القطيع أثناء رعيه للأرض "الحصيدة " بشكل فعال في تسميدها طبيعيا وهذا عبر ما تخلفه النعاج من فضلات، لذلك يستغل الرحل هذه النقطة للتفاوض من أجل تخفيض ثمن إستئجار المرعى فيقولون:"الأرض اللي دور فيها النعجة تنزل فيها البركة" .

(ب)- يعد السماد من فضلات القطيع الذي يعرف بالغبار من أحسن العوامل التي تعطي الأرض عناصر عضوية مهمة تجعلها أكثر خصبا وهذا ما يجعل هذه المادة تعرض في الأسواق بأثمان باهضة .

الصورة رقم: 09

مضارب الخيام



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 15 أوت 2008

يختار الرحل مضارب خيامهم بعناية فائقة؛ فبالإضافة إلى كونها تنأى نسبيا عن الطريق العام (لا تبعد كثيرا حتى لا تكون معزولة عن العالم ولا تقترب إلى درجة يمكنك رؤية من يحوم حماها) تحتل كذلك مكانا يكون محميا طبيعيا من الرياح وخطر الفيضانات وقد تتغير وضعيتها في نفس المساحة حسب أحوال التقلبات الجوية وإختلاف الفصول.

الصورة رقم: 10

السوق الأسبوعية لبلدية عين عبيد





المصدر: إنجاز الطالب يوم: 22 جوان 2009.

يعج سوق عين عبيد بالسواقة والجلابة من البدو الرحل، يقضون حوائجهم المختلفة من شتى المستلزمات مما يكفيهم إلى الأسبوع القبل ويبتاعون أيضا أغنامهم التي يقلونها في شاحناتهم التي يزدحم بها السوق إزدحاما.

<u>الصورة رقم: 11</u>

<u>البيع والشراء</u>



الم

صدر: إنجاز الطالب يوم: 22 جوان 2009.

لسوق المواشي لغته الخاصة التي يتقنها الرحل جيدا وممارسة البيع والشراء فيه فن في فهم الآخر فالبدوي يقرأ الوجوه ويفهم الرموز ويزن حركات كل من يقصده وهذا أحدهم يلخص لنا مجمل الأممر في قوله:" البيع والشرا وجوه ، أنا كي قولي واحد السلام عليكم: نعرفو... جا يشري، ولا جا يتوانس، ولا جا يعاود السوق، الراجل مول الكلمة يشري بلسانو ما يحتاجش لسوارد" .

الصورة رقم: 12

الرحل لا يبتعدون عن المدينة





المصدر

: إنجاز الطالب يوم: 13 سبتمبر 2008.

صارت الخيم كتحصيل حاصل لا تبتعد كثيرا عن المدن، فلقد أصبح الترحال يعتمد عليها بشكل أساسي ويتخذها ملجأ له.

الصورة رقم: 13

الرحل يعودون إلى الصحراء

وادي خروف عين الشيخ المغير



ال

مصدر: إنجاز الطالب يوم: 21 ديسمبر 2008.

الطالب بين جماعة من البدو الرحل(لمامنية)

يشكل الرجوع إلى الصحراء حدثا مهما بالنسبة للبدو الرحل، فالحنين إلى الأهل قد بلغ أشده بعد رحلة شاقة إلى التل المليء بالغوغاء والضجيج .

تكون فرحة الرحل عارمة إذا كان العام ممطرا بالجنوب فالكلأ والماء وفيرين ولا مجال هنا للقلق من ضيق الأراضي والخوف المستمر من ولوج الغنم في الزرع كما هو الحال بالتل.

الصورة رقم:14

خيمة أولاد السايح



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 25 جويلية 2007.

تصنف خيمة أولاد السايح ضمن الخيم السوداء وهي ذات ثلاث فلجات تتخلل كل فلجة من الجانبين شريطين أبيضين؛ إجمال مساحتها لا يتجاوز 35م^2 ، نستطيع أن نرى من خلال الصورة أنها مرقعة بأجزاء من القماش والبلاستيك وهي آيلة إلى الزوال بسبب العزوف عن تقليد تجديد الفليجة من كل سنة وهذا راجع بدوره إلى توجه ساكنيها إلى حياة الإستقرار والتوطن.

الصورة رقم: 15

الخيمة النايلية (بيت أولاد عيسى) أو البيت لكبيرة





المصدر: إنجاز الطالب يوم: 25 جويلية 2007.

لا تزال الخيمة النايلية بلونها الأحمر تحافظ على هيئتها الكاملة ومنظرها الجذاب، فساكنيها من أولاد عيسى يعتنون بها أيما إعتناء، إذ تحرس النسوة بشكل خاص على حياكتها باستمرار وتجديد الفليجة المتهرئة منها كل سنة.

يتراوح عدد فليجاتها بين الثمانية إلى الإثنى عشر فليجة (1.5 / 12 م) الأمر الذي يعطي الخيمة النايلية مساحة قياسية بالنسبة للخيام الأخرى أي بين 120 $م^2$ إلى 216 $م^2$ و تطلى بصباغ خاص كي تحافظ على لونها الأحمر المتميز.

الصورة رقم: 16

خيمة أولاد دراج

خيمة حالتها متردية



القيطون



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 25 جويلية 2007.



خيمة سوامعية حالتها جيدة

تعرف خيمة أولاد دراج بالخيمة السوداء (البيت الكحلة) وهي لا تتعدى مساحتها 50 م^2 على الأكثر، منها ما هو بال و آخذ في التقهقر كبعض خيم السوامع (الصورة) الذين أصبحوا يستعملون القيطون أكثر فأكثر لأن مقامهم فيها ظرفي وعملية تجديدها لم تعد من الأهمية بما كان والقليل منها فقط لا يزال في حالة جيدة.

الصورة رقم: 17

عرس أولاد أم لخوة (أولاد عيسى) بعين عبيد

خيمة الشباب



خيمة الكبار





العريس يشارك أصحابه الرقص



موكب العروس يتجه إلى الخيمة

تقام خيمة العريس بعيدة عن خيمة الكبار وهذا كي يجد الشباب حريتهم في التمتع والرقص على أنغام الموسيقى الجلفاوية إنتظارا لموكب العروس التي تستقدم إلي الخيام على الطريقة العصرية في "كورتاج" مهيب.

الصورة رقم: 18

البدو الرحل يحصدون الفريك



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 30 جويلية 2009.

يستغل البدو الرحل فرصة تواجدهم بالتل للمشاركة في عملية الحصاد من كل صائفة ببلدية عين عبيد وهم يقومون ببعض الأعمال الخاصة التي تعجز الآلة عن إنجازها كشحن أكياس القمح والحصاد اليدوي لبعض السنابل التي لم ينضج تماما لغرض حرقها ثم إعدادها لاستخراج ما يعرف بالمنطقة بمادة "الفريك" ذات الجودة الغذائية العالية وكل هذا مقابل أجر يومي يتقاضونه لسد حاجياتهم اليومية فيكونون بذلك قد ساهموا في توفير بعضا من رؤوس أغنامهم.

الصورة رقم:19

كبير أولاد أم لخوة



لكبير القوم عند البدو الرحل مكانة هامة فهو مركز الجماعة ومحركها، يأخذ على عاتقه حل مشاكلهم وفض نزاعاتهم، يحضر في كل كبيرة وصغيرة، تمكنه حنكته وتمرسه من فرض نفسه وآرائه على الآخرين، يضفي تواجده بينهم ديناميكية خاصة ويمكنه هاتفه النقال من إنجاز ما يعجز عنه الكثيرين.

الصورة رقم: 20

حصان عربي أصيل



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 25 جويلية 2007.

على الرغم من تكلفته الباهضة وعدم جدواه من الناحية العملية للترحال اليوم بقي الحصان بقي الحصان لدى الكثيرين من البدو الرحل رمزا من رموز العروبة والفروسية لا يزالون يولعون بتربيته، يفتخرون بامتلاكه ويتباهون به، و يعتبرون إمطاؤه مضربا من مضارب الشجاعة والإقدام ، في أذيالها الخير، فحيث حلت، حلت البركة معها .

الصورة رقم: 21

المعالف (Les mangeoires)



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 25 جويلية 2007.

أصبحت المعالف من لوازم الترحال التي لا يخلو منها اليوم بيت من الخيام فهي تستعمل لتسمين الغنم بما يقدم فيها من أعلاف إصطناعية لغرض جلبها إلى السوق حتى تظهر الشاة في حالة جيدة مما يمكن الراحل بثمن جيد .

الصورة رقم: 22

عملية شحن حزم التبن (البال) إلى الجنوب



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 27 أوت 2009.

تعد حزم التبن (البال) من بين الأعلاف الأكثر تخزينا من طرف البدو الرحل فهم ينقلونها بشاحناتهم نحو الصحراء ليدعموا بها علف قطعان الماشية وقد تصل أثمان هذه الحزم مبالغ قياسية خاصة إذا ندر تصاقط الأمطار بالجنوب .

الصورة رقم: 23

الماعز يقود القطيع



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 25 جويلية 2007.

تشكل تربية الماعز كحيوان مستأنس ذو مميزات خاصة إحدى الإستراتيجيات المهمة التي يعتمدها الراحل للحفاظ على منظومته القيمية والتقليدية فهو يستهلك لحمه وحليبه من جهة ويذبحه للضيف من جهة أخرى مؤديا واجب الكرم فيكون بذلك قد وفر الشاة وأدى محامد الأخلاق في نفس الوقت.

الصورة رقم: 24

تربية الكلاب عند البدو الرحل

السلوقي جنباإلى جنب مع السعدان



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 12 جوان 2009.



الكلب الأبيض

يتعايش كلبا السلوقي و البتي أو السعدان جنبا إلى جنب لحراسة حمى الخيمة وقطيع الغنم فبينما يتميز الأول بسرعته الفائقة التي تمكنه من اللحاق بطريدته بكل سهولة نجد الثاني يتميز بقوة بنيته التي تمكنه من الفتك بها فتكا؛ ويحرص الراحل أيضا على إكتساب الكلب الأبيض الذي لا يكاد يبين وسط الغنم ولا يظهر كذلك وسط الطبيعة ليلا أو نهارا (التمويه).

الصورة رقم: 25

الحمار في طريقه لجلب الماء



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 12 جوان 2009.



الحمار ينقل في الشاحنة

يستعمل الرحل اليوم الحمار لجلب الماء الشروب والتنقل على ظهره لمسافات بسيطة عكس الماضي غير البعيد أين كانوا يسخرونه لحمل متاعهم والتسوق عليه إلى الأسواق البعيدة .

الصورة رقم: 26

الدجاج يحمي محيط الخيمة





لمصدر: إنجاز الطالب يوم: 13 سبتمبر 2008.

يعمل الدجاج على تنقية محيط الخيمة من الحشرات الضارة وهو أيضا بمثابة منبه طبيعي يعلو صوته تحسسه خطر الأفاعي والعقارب وللمرأة البدوية علاقة خاصة معها فهي التي تعتني بها وتجمع بيضها وتستشعر ما تستشعره .

الصورة رقم: 27

الجمل في التل



المصدر: إنجاز الطالب يوم: 25 جويلية 2007.

أصبح من النادر اليوم مشاهدة الجمال في التل بل إن رؤيتها من طرف أهل المدن في الشمال أصبح يعد حدثا مهما في حد ذاته وهذا بعدما كان هذا الحيوان يصول ويجول في الماضي البعيد المنطقة كلها ويصنع تاريخها وأمجادها إذ كانت طرق الذهب والحرير طرقه بلا منازع، حتى أفل نجمه شيئا فشيئا إبتداء من ظهور الطرق البحرية وإنتهاء إلى تعميم النقل ذي المحركات في الخمسينات من القرن الماضي.

المراجع

1- المراجع باللغة الفرنسية:

1- A. Cauneille, Les chaânba (leur nomadisme), Evolution de la tribu durant l'administration française, Edition du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, 1968.
2- Ageron C.R, Histoire de l'Algérie contemporaine, P.U.F, Paris, 1983.
3- Balandier Georges, Anthropo-logiques, Librairie Générale Française, Paris, 1985.
4- Berque Jacques, Les arabes, Sindbad, Paris, Mars 1973.
5- Berque Jacques, Contribution à l'étude des contrats nord africains (les pactes pastoraux beni meskine), Alger, 1836.
6- Berque Jacques, Structures sociales du haut atlas, PUF (presses universitaires de France) , Paris, 1955.
7- Boukhbza M'hammed, Monde rural : contraintes et mutations, OPU, Alger, Novembre 1992.
8- Boukhbza M'hamed, L'agro pastoralisme traditionnel en Algérie, OPU, Alger, 1982.
9- Bourdieu Pierre, Sociologie de l'Algérie, P.U.F, Paris, 1re édition. 1958, 3ème édition.1970.
10- Bourdieu Pierre, Le sens pratique, Les Editions de Minuit, Paris, 1980.
11- Boutefnouchet Mostafa, La société algérienne en transition, OPU, Alger, novembre 2004.
12- Bonte Pierre et Autres, Al-ansab la quête des origines, Edition de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1991.
13- Bronislaw Malinowski, Les argonautes du pacifique occidental, Trad. André et Simonne devyver, Gallimard, France, 1989.
14- Cambon Jules, Le pays du mouton, des conditions d'existence des troupeaux sur les hauts plateaux et dans le sud de l'Algérie, Giralt, Alger, 1893.
15- Certeux A, L'Algérie traditionnelle T_1, imprimerie de l'association ouvrière, Pierre Fantana et Cie, Alger.
16- Colonna Fanny, Savants paysans, O.P.U, Alger, Avril 1987.
17- Côte Marc, L'Algérie ou l'espace retourné, Flamarion, Paris, janvier 1988.
18- Côte Marc, L'Algérie, Media-Plus, Constantine, 2005.
19- Charles-André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, La conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), Casbah Edition, Alger, 2005.
20- Copans Jean, L'enquête ethnologique de terrain, Nathan, Paris.

21- Copans Jeans, Introduction à l'ethnologie et à l'anthropologie, Editons Nathan, Paris, 1996.
22-Cressuell Robert, Godelier Maurice, Outils d'enquête et d'analyse anthropologiques, Librairie François Maspero, Paris, 1976.
23- Donvreleur, Constantine, la jeune académie, Paris, 1931.
24- Dupire Marguerite, Peuls nomades, étude descriptive des wooaabe du sahel nigérien, Karhala, Paris, 1ère édition 1962, 2ème édition 1996.
25- E.E. Evans-Pritchard, Les nuer, Trad. Louis Evrard, Edition Gallimard, 1994.
26- Gaid Mouloud, Mokrani, Editions Andalouses, Alger, 1993.
27- Ibn Khaldoun, Discours sur l'histoire universelle, Al mouqadima, traduction nouvelle, préface et notes par Vincent Moutel, Sindbad, Paris, 1978.
28- Lacoste Yves, Ibn Khaldoun, naissance de l'histoire passé du tiers monde, 4ème édition, Librairie François Maspero, Paris, 1978.
29- Lahouari Addi, Sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu, Le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques, La découverte, Paris, 2002.
30- Lombard Jacques, introduction à l'ethnologie, Armand colin, Paris, 2004.
Marouf Nadir, Terroirs et villages Algériens, O.P.U, Alger, Avril 1984.
31- Mendras Henri, Eléments de sociologie, Paris, Armand colin, 1ére édition, 1989, 4éme édition, 1996.
32- Merlier Ernest, Histoire de Constantine, 1908, 730p, imprimerie Jérôme Marle et F. Biron, Constantine.
33- Nacib Youssef, Une geste en fragments publisud, paris, 1994.
34- Piguet François, Des nomades entre la ville et les sables, Karthala-IUEF, Paris, 1998.
35- Smati Mahfoud, Formation de la nation algérienne, Edition Zaiache, Alger.
36- Souibès Boulem, Algérie, terre de contrastes, Edition lablimage, Alger, 2006.
37- Rachik Hassan, Comment rester nomade, Afrique orient, Casablanca an 2000.
38- Remaoun Hassan et Autres, L'Algérie, histoire, société et culture, Casbah, Alger, L'an 2000.

2 معاجم باللغة الفرنسية:

1- David J, Dictionnaire du français fondamental pour l'Afrique, Didier, Paris, 1974.
2- Le Robert, Dictionnaire historique de la langue française, Tome 2, Paris, Octobre 2004.
3- Le petit la Rousse illustré, La Rousse, Paris, 2006.
4- Dictionnaire Hachette Encyclopédique, Hachette livre, Paris, 1995.

3 رسائل دكتوراه باللغة الفرنسية:

1- Arfa-Cherfi Yamina, L'agriculture familiale en Algérie, Structures foncières et dynamiques sociales, Enquête dans une commune céréalière du constantinois (Ain-Abid), Thèse pour le doctorat d'Etat, Option:Sociologie du développement, Année universitaire 2005/2006.

2 - Chellig Nadia, Pouvoirs et société agro pastorale dans les hautes plaines steppiques en Algérie, les communes pastorales de l'Algérie centrale, thèse de doctorat d'état en lettres et sciences humaines, université de Provence AIX Marseille I, année 1986.

4 مقالات ومجلات باللغة الفرنسية:

1-Awal, L'anthropologie du maghreb selon Berque, Bourdieu, Geertz et Gellner, Ibis press, Paris, 2001.

2- M'hamed Boukhobza, Société nomade et État en Algérie.
(http://horizon.documentation.ird.fr)
3- Brahim Salhi, Bilan critique de l'ethnologie en Algérie, Ecole doctorale en Anthropologie, Oran, Année 2006-2007.

4- Fr. Ratzel, L'évolution du nomadisme en Algérie, Anthropogeographie (Stuttgart, 1882).

5- Debach Ch et autres : Les motivations de la personnalité algérienne en ce temps de décolonisation, In Mutation culturelle et coopération au Maghreb, C.N.R.S, Paris, 1969.
6- Omar Aktouf, Méthodologie des sciences sociales et approche qualitative, De l'Anthropologie à l'observation participante, Ecole doctorale en Anthropologie, Oran.2007.

7- Marouf Nadir, Paysans et monde rural, CRASC, Oran.
8- Retaille Denis, Le nomade, l'oasis et la ville, la conception nomade de la ville, fascicule de recherche n° 20, U.R.B.A.M.A, Tours, France, 1989.
9- Michele Nori et Autres, Droits pastoraux, modesde vie et adaptation au changement climatique, Iied, Dossier no. 148, Mai 2008.

المواقع الإلكترونية:

1-http://ac-gronoble.fr/webcurie/pédagogie/histgeo
2- http://biosphère.blog.lemonde.Fr
3- http://books.google.com
4- http://fr.wikipedia.org/wiki/peuls
5- http://fr.wikipedia.org/wiki/Productivit%C3%A9
6- http://fr.wikipedia.org/wiki/Nomade
7- http://fr.wikipedia.org/wiki/Nomadisme
8- http://fr.wikipedia.org/wiki/%C3%89conomie
9- http://horizon.documentation.ird.fr
10- http://lewebpedagogique.com
11- http://ressources.ciheam.org
12- http://thawra.alwehda.gov.sy/_archive.asp
13- http://www.universalis.fr/encyclopedie/N130291/NOMADISME
14- http://www.ovins.fsaa.ulaval.ca
15- http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/geo
16- http://www.ulum.nl/d213.html
17- http://www.almithnab.net/forum/index.php?showtopic=14074
18- http://www.xavierperon.com
19- http://www.saaid.net/arabic/7.htm

المراجع باللغة العربية:

1- ابن خلدون عبد ا لرحمن، مقدمة العلامة ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من دوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، 2003 م.

2- إتيين برونو، عبد القادر الجزائري، ترجمة المهندس ميشيل خوري، الديوان الوطني للنشر والطباعة،الجزائر، ط $_2$، 2001.

3- السويدي محمد، بدو الطوارق بين الثبات والتغير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

4 السويدي محمد، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري، تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، جويلية 1990.

5- الفوال صلاح مصطفى ، علم الاجتماع البدوي، التأصيل النظري، الجزء الأول، دار الغريب، القاهرة، 2002.

6- الفوال صلاح مصطفى ، علم الاجتماع البدوي، البنيان الاجتماعي للمجتمعات الصحراوية القبائلية الرعوية، الجزء الثاني، دار الغريب، القاهرة، 2005.

7- الفوال صلاح مصطفى ، علم الاجتماع البدوي، النظم والأنساق، دراسة البنية الإجتماعية للمجتمعات العشائرية القبلية، الجزء الثالث، دار الغريب، القاهرة، 2005.

8- الفوال صلاح مصطفى ، مناهج البحث في العلوم الاجتماعية، مكتبة غريب، القاهرة، سبتمبر 1982.

9- بوعزيز يحيى ، ثورات الجزائر في القرن التاسع عشر والعشرين، دار البعث، قسنطينة، الطبع الأولى،1980.

10- علي فؤاد احمد، مشكلات المجتمع الريفي في العالم العربي، دار النهضة العربية، بيروت ، 1988.

11- غدنز أنتوني ، علم الإجماع، ترجمة و تقديم الدكتور فايز الصياغ ، بيروت، مؤسسة ترجمان ، ط4، 2005.

12- كارول بالمر، الفلاحون والبدو في الأردن، ترجمة عفاف زيادة، مؤسسة أهلنا، 2008.

13- مشارفة محمد زهير، الحياة الاجتماعية عند البدو الرحل في الوطن العربي، طلاسدار، دمشق،1988.

14- مذكرات الرئيس علي كافي، من المناضل السياسي إلى القائد العسكري 1946- 1962، دار القصبة للنشر، الجزائر، 1999.

15- هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، الجزء الأول، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، .1976

16- هاينريش فون مالستان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، ج2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،1979.

قائمة المعاجم باللغة العربية:

1- ابن منظور، لسان العرب المحيط، المجلد الأول، من الألف إلى الراء، دار الحديث، القاهرة، سنة 2003.

2- ابن منظور، لسان العرب المحيط، المجلد الأول، الأحرف ظ،ع ،غ ، دار الحديث، القاهرة، سنة .2003

مجلات باللغة العربية:

1- إنسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الإجتماعية، عدد 38، أكتوبر- ديسمبر2007.

2- الآداب، مجلة أدبية فكرية عن معهد الآداب واللغة العربية، العدد: 02، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، .1995

3- مجلة العلوم الإنسانية، دار البعث، قسنطينة، .1999

4- خواطر وحي هجوم 20أوت1955، نشرة إعلامية تصدرها قسمة حزب جبهة التحرير الوطني بعين عبيد، أوت 1986.

مذكرة ماجيستير:

1- لغريبي نسيمة، تجربة توطين البدو الرحل بالمدينة الصحراوية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير، جامعة قسنطينة، 2007.